الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية — كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسنطينة — قسم التاريخ

الرقم التسلسلي:.....

رقم التسجيل:.....

هجرة علماء تلمسان إلى فاس ودورها الثقافي بين الجزائر والمغرب خلال القرن 10 هـ / 16م

مذكرة مكملة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث

تخصص: العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير.

إعداد الطالب: مسعود بقادي

إشراف الدكتور: عبد المجيد قدور

لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الدرجة	الجامعة الأصلية	الصفة
01/ أ.د. أحمد صاري	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا .
02/ د.عبد المجيد قدور	أستاذ محاضر – أ–	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفا ومقررا
03/ أ.د. احميدة عميراوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا.
04/ د. خليفة حماش	أستاذ محاضر - أ–	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا.

السنة الجامعية : 2014/2013

بسم الله الرحمان الرحيم

قال الإمام الشافعي رحمه الله :

تغرّب عن الأوطان في طلب العلا ... وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرّج هم واكتساب معيشة ... وعلم وآداب وصحبة ماجد

فإن قيل في الأسفار ذل وغربة ... وقطع فيافٍ واقتحام شدائد

فموت الفتى خير له من مقامه ... بأرض عدو بين واشٍ وحاسد

ديوان الشافعي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وعرفان

أتوجه بالشكر الجزيل الى كل من قدّم لي يد المساعدة في انجاز هذا العمل وأخص بالذكر :

- عمال مكتبة جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة وكذا قسم الدوريات بنفس الجامعة
- عمال أرشيف مدينة قسنطينة
- عمال المكتبة الجامعية بجامعة الجزائر رقم: 02
- عمال المركز الثقافي – هوارية – بمدينة آفلو

فلكل هؤلاء و أولائك الذين لم يبخلوا علي بكنوز هذه المكتبات ،لهم مني تحية تقدير و اجلال و احترام

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي ، وباكورة عملي الى كل من قدّم لي يد المساعدة بتوجيه أو نصح أو دعوة خالصة بظهر الغيب وأخص بالذكر :

- **زوجتي** منّة الله ،وهبة السماء،وعطاء القدر،ونعمة الأيام، وبداية البدايةونهاية النهاية فإليها الفضل كل الفضل بعد الله عز وجل في ظهور هذا العمل
- **أبنائي** ،فيصل تقي الدين،كوثر نور الهدى ، أشواق ندى الرحمان ،وخاصة:قرّة عيني،ومهجة فؤادي،ودفئ الأيام،وبراءة الطفولة،وحنان الأبوة،وفلذة الكبد،ورؤية المستقبل البعيد. . .**ابنتي ملاك وجدان** ،التي شغلتني هذه الرسالة عنها أياما و ليالي طوال
- **أستاذي الفاضل** الدكتور عبد المجيد قدور،الذي أشرف على هذا العمل منذ أن كان مشروعا،الى أن أصبح ثمرة يانعة،فكلمة شكر غير كافية في حقّه،فله مني أسمى آيات التقدير و الاحترام
- **زملائي** الأساتذة وزميلاتي الأستاذات، والطاقم الإداري بثانوية هواري بومدين بآفلو ولاية الأغواط
- **أصدقائي** في الدراسة الذين جمعتني بهم ذكريات لن أنساها ما حييت،ومنهم: مقدود بشير ، وفيصل قاسم،وحمزة بوقادوم،وسمير مشوشة،حفيان رشيد وخاصة الأخ والزميل: **عمارة بشير** الذي فتح لي قلبه ومنزله وأغدق عليّ خدمات جليلة **أحسست** من خلالها بعظمة رجولته وطيب منبته،فله ولأسرته تحية تقدير و احترام .

قائمة المختصرات

باللغة العربية :

- د.ذ.ت.ط : دون ذكر تاريخ الطبع
- د.م.ج : ديوان المطبوعات الجامعية
- صص : صفحتان فأكثر
- تح : تحقيق
- تع : تعريب
- م.و.ك. المؤسسة الوطنية للكتاب

باللغة الفرنسية :

- **IBID:ibidem**
- **OP.CIT:ouvrage préci te**
- **N°:Numéro**
- **PP:page contenue**
- **R,A:Revue Africaine**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمـــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله المنفرد بالبقاء،الحاكم على سواه بالفناء،المختص بالإحاطة والإحصاء،والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد المرسل بالحنفية الغرّاء،وعلى آله وصحبه أنجم الاقتداء،وبذور الاهتداء وحافظي الشريعة بعدهم مصابيح الاقتداء ماكرّ ظلام بالليل وبالنهارضياء وبعد:

يعتبر القرن 10 هـ / 16 م،محطة تاريخية هامة في حوض البحر المتوسط عامة ،و منطقة المغرب العربي (شمال إفريقيا) بصفة خاصة،ذلك أن الأحداث التي ميزت هذا القرن سياسيا وعسكريا وحضاريا قد ألقت بملامحها على المنطقة ككل،ورسمت لها مستقبلا متأرجحا بين القوة والضعف لعقود من الزمن.وبسبب تسارع الأحداث وتنوعها اهتم عدد من المؤرخين بتلك التطورات التي كانت ولا تزال مجال بحوث واسعة من طرف المؤرخين الأوربيين بصفة عامة،ومؤرخي المنطقة بصفة خاصة.والملفت للنظر في كل تلك التطورات الاهتمام بالجانب السياسي والعسكري (في تلك الدراسات)وقلة التركيز على الجانب الفكري والثقافي طيلة هذا القرن (القرن 10هـ/ 16م) .

إن الحراك السياسي والاجتماعي والثقافي(خلال الفترة موضوع البحث)ساهمت فيه عوامل كثيرة ومتعددة، أبرزها – العلماء – الذين تحتم عليهم مواكبة هذه المعطيات والتطورات التاريخية والإدلاء بآرائهم،كل حسب ثقافته وتكوينه أولا،وحسب توجهاته والظروف المحيطة به ثانيا.

ولما كان هذا الموضوع متشعبا،والآراء فيه متعددة،إرتأيت أن يكون مجال دراسة،أحاول من خلالها الإلمام بظاهرة ملفتة للانتباه بالنسبة لبعض العلماء،دلت دلالة واضحة على بعد نظر البعض منهم ألا وهي ظاهرة – هجرة العلماء – وأسبابها وانعكاساتها على البلدين الجزائري والمغربي،خلال القرن ال10هـ / 16 م،ولما كانت الظاهرة قد خيّمت على أجزاء متعددة من البلدين في الفترة موضوع البحث،حاولت التركيز على منطقة معينة ألا وهي الجزء الغربي من إيالة الجزائر والجزء الأوسط للمغرب الأقصى،لأسباب متعددة، أهمها كون المنطقتان تشتملان على حواضر ومنارات علمية شامخة وعريقة،ونعني بهما،حاضرتي تلمسان وفاس .

وعليه فقد وقع اختياري على الموضوع الموسوم ب : "هجرة علماء تلمسان إلى فاس ودورها الثقافي بين الجزائر والمغرب خلال القرن 10 هـ . 16م".

دواعي اختيار الموضوع :

هناك مجموعة من الأسباب والدوافع جعلتني أقتنع بضرورة الخوض في هذا الموضوع ولعل أهمها :

1–ظاهرة الهجرة الملفتة للانتباه خلال هذه الفترة (القرن10هـ/ 16 م)،وبالتحديد في منتصف هذا القرن من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى .

2–عموميةبعض الدراسات في تناول مسألة الهجرة،ومعظمها يتناول الهجرة الجزائرية خلال فترة العهد العثماني ككل،بالإضافة إلى قلة تركيزها على التواصل الثقافي – من خلال ما أنتجه هؤلاء العلماء– سواء أكان هذا التواصل سلبا(كالركود واجترار ما فات) أوإيجابا (كإبداع العلماء من حيث التدريس وطرق التربية والإنتاج الفكري من مصنفات في مختلف الفنون)

3-شغفي واهتمامي بالجانب الثقافي والتساؤلات الكثيرة التي كانت تراودني حول هؤلاء العلماء ومجالات اهتمامهم وآثارهم – خلال الفترة التاريخية المدروسة –

4-يُعتبر موضوع الهجرة بمثابة حلقة وصل وتواصل بين الأفراد والجماعات،خاصة إذا كان البلد المهاجر منه والمهاجر إليه يحمل نفس السمات الثقافية والحضارية والتاريخية، فأردت أن أطرق الموضوع مبرزا هذه الحلقة الثمينة في تاريخ الشعبين الشقيقين الجزائري والمغربي .

5- تحفيزات وإرشادات الأستاذ المشرف الذي كان يتطرق الى موضوع الهجرة بين الحين والآخر،في الدروس النظرية التي كنا نتلقاها،في السنة الأولى ماجستير،مما أوحى إليّ بضرورة شحذ الهمة والتوغل في هذا الموضوع الشيق،آملا في ذلك أن أضيف لبنة جديدة في صرح تاريخنا الثقافي.

الهدف من الدراسة :

هناك مجموعة من الأهداف وجدت نفسي أضع لها تصورا من خلال هذه الدراسة أبرزها:

1 – التعريف بذلك العدد المتميز والمتنوع من العلماء الجزائريين خلال القرن 10هـ / 16 م

2 – الهجرة كظاهرة لها أسبابها و نتائجها – سلبا و إيجابا –

3 – دور –العلماء– في مواكبة التطورات والأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية ،والتفاعل معها في كل الأحوال و الظروف .

4 –التواصل الثقافي بين الشعبين الجزائري والمغربي ودور العلماء في ذلك .

5–التضامن بين الشعبين الجزائري والمغربي في كل الأوقات والعصور،لاسيما وقت الشدائد ،ولم يقتصر ذلك على فترة القرن 10هـ/16م ،بل في فترات تاريخية متعددة،وخير مثال على ذلك وقوف الجزائر إلى جانب الملك المغربي محمد الخامس في خمسينات القرن الماضي واحتضان المغرب للاجئين والمناضلين الجزائريين إبان الثورة التحريرية الكبرى .

الإطار الزماني و المكاني للموضوع:

من خلال مقدمة الموضوع يتضح جليا أن الفترة موضوع البحث هي ذلك القرن الذي شهد تحولا كبيرا في شتى المجالات – سياسيا و حضاريا –وقد أثّرت في هذا التحول مجموعة من العوامل جعلته يعتبر بحق قرن المتغيرات،إنه القرن 10 هـ / 16 م،زمنيا،بينما مكانيا هو الجهة الغربية لإيالة الجزائر والجهة الوسطى للمغرب الأقصى .

الإشكالية المطروحة في هذه الدراسة :

الإشكالية المطروحة في هذا الموضوع تتعلق بظاهرة(هجرة نخبة من الجزائريين)في فترة زمنية شهدت العديد من الهزّات السياسية(خاصة إيالة الجزائر والمغرب الأقصى)مماجعل هذه النخبة تؤيد أوتعارض هذا الطرف أوذاك ومن هنا جاءت الإشكالية حول أسباب هجرة العلماء (علماء تلمسان) ونتائجها على مسألة التواصل

الثقافي بين البلدين وهل حقيقة كان هناك تواصلا ؟ وما هي مميزاته ونتائجه ؟ بالإضافة إلى إشكاليات جزئية أبرزها :

لماذا شملت هذه الهجرة العلماء بالذات ؟

من هم هؤلاء العلماء ؟ وهل كانت علومهم دينية أم دنيوية ؟

هل التقلبات والأحداث التي شهدها القرن 10هـ/ 16 م جعلت هؤلاء العلماء يقفون موقفا واحدا أم اختلفت آراؤهم ؟وهل كانوا صارمين في مواقفهم أم اعتبروا تلك الأحداث قضاء وقدرا وأنها سنة الله في خلقه أليس من الغرابة أن نرى عددا من هؤلاء العلماء يغادرون وطنهم فرادى وجماعات الى أماكن متعددة وهل هذه المغادرة تكتيكا و استرجاعا للأنفاس ؟ أم هو تخاذل وهروب من الواقع المعاش بدافع أن أرض الله واسعة ؟ أم لأهداف و غايات أخرى ؟

ما موقف المغرب الأقصى – سلطة و شعبا- من هذه الهجرة ؟

المنهج المعتمد في الدراسة :

إن طبيعة الموضوع هي التي تجعلنا نحاول اختيار منهج مناسب لهذه الدراسة التي نتمنى أن تثمر بأشياء جديدة نخالها تخدم البحث العلمي من جهة ،وإضافة لبنة جديدة للتاريخ الثقافي الجزائري من جهة أخرى،وعليه فقداعتمدت في هذه الدراسة المنهج التاريخي الوصفي الذي يتتبع مراحل و أطوار هذه الهجرة خلال الفترة موضوع البحث ثم المنهج التحليلي الذي يفسر الأسباب و المسببات والأبعاد الحقيقية لهذه الهجرة و نتائجها ومن ثمة الوصول –بإذن الله –قدر المستطاع إلى الإجابة على تلك الإشكاليات المطروحة في الموضوع.

الدراسات السابقة :

من بين الدراسات السابقة التي تناولت موضوع هجرة العلماء الجزائريين ليس للمغرب الأقصى فحسب ،بل للبلدان العربية و الإسلامية ، و هي دراسة مستفيضة للأستاذ عمار هلال- رحمة الله عليه – بعنوان :

– العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع و العشرين الميلاديين (الثالث إلى الرابع عشر هجري) بالإضافة إلى المقال الهام و المتميز لنفس الأستاذ (عمار هلال) بعنوان: العلماء الجزائريون في فاس فيما بين القرنين العاشر و العشرين الميلاديين (الرابع إلى الرابع عشر هجري)

–كذلك دراسة أخرى بعنوان : هجرة و نفي أهل العلم و الدين من الجزائر (1516 – 1830) للأستاذة سعاد لبصير ،وهي دراسة قيمة أبرزت من خلالها دوافع وأسباب الهجرة الجزائرية في فترة التواجد العثماني بالجزائر .

–وهناك دراسةأخرى،استعنت بهاووجّهتني كذلك بعنوان المهاجرون الجزائريون ودورهم السياسي والثقافي والاجتماعي في المغرب الأقصى (1830 – 1930) ، للدكتور ، قاصري محمد السعيد ، وعلى الرغم من معالجة الأستاذ قاصري للهجرة الجزائرية في الفترة المشار إليها (1830 – 1930) إلاّ أنه قد أفادنا في فصله التمهيدي ، بالتطرق للمهاجرين الجزائريين نحو المغرب الأقصى في فترة ما قبل التواجد الفرنسي، و ذلك

بالإشارة إلى مجموعة من الشخصيات الجزائرية العلمية التي هاجرت إلى المغرب،ورغم أن الأستاذ قاصري قد أخذ تراجم تلك الشخصيات من كتب عدة، ككتاب الدوحة لابن عسكر،وكتاب البستان لابن مريم،و كتاب تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي ... إلا أنني استفدت من تلك الدراسة استفادة كبيرة .

-كذلك كتاب : العلاقات الاقتصادية والاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب في القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي الجزء الثاني ، للدكتور عمار بن خروف ، استفدت منه خاصة في الجزء المتعلق بالجانب الذي عرّج فيه على مجموعة من العلماء الجزائريين الذين هاجروا و انتقلوا إلى المغرب الأقصى في- الفترة موضوع البحث -

هذا بالإضافة إلى مجموعة من المقالات،التي تناولت موضوع الهجرة الجزائرية نحو الخارج في الفترة العثمانية ونذكر منها :

أ – هجرة علماء غريس و تلمسان إلى فاس في نهاية القرن الخامس عشر،و مطلع القرن السادس عشر للأستاذ كمال فيلالي ، ولنفس الأستاذ (كمال فيلالي) محتوى المقال نفسه لكن بعنوان مختلف هو : هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في العهد العثماني ، و الذي نشر في مجلة المواقف للبحوث و الدراسات في المجتمع والتاريخ ، بجامعة معسكر ، عدد خاص ،افريل، 2008 .

ب – هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى و بلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني (1520 – 1830) للدكتور بوشنافي محمد

ج – دوافع الهجرة الدينية و العلمية من الجزائر في العهد العثماني (1516 – 1830) للأستاذة سعاد لبصير

د – الصلات الفكرية بين تلمسان والمغرب،للدكتور،إبراهيم حركات،والذي سلّط فيه الضوء على بعض رجالات الفكر الذين تقاطروا على المغرب في فترات زمنية مختلفة .

الخطة المعتمدة في الدراسة:

لقد قسّمت هذه الدراسة إلى مدخل،وثلاثة فصول،وخاتمة

فالفصل الأول خصّصته للأوضاع العامة في البلدين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى،وقد قسمته إلى مبحثين رئيسيين ،فالمبحث الأول تناولت فيه أوضاع المغرب الأوسط في النصف الأول من القرن 10هـ /16 م واجتهدت في البحث عن العوامل التي أثّرت في تلك الأوضاع وحصرتها في سبعة عوامل هامة جدا كان لها أبلغ الأثر في رسم الصورة السياسية للمغرب الأوسط خلال هذه الفترة أما المبحث الثاني فقد خصّصته لأوضاع المغرب الأقصى خلال القرن 10 هـ /16م وقسّمته إلى قسمين :

القسم الأول وهو متعلق بالمغرب الأقصى في النصف الأول من القرن 10 هـ/ 16م وهو الفترة الأخيرة من حكم الدولة المرينية وصراعها مع الدولة الوطاسية ،بالإضافة إلى التحرشات الاسبانية بالمغرب خلال هذه الفترة، أما القسم الثاني متعلق بأوضاع المغرب الأقصى خلال النصف الثاني من القرن 10هـ/16م وهي فترة

الدولة السعدية التي حكمت المغرب الأقصى بعد صراع مرير مع الوطاسيين وحكام الجزائر الأتراك ،والتي سيستمر حكمها إلى النصف الأول من القرن 11هـ/17 م

أما الفصل الثاني فعنونته بالحياة الثقافية في الجزائروالمغرب خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،حيث استعرضت فيه ثلاث مباحث متمثلة في المبحث الأول بعنوان الحياة العلمية والأدبية في الجزائر أثناء العهد الزياني (نهاية القرن التاسع هجري / الخامس عشر ميلادي)،ومطلع القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،والمبحث الثاني خصصته للحياة العلمية في الجزائر أثناء القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،والمتعلق خاصة بالفترة العثماني.أما المبحث الثالث فقد تناولت فيه الحياة الثقافية بالمغرب الأقصى مع نهاية القرن التاسع هجري / الخامس عشر ميلادي ، وطيلة القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،وهو متعلق بالدول الثلاث المتعاقبة على الحكم في المغرب الأقصى (المرينية،الوطاسية،السعدية)

والفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن هجرة علماء الجزائر إلى المغرب الأقصى خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،ونتائجها،وقد قسّمته إلى أربعة مباحث : فالمبحث الأول،كان بعنوان الهجرة الجزائرية نحو المغرب الأقصى ودوافعها،إذْ عرّفت فيه مدلول الهجرة ودوافعها،أما المبحث الثاني فقد خصّصته لهجرة العلماء الجزائريين إلى فاس في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ، مركزا على تلمسان كقاعدة انطلاق لعدد هائل من العلماء والذين كانتْ وجهتهم نحو فاس. وكان من الضروري أن أعطي صورة عامة عن ماضي هاتين الحاضرتين (تلمسان و فاس) وبعدها ترجمة موجزة لأبرز العلماء الذين هاجروا خلال الفترة موضوع البحث ،أما المبحث الثالث فقد تناولت فيه مسألة تقارب و امتداد ثقافة البلدين ، المغرب الأوسط والمغرب الأقصى،من خلال مظاهر متمثلة في:أولا،المذهب المالكي،ثانيا،الطرق الصوفية(خاصة القادرية والشاذلية) ثالثا ، التعليم ،رابعا الإجازات العلمية.أما المبحث الرابع فقد تناولت فيه نتائج هجرة علماء تلمسان إلى فاس،وقسّمته إلى قسميْن، القسم الأول،خاص بنتائج هذه الهجرة على الجزائر،والقسم الثاني كان خاصا بنتائج هذه الهجرة على المغرب الأقصى .

وختمت هذه الدراسة بحوصلة جمعت فيها أبرز النتائج المتوصل إليها،وأتممتها بمجموعة من الملاحق،التي رأيت أنها تخدم الموضوع،وأخيرا وضعت ثبتا للمصادر والمراجع العربية والأجنبية المعتمدة في البحث،متبوعا بفهرس للموضوعات .

التعريف بأهم مصادر و مراجع البحث

المصادر العربية و المعرّبة :

-كتاب دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر،لمحمد بن عسكر الحسني الشفشاوني تحقيق محمد حجي، طبعة سنة 1977 ، وتكمن أهمية هذا الكتاب في كونه ترجم لثلاثمائة وخمسة (305) شخصية ،فهو يقدم صورة واضحة لأعلام المغرب من فقهاء وعلماء وشيوخ التصوف،في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ،إذ ألّفه سنة 985 هـ / 1577م ، أي سنة واحدة قبل وفاته في معركة وادي

المخازن 986 هـ / 1578 م ،ورغم ما يؤخذ عن المؤلف في هذا الكتاب من مآخذ منها ،إنبهاره ببعض الأساطير الممزوجة بكرامات الأولياء،وعدم تحديد تواريخ وفيات الأشخاص الذين يترجم لهم،غير أنه قدّم لنا خدمة جليلة بالتعريف بشخصيات جزائرية كانت قد هاجرت إلى المغرب الأقصى في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،مبرزا مكانتها العلمية والدينية خاصة في فاس،وللعلم فإن مخطوط دوحة الناشر موجود بالمكتبة العامة بالرباط في خمس نسخ،وفي المكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم : 2136

– كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان،لصاحبه،أبو عبد الله محمد بن أحمد الملقب بابن مريم،حققه وقدّم له محمد بن أبي شنب، طبعة منشورات السهل،بتدعيم من وزارة الثقافة الجزائرية إذ ترجم فيه لمائة واثنين وثمانين (182) عالما ووالیا،ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها،وقد تفاوتت تراجم الشخصيات التي ترجم لها ابن مريم من حيث المعلومات، فبعضها لا يتجاوز السطرين،والبعض الآخر يترجم له في أكثر من صفحة،والملفت للانتباه هو أن معظم الشخصيات المترجم لها إن لم نقل كلها،لاتخلوا من ذكر كرامات ومناقب أصحابها، ولا غرابة في ذلك،فالكاتب متأثر بروح العصر،وقد استفدنا منه في ترجمة عدة شخصيات علمية كانت على اتصال مستمر بالمغرب الأقصى، خاصة فاس .

– جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس،لأحمد ابن القاضي المكناسي،يحتوي على تمهيد فصّل فيه القول في بناء المدينة (مدينة فاس) وذكر خططها،ومعاهدها خاصة،جامع القرويين،وهذا التمهيد هو نقل لما كتبه مؤرخون آخرون عن فاس،مثل،جنا زهرة الآس،لعلي الجزنائي،والأنيس المطرب بروض القرطاس، لعلي بن أبي زرع، ويحتوي على ترجمة ستمائة وخمس وأربعين (645)شخصية، مرتبة ترتيبا هجائيا والكتاب في جزأين ، استفدنا منه في ترجمة عدة شخصيات تلمسانية هاجرت إلى فاس .

– نيل الابتهاج بتطريز الديباج ،لأحمد بابا التنبكتي ، اعتمدت على النسخة التي أشرف عليها ، عبد الحميد الهدامة ، ووضع هوامشها وفهارسها، مجموعة من طلاب كلية الدعوة الإسلامية طرابلس،ليبيا الطبعة الأولى لسنة، 1989م،والكتاب في جزأين ، ترجم فيه صاحبه لثمانمائة واثنين (802) من الشخصيات،وتكمن أهمية الكتاب في كونه ذيلا على كتاب الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب،لابن فرحون المدني المتوفى سنة 799 هـ الميلادي.وبذلك كان مشاركا له في موضوعه،موفيا ما نقص من مادته، ومضيفا عليه من جاء بعده من أعيان الفقهاء،حتى عصر المؤلف،وقد قال عنه الدكتور، عبد الجليل التميمي(إن الكتاب يعتبر سجلا للأعلام الأندلسيين،والتونسيين والمغاربة ، والجزائريين،والطرابلسيين في القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر هجري / السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ميلادي)وقد أفادنا في ترجمة عدة شخصيات تلمسانية هاجرت إلى المغرب الأقصى خلال القرن ال 10 هـ/ 16 م .

– درّة الحجال في أسماء الرجال،لأبي العباس أحمد ابن القاضي المكناسي،اعتمدت على نسخة مكتبة التراث،القاهرة،والكتاب في ثلاثة أجزاء ، ترجم فيه لألف وخمسمائة وتسعة عشر (1519) شخصية وهناك

من لا تتعدى الترجمة فيه سطر واحد، استفدنا من هذا المصدر في ترجمة بعض الشخصيات التلمسانية التي هاجرت إلى فاس في الفترة موضوع البحث .

– كتاب نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي،لمحمد بن الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني المراكشي اعتمدت على نسخة سنة 1888 ، التي صحح عبارته التاريخية السيد ، هوداس،فرغم أسلوب الإطراء تجاه الدولة السعدية الذي تميز به الكتاب،إلا أنه أفادنا في رسم صورة عن العلاقات السعدية الجزائرية خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،وكذا انجازات ومواصفات سلاطين الدولة السعدية بدءا بمحمد الشيخ وانتهاءا بأحمد المنصور الذهبي

–كتاب جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان،لأحمد بن أبي جمعة المغراوي المتوفي سنة 920 هـ / 1514 م ،وقد حققه كل من ،أحمد جلولي البدوي ، ورابح بونارالجزائر،وهو في الأصل مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم،2078 ، وتكمن أهمية الكتاب في كونه يعطي صورة حية عن واقع تاريخي للتعليم الابتدائي في المكاتب القرآنية لحفظ القرآن،وتعلم القراءة والكتابة بتلمسان والمغرب مع نهاية القرن التاسع هجري ومطلع القرن العاشر هجري / نهاية القرن الخامس عشر،ومطلع القرن 16 ميلادي،ورغم كون الكتاب يغلب عليه الطابع الفقهي كأحكام تتصل بالمعلمين وأجورهم،والتلاميذ وما يدفعونه من أثمان مقابل تعليمهم ،إلا أنه أفادنا في أساليب التعليم،وسلوك المعلم مع تلاميذه في الفترة المدروسة .

–كتاب إفريقيا لمارمول كاربخال،ترجمة محمد حجي وآخرون والذي احتوى على ثلاثة أجزاء بتعداد ألف وثلاثمائة وواحد و خمسين(1351) صفحة ، استفدنا منه في الجزء الأول فيما يخص سكان إفريقيا خاصة أصل البربر، والجزء الثاني في تحديد إقليم كل من مملكة فاس ومملكة تلمسان،ومن خلال قراءتنا لأجزاء الكتاب اتضح لنا أنه نقل من كتاب حسن الوزان الموسوم بوصف إفريقيا الذي ترجمه محمد حجي ومحمد الأخضر والذي يقع في جزأين

المراجع العربية :

العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع و العشرين الميلاديين / الثالث و الرابع عشر الهجريين ، للدكتور عمار هلال،يمتاز هذا الكتاب بتخصيص جزء منه للعلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى المغرب الأقصى من القرن الحادي عشر و الثاني عشر ميلادي ، إلى القرن العشرين ميلادي ، واستفدنا منه نحن في الفترة المتعلقة بأواخر القرن التاسع هجري ، و طيلة القرن العاشر هجري / أواخر القرن الخامس عشر وطيلة القرن السادس عشر ميلادي .

العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي، الجزء الثاني ، للدكتور، عمار بن خروف، ورغم أن الكتاب يتناول الجوانب الثلاث إلا أنه أفادني بشكل كبير في المجال الثقافي فوظّفت ما توصل إليه الباحث من عمق العلاقات بين البلدين في المجال الثقافي والذي كانت دعامته الكبرى ذلك الرعيل الأول من العلماء الذين كانوا بالفعل خزائن علم متنقلة

تاريخ الجزائر الثقافي (1500 – 1830) للدكتور سعد الله أبو القاسم و هو موسوعة حقيقية تشمل عشرة أجزاء ، اعتمدنا على نسخة ،عالم المعرفة ، طبعة ، 2011 م .والأجزاء التي خدمت البحث هي الأجزاء الأربعة الأولى، فالجزء الأول أفادنا في إعطاء لمحة على الموروث الثقافي للجزائر مع أواخر القرن التاسع هجري/أواخر القرن الخامس عشر ميلادي،وحتى مطلع القرن العاشر هجري/16ميلادي .

ورغم ماامتازت به كتابات الأستاذ سعد الله من تنوع و غزارة فإنه قد استطاع أن يرسم لنا الوجه الثقافي للجزائر آنذاك بذكره للمؤسسات الثقافية ، والتعليم،وإبرازالعديد من الشخصيات العلمية، و كذا التطرق إلى هجرة العلماء ابتداء من الصفحة 423 من الكتاب . والجزء الثاني ساعدنا في التعرف على أبرز العلوم الشرعية التي كانت تدرس آنذاك بالإضافة إلى علوم اللغة ،والتاريخ والتراجم وبعض العلوم الأخرى.

أما الجزء الثالث فكان مخصصا للتعليم ورجالاته وأبرز المراكز التعليمية في فترة القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي ،سواء في المدارس القرآنية والمساجد أو الزوايا، والجزء الرابع من هذه الموسوعة التاريخية الثقافية فقد خصص جزء كبير منه للطرق الصوفية (الفصلين الأول والثاني) وهو الذي استفدنا منه وحاولنا توظيفه في الفصل الثالث من هذا البحث.

-تعريف الخلف برجال السلف،لصاحبه أبو القاسم الحفناوي ،دراسة وتحقيق ، الدكتور،خير الدين شترة الطبعة الأولى، 2012 الصادرة عن دار،كردادة للنشر والتوزيع،وهو في جزأين،استفدنا منه في ترجمة مجموعة من الشخصيات المتعلقة بالبحث،وقد ترجم المؤلف لأربعمائة وعشرين شخصية،والملفت للانتباه هو أن المؤلف يشير إلى المصدر الذي استقى منه ترجمة المترجم له ، كأن يقول (من نيل الابتهاج) أو(من البستان في ذكر علماء تلمسان) أو(من خلاصة الأثر) ...الخ

-كتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية،لمحمد بن ميمون الجزائري،تقديم وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم،الطبعة الأولى الصادرة عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر سنة 1972 ، رغم أن الكتاب يتناول ثلاث عناصر هامة من تاريخ الجزائر المتمثلة في: أولا سيرة الداي محمد بكداش، فاتح مدينة وهران ، ثانيا : وصف المعارك التي دارت بين الاسبانيين و الجزائريين من أجل هذا الفتح المبين ، ثالثا ذكر مجموعة من القصائد التي أنشدها منشدوها قبل وأثناء وبعد المعارك ،إلا أننا استفدنا من هذا الكتاب من خلال ما أورده المحقق عن عصر الكاتب الثقافي ، وعن مدلول الثقافة ، و عن المراكز الثقافية ،وعن النتاج الثقافي،وعن رجال الثقافة الذين أشار إليهم المحقق كابن جلال ، وابن شقرون و غيرهما ، والذين لهم صلة بموضوع البحث .

-الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني،لأحمد مروش وآخرون،ضمن منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية،وثورة أول نوفمبر 1954 ، تتمثل أهمية هذا المرجع في كونه يعطي لنا مسحا عاما للمؤسسات الثقافية بالجزائر أثناء فترة التواجد العثماني من مساجد ومدارس ، وزوايا بالإضافة إلى تطرقه لتيارات التصوف في الجزائر خلال الفترة المشار إليها في عنوان الكتاب

-كتاب تلمسان في العهد الزياني ، للدكتور عبد العزيز فيلالي،الجزء الثاني والذي أفادنا كثيرا في إعطاء صورة تفصيلية عن الحياة الثقافية ،خاصة التعليم،في دولة بني زيان ، وقد استثمرنا هذا الجانب وحاولنا توظيفه في فترة النصف الأول من القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي .

أما عن المؤلفات المغربية (المراجع) المتعلقة بالموضوع فأهمها :

-سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس،لمحمد بن جعفر الكتاني (توفي سنة 1345هـ / 1927 م)حققها ووضع فهارسها حفيد المؤلف الشريف محمد حزة بن علي الكتاني ، ضمن الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس ، في أربعة أجزاء، وهو– حسب علمنا– أكبر موسوعة لتراجم أعلام فاس ترجم فيه لألف وثمانمائة وواحد وثمانين (1881)شخصية ليست من الرجال فقط، بل كذلك من السيدات وفي التمهيد الذي وضعه الكتاني تحدث عن تأسيس مدينة فاس وبعض فضائلها

-الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، للعباس السملالي والذي راجعه،عبد الوهاب بن منصور موضوعه كما يقول محقق الكتاب (تراجم من حلّ مراكش وأغمات من الرجال النابهين سواء كانوا من أهلها أو من غيرهم) وجاء في تمهيد الكتاب،الجزء الأول وصفا لمدينتي مراكش وأغمات وبيان فضلهما ، والكتاب في عشرة (10) أجزاء ،ترجم فيه لألف وستمائة وخمسون(1650)شخصية،من بينها الشخصيات العلمية التلمسانية التي هاجرت إلى المغرب في الفترة موضوع البحث

-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري (توفي سنة 1897) ضمن مجموعة من الأجزاء ، استفدنا من الجزأين الثالث و الرابع الخاصين بالدول الثلاث المتعاقبة على الحكم في المغرب الأقصى (المرينية و الوطاسية و السعدية)

-جولات تاريخية للباحث المغربي المرحوم محمد حجي،وهي عبارة عن مجموعة من الدراسات والمقالات جمعها صاحبها ونشرتها الجمعية المغربة للتأليف والترجمة والنشر،الطبعة الأولى،سنة 1995،أفادتنا هذه الدراسة خاصة في الموضوع المعنون بالتعليم في المغرب خلال العصر الحديث،خاصة العصر السعدي الأوّل (1505 – 1603)وأشارت نفس الدراسة إلى هجرة بعض العلماء الجزائريين الى المغرب مع مطلع القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ، خاصة بعد دخول الأتراك إلى الجزائر و تضييق الخناق على كل من يعارض سياستهم المتصلبة خاصة العلماء كما يقول في الصفحة 128 .

المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسيةومختلف المظاهر الحضارية للدكتور عبد الكريم كريم ،والذي أفادنا خاصة في فصله التاسع عشر المتعلق بالحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة السعدية والذي اعتمد فيه على كثير من المخطوطات المصادر المتنوعة الموجودة بالمكتبة الملكية بالرباط

المقالات و الرسائل الجامعية

1-المقالات المتخصصة :

-هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى و بلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني (1520 – 1830) للدكتور بوشنافي محمد ،إذ أنني وجدت في هذا المقال ضالتي و هي أن العلماء الذين هاجروا إلى فاس في الفترة موضوع البحث هم في غالبيتهم علماء تلمسان.

-مقال الدكتور عمار هلال ، بعنوان العلماء الجزائريون في فاس فيما بين القرنين العاشر و العشرين الميلاديين / الرابع و الرابع عشر هجري ، وركزت على فترة القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي فوجدت أن أغلب العلماء الذين هاجروا في هذه الفترة هم من علماء تلمسان

-كذلك مقال الدكتور أرزقي شويتام،الموسوم بالعلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية) والذي أعطى فيه لمحة عن العلاقات بين الأقطار المغاربية خلال الفترة العثمانية فإن المقال قد سلّط الضوء كذلك عن بعض الشخصيات العلمية التي هاجرت إلى المغرب الأقصى خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ، وكانت هذه الدراسة القيمة موجهة لي للولوج إلى الموضوع ليس من باب العلاقات السياسية فقط بل كذلك من باب العلاقات الثقافية

-وهناك مقال بعنوان دوافع الهجرة الدينية والعلمية من الجزائر في العهد العثماني(1516 – 1830)للأستاذة سعاد لبصير،أفادني كثيرا في معرفة الأسباب والدوافع الحقيقية لهجرة عدد كبير من العلماء الجزائريين نحو مناطق متعددة من العالم،بسبب ما أفرزته السياسة العثمانية،ونتائج تلك الهجرة خاصة على المستوى الثقافي في الجزائر

2 – الرسائل الجامعية :

-هجرة و نفي أهل العلم و الدين من الجزائر في العهد العثماني(1516– 1830) والتي تعتبر بحق رصدا لأهم هجرات علماء الجزائر خلال العهد العثماني،رغم أن العلماء لم يكونوا كلهم معارضين للسلطات العثمانية إذ أثبتت الأستاذة أن بعض حكام الجزائر من العثمانيين كانوا مقرّبين جدا من بعض العلماء أصحاب الطرق الصوفية،غير أن بعضهم الآخر كان معاديا للأتراك فهاجر أوهجّر من الجزائر إلى مناطق مختلفة من البلاد العربية والإسلامية

-المهاجرون الجزائريون ودورهم السياسي والثقافي والاجتماعي في المغرب الأقصى (1830– 1930) للدكتور قاصري محمد السعيد،أفادتنا هذه الرسالة في فصلها التمهيدي الذي ذكر فيه الباحث أن أصول الهجرة الجزائرية نحو المغرب الأقصى قديمة ،فهي تارة فردية وتارة أخرى جماعية وأعطى لنا أمثلة بدأها بهجرة أبي الطيب المسيلي (توفي سنة 538 هـ / 1143 م)الذي انتقل إلى المغرب عبر الأندلس،وتولى القضاء بفاس إلى أن توفي ،ثم تناول مجموعة من الهجرات عبر مراحل تاريخية مختلفة،بما فيها القرن العاشر هجري/16 ميلادي

-حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ،للأستاذة صباح بعارسية،وإن لم يكن موضوعها ظاهرة الهجرة فإنها ألمت بظاهرة التصوف في أبعاده المختلفة من حيث الأسباب والمراحل والتطور والتي هي روح العصر في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،فإن هذه الرسالة ساعدتنا كثيرا

في فهم الظاهرة ومدى تأثيرها في المجتمع الجزائري جماعات (مختلف شرائح المجتمع) وأفراد (الفئات المثقفة من علماء وحتى فقهاء)

المصادر و المراجع باللغة الأجنبية :

- Diego de Haedo, Histoire des rois d' Alger ,tradiction de l' espagnol et notes de, henri delmas degrammont,éditions,Grand-alger livres(G,A,L),alger,2004.

-تاريخ ملوك الجزائر ، لهايدو مصدر جدّ هام لتاريخ الجزائر ،فهو يقدم لنا معلومات مفصلة عن من حكموا الجزائر في العهد العثماني ،خاصة فترة البايلربايات،الذين ساهموا في تثبيت دعائم الدولة الجزائرية الحديثة،وقد استفدنا من هذا المصدر،خاصة في علاقة عروج بالملك الوطاسي،ثم العلاقات الجزائرية المغربية في عهد حسن بن خير الدين باشا

-Grammont (Henri-delmas)Histoire d'Alger sous la domination turque(1515-1830), présentation de lemnouar merouche,Editions bouchene , 2002

-تاريخ الجزائر تحت الهيمنة العثمانية لديغرامو،رغم أن الكاتب ولد سنة 1830 وتوفي سنة 1892 و كان عضوا بارزا في الجمعية التاريخية الجزائرية التي أصبح رئيسا لها فيما بعد إلا أن جل اهتماماته كانت بالحقبة الزمنية للتواجد العثماني بالجائر ، ونشرت كتاباته في المجلة الإفريقية ،و رغم مميزات الكتابات الفرنسية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر التي امتازت بأنها نظرة إنسانية للجزائر العثمانية (حسب استنتاجات الأستاذ ناصر الدين سعيدوني في مقال بمجلة الدراسات التاريخية العدد 05 لسنة 1988 بعنوان : مكانة مصادر الأرشيف الجزائري في إعادة كتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني)إلا أن ديغرامو في هذا الكتاب يصور لنا مميزات مراحل الحكم العثماني في الجزائر من عهد البيلربايات إلى أواخر عهد الدايات ثم ينتهي به المطاف الى الدخول الفرنسي الى الجزائر سنة 1830 وقد أفادنا الكتاب في قسمه الأول المتعلق بفترة البايلربايات .

كما أننا استفدنا من عدة مقالات بالمجلة الإفريقية (la Revue africaine) في أعداد وسنوات مختلفة متعلق معظمها بالجانب السياسي،إلا أن مقالات أخرى اهتم أصحابها بالجانب الثقافي،خاصة التصوف والطرقية في الجزائر فحاولنا توظيف بعضها متوخين الحيطة والحذر لأن معظم من كتب تلك المقالات كانت لديهم نزعة استعمارية استعلائية (تكاد تكون عنصرية) بسبب أن الجزائريين بربر جاء الاستعمار الفرنسي لينشر الحضارة بينهم ، ويبين لهم مكانة الرجل الأبيض ليس في أوربا فقط بل في العالم ككل و نذكر منها علي سبيل المثال لا الحصر :

Gautier, (e, f),considération sur L'histoire du maghreb, R.A.n° 68 ,1927

Georges marcais,nite sur l'épitaphe d'un savant, Abou. Moussa(fils de l'imam),R,A,n°59,1918

أما عن الصعوبات التي واجهتني في هذه الدراسة فأهمها:

-انشغالي بالتدريس في التعليم الثانوي مع ارتباطي بثلاث أقسام امتحان – أقسام باكلوريا – وصعوبة التوفيق بين التدريس والتحضير للموضوع

-شساعة وعمق وتنوع الجانب الثقافي في فترة الجزائر العثمانية وعلاقتها مع جيرانها آنذاك

-صعوبة الحصول على المصادر التي تناولت هذا الموضوع،والاعتماد على الانترنت لتحميل وقراءة مجموعة هامة من الكتب والمقالات،فقد كنت أجلس الساعات الطوال أمام الحاسوب لعلي أظفر بمرجع يثري دراستي ويوصلني إلى الإلمام بالموضوع من زواياه المختلفة .

-ضيق الوقت المخصص لتحضير الرسالة،مع الاعتماد على كتب من نوع (P. D,f) وصفحاتها تعد بالمئات فهنا تأت صعوبة القراءة باستمرار فما بالك بتحليل ما كتب ومقارنة بعضه بالبعض للخروج بأفكار تتماشى مع هذه الفكرة أو تلك أو تعارضها،ورغم ذلك فإن أهم شيء تعلمته هو الصبروعدم تقديم أحكام مسبقة على هذا الرأي أو نقيضه والالتزام قدرالإمكان بالموضوعية في الطرح و الاستنتاج

-بعد المسافة بين مسقط رأسي– آفلو– وقسنطينة خاصة في السنة الأولى ماجستير،و رغم ذلك فقد كنت أتطلع لتحسين مستواي و للمثابرة أكثر للوصول إلى ما هو أفضل.

وهنا لا يفوتني أن أوجه الشكر الجزيل و الامتنان لأستاذي الفاضل الدكتور عبد المجيد قدور،على قبوله الإشراف على هذا العمل،وعلى توجيهاته السديدة،وجديته في العمل،وفضائله عليّ التي لا تحصى،كل ذلك كان في أستاذية رفيعة،وتواضع كبير،وقد صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقوله من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، فكلمة شكر غير كافية في حقّ أستاذي الفاضل ، الدكتور عبد المجيد قدور ، فكل ما أتمناه هو أن يجعل الله مجهودات عمله معي،في ميزان حسناته

كما لا يفوتني أن أوجه الشكر إلى كل من ساندني وقدّم لي يد المساعدة من قريب أومن بعيد،خاصة زملائي الأساتذة والأستاذات بثانوية هواري بمدين – آفلو – الذين كانوا يتفهمون غيابي بين الحين والآخر،خاصةفي فترة الامتحانات فيحرسون أقسامي،ويشجعونني على الاستمرار في الدراسة رغم كل الظروف،بالإضافة إلى الطاقم الإداري،خاصة السيد المدير وناظر الثانوية والمستشارالتربوي،أشكرهم جميعا على تفهمهم لظروفي،فلهم مني أسمى آيات التقدير والعرفان

وأخيرا فإنني مهما قدّمت من عمل فإنه يبقى ناقصا لأنه لا يمكن الإلمام بمختلف جوانبه خاصة في فترة زمنية قصيرة مخصصة لدراسة هذا الموضوع فإن وفقت في ذلك فبفضل من الله وعونه ،وإن كان هناك تقصير فمن

نفسي.وعزائي في ذلك قول العماد الأصفهاني (إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا في يومه، إلا قال في غده،لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل،ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، ودليل على استيلاء النقص على جملة البشر).

ربّ أنعمت فزد . . .سبحانك، ما أعظمك محسنا و ما أضعفني شاكرا .

والله ولي التوفيق.

آفلو : يوم 28 ذو القعدة 1434هـ

الموافق ل : 04 أكتوبر 2013 م

الطالب : مسعود بقادي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيـــد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

راودتني كثير من الأفكار والتساؤلات وأنا أختط هذا المدخل الذي رأيته ضروريا للولوج إلى موضوع هجرة العلماء التي أنا بصدد البحث والتنقيب عنها. ذلك أن الأوضاع العامة خاصة السياسية منهاوالثقافية خلال القرن ال 10 هـ / 16 م قد ألقت بضلالها على حياة عامة الناس وخاصتهم .

إن الأوضاع السياسية العامة في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى خلال الفترة- موضوع البحث- جعلتني أراجع كثيرا من أفكاري وقراآتي السابقة عن الصراع بين الإخوة الأشقاء وعن مدى عمق وأبعاد الأطماع الخارجية (الأوربية منها على الخصوص) في هذه المنطقة أوتلك، ورحت أستحضر – مقتنعا– تلك الحكم ومنها قول الشاعر :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهنّد

كما أنني لمست كثيرا من الخبايا التي تحملها السياسة و رجال السياسة فاستحضرت قول الإمام محمد عبده بقوله:"ما دخلت السياسة في شيء إلا أفسدته "إن المتتبع لتلك التطورات السياسية طيلة فترة القرن ال 10 هـ/ال16 م في المغربين الأوسط و الأقصى يقف منبهرا بذلك التواطؤ و تلك الخيانات و ذاك الصراع الذي كان يحدث بين الأخ و أخيه و العم وابن أخيه ... من أجل عرش هش وملك آيل للزوال فاقتنعت عندئذ بحكمة ابن القيم الجوزية رحمه الله بقوله : "... وأصل فساد العالم إنما هو اختلاف الملوك و الفقهاء ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه في زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد الملوك المسلمين و انفراد كل منهم ببلاد وطلب بعضهم العلو على بعض " ومن أجل ألاّ أقدّم أحكاما مسبقة قد تزحزح الموضوع عن مبتغاه فإنني سأحاول أن أضع الأحداث في مكانها دون استرسال أو إطناب و ألا أنظر إلى تلك الأحداث من منظار ضيق بل يجب على الباحث أن تكون له نظرة شاملة يربط الأسباب بمسبباتها و النتائج بخلفياتها وأسبابها "ذلك أن النظرة الكونية هي شرط أساسي لتكوين المؤرخ "على حد تعبير الأستاذ المنور مروش .

وعلى اعتبار أن الظرفية التاريخية حتّمت على المجتمع المغاربي عامة و العلماء بصفة خاصة التعايش مع ذلك الواقع سلبا أوإيجابا. فإننا سوف نردّد مع الأستاذ المرحوم توفيق المدني قوله :"إن أي حادث من الحوادث الكبرى يجب أن يقترن حتما بدراسة الظروف والملابسات التي أحاطت به وتقودنا تلك الدراسة حتما إلى تصور الواقع بصفة جلية ، وعندئذ نرى أن ما وقع إنما هو واجب الوقوع وأن النتائج مربوطة بأسبابها ،وتلك هي حتمية التاريخ ".

إن خصوصيات ومميزات القرن ال10هـ /16 م كانت توجه الأحداث ليس في المغربين الأوسط والأقصى فقط بل في حوض البحر الأبيض المتوسط ككل، خاصة جزئه الغربي بضفتيه الشمالية والجنوبية فتهاوت بذلك الأسر التي كانت تحكم وتتصارع في الجزائر والمغرب (الأسرة الزيانية في المغرب الأوسط والأسرتان المرينية

والوطاسية في المغرب الأقصى) وقامت على أنقاضهما كل من الأسرة السعدية في المغرب الأقصى،بينما ثبّت الأتراك دعائم حكمهم في الجزائر .

وفي مقابل ذلك استفحل الغزو الأيبيري (الإسباني و البرتغالي) في سواحل البلدين ونجح بذلك في السيطرة على المدن والموانئ لسنوات طوال قبل قيام الجزائريين بقيادة العثمانيين والمغاربة بقيادة الأشراف السعديين برد ذلك الغزو و توقيفه . وعندئذ يمكن القول بأن القرن العاشر /السادس عشر ميلادي كان قرن حروب شرسة وصراعات دامية انعكست سلبا على الحياة العامة للمجتمعات المغاربية والحياة الفكرية بصفة خاصة بسبب انعدم الاستقرار واضطراب حالة الأمن .

ومن ثمة حقّ لنا أن نتساءل عن رد فعل تلك الفئة المثقفة على هذه الأوضاع ، هل استسلمت ورضخت للأمر الواقع أم أنها فضلت الهجرة والتنقل إلى الأماكن الآمنة ؟ وكيف تعاملت مع رجال السياسة القابضين على زمام الحكم خاصة إذا أدركنا بتتبعنا للأحداث أن معظم تلك الفئات المثقفة المهاجرة أو المهجّرة كانت ثقافتها دينية بحتة متأثرة بالزوايا والتصوف الذي يعتبر بحق سمة العصر (القرن ال 10هـ / ال16 م)،ولعل المؤثر والموجه في كل هذه الأوضاع هو عامل العلاقات بين الكيانات السياسية خلال هذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب الإسلامي

إن المتتبع لمراحل ومميزات العلاقات بين الجزائر (المغرب الأوسط) والمغرب الأقصى في العصر الحديث يجدها تتميز بالتعقيد،والتشابك،إذمرّت علاقات بني عبد الوادي وبني مرين بمراحل تعاقب فيها الهدوء والتوتر،والسلم والحرب،وكانت في أغلب الأوقات متأزمة وعدائية[1]،وقد يصل هذا التوتر إلى الذروة ،ومن ذلك (محاصرة السلطان أبو الحسن المريني تلمسان مدة سنتين ، حتى سقطت في يده سنة 1337م، وظلت تلمسان تحت حكم سلطان بني مرين مدة خمس و عشرين سنة ، ولم ينته احتلالهم لها إلاّ سنة 1359م[2] ، و على اعتبار أن الدولة المرينية التي قامت في المغرب الأقصى سنة 646هـ / 1248م ، كانت تضع في حسابها أنها الوريث الشرعي لدولة الموحّدين ، فإنها ما لبثت تسعى لتحقيق هذا الحلم،مهما كلّفها الأمر،فاحتلت تلمسان مرارا وفي فترات متفاوتة [3] ، بل كان حلم المرينيين أبعد من ذلك ، وهو توحيد المغرب الكبير تحت سلطتهم وذلك بالقضاء على الدولتين الحفصيتين (في تونس و شرق الجزائر) وكذا الدولة الزيانية (المغرب الوسط) [4] وهكذا

1- جلول المكي، مسألة الحدود بين الجزائر و المغرب ، 1234 – 1847 م ، و أثرها على العلاقات بين البلدين ، رسالة ماجستير إشراف د. مولاي بالحميسي ،معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1993 ، ص، 58

[2]- إبن الأحمر ، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ،تحقيق ، هاني سلامة ، ط1 مكتبة الثقافية الدينية للنشر والتوزيع ببور سعيد ،2001 ،ص، 30

[3]- عمار بن خروف،العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ،ج1 ،دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1427 هـ ، 2006م، صص ، 72 ، 73

[4]- عمار بن خروف .نفس المرجع. ص ، 74

5-عمار بن خروف ،نفس المرجع ،ص،75

استمر الصراع والتطاحن إلى أن ضعفت الدولة المرينية بسبب كثرة المنشقّين في الداخل،ناهيك عن استفحال الخطر الإسباني والبرتغالي في السواحل الشمالية والغربية للمغرب الأقصى[5] .

لقد سعى الوطاسيون (خلفاء بني مرين) إلى إحياء حلم المرينيين في توحيد المغرب الكبير،وذلك بضم تلمسان إلى ممتلكاتهم،غير أن ظروف المغرب الأقصى آنذاك لم تكن مهيأة لهذا الأمر،فبالإضافة إلى الغزو الإسباني والبرتغالي للسواحل المغربية في الربع الأخير من القرن التاسع هجري ، الخامس عشر ميلادي [6] ، كان الميل إلى التفكك و التجزئة إحدى السمات البارزة للمغرب الأقصى في عهد الوطاسيين،كما يعبر عن ذلك الباحث عبد الكريم كريم ، بقوله (لقد كان لضعف السلطة في فاس وعجزها عن صيانة الأمن والدفاع عن البلاد ، أثر كبير في انتشار الفوضى و الفتن مما أدى إلى تجزئة المغرب إلى وحدات سياسية شبه مستقلة ، بعضها أملتها ظروف الجهاد و مقاتلة العدو المحتل للسواحل المغربية ، وبعضها الآخر نتيجة البعد عن مقر الهيئة الحاكمة [7].

ومن ثمة ففاقد الشيء لا يعطيه ، إذ اهتم الوطاسيون بلمّ شمل دولتهم في المغرب الأقصى بمهادنة القبائل تارة ومحاربتهم تارة أخرى ، و بذلك صرف الوطاسيون أنظارهم عن التدخل في تلمسان[8] وبالمقابل فإن الدولة الزيانية قد كانت في هذه الفترة هي الأخرى عرضة للهجمات و الغزو المسيحي الإسباني ، الذي استطاع أن يسيطر على أجزاء كبيرة من السواحل الجزائرية مع مطلع القرن 10هـ / 16م لتحقيق أهداف متعددة أبرزها تزعم العالم المسيحي و ذلك بالسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط . ومما زاد الطين بلّة ، فوق كل هذا وذاك هو اشتداد التنافس و الصراع داخل البيت الزياني (الأسرة الحاكمة) مما سهّل على إسبانيا إحكام سيطرتها على تلك السواحل الممتدة من المرسى الكبير غربا إلى عنابة شرقا[9] .

ومما تجدر ملاحظته أيضا بالإضافة الى ما ذكرناه عن الدولة الزيانية هو أن المناطق الداخلية للمغرب الأوسط كانت هي الأخرى شبيهة بما كان عليه الوضع في المغرب الأقصى من التفكك والتجزئة فهذه إمارة بني عباس بجبال القبائل جنوب بجاية ، و تلك إمارة كوكو الواقعة غرب الإمارة السابقة الذكر، زد على ذلك حكم بعض الأسر كأسرة بني جلاب[10]في تقرت ، وأسرة علاهم في ورقلة و إمارة تنس وكذا مشيخة الثعالبة في مدينة الجزائر[11].

---

[5]- عمار بن خروف .نفس المرجع.ص ، 75

[6]- عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية و مختلف المظاهر الحضارية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، المملكة المغربية، صص،5، 12

[7]- عبد الكريم كريم .نفس المرجع.، ص ، 16

[8]- عمار بن خروف ، العلاقات السياسية ، مرجع سابق ، ص ، 77

[9]-عبد القادر فكاير ، الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910 هـ – 1206 م / 1505 هـ – 1792 م) دراسة تتناول الآثار السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية على الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر، صص، 52- 61

[10]- Charles, Feraud ,les ben djelleb,sultans tougourt, R,A,n° 23, 1879 p,p 167, 169

[11]- عبد القادر فكاير ، الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية وآثاره ، مرجع سابق ص، 127 ، إلى ص 138 ؛ توفيق المدني ، حرب 300 سنة بين الجزائر و اسبانيا (1492 – 1792) ط1 ، دار البصائر للتوزيع و النشر ، 2007 ، ص، 83 ، 84 ، 85

ومع بداية القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ،إستقر الأتراك العثمانيون بقيادة الإخوة بربروس (عروج وخير الدين وإسحاق)أولا بجيجل سنة 1514م ، ثم مدينة الجزائر،فتلمسان في سنة 923هـ/1517م [12]وذلك بدعوة من سكانها.ومن ثمة بدأت العلاقات بين عروج وسكان فاس محمد البرتغالي الوطاسي.والمتتبع لكتابات هايدو[13] يرى أن هناك رغبة من الطرفين لإقامة تعاون بينهما خاصة وجود عدو مشترك (إسبانيا) وما يبين هذه الحقيقة هو رفض السلطان الوطاسي تقديم العون للسلطان الزياني (أبي حمو الثالث) الذي جرّده عروج من ملكه في تلمسان ضدّه لاسترداد ملكه منه[14] غير أن الباحث عمار بن خروف يرى بأن التحالف بين عروج و محمد الوطاسي هو تحالف ظرفي استراتيجي انتهى بانتهاء عروج سنة 1518م (قضى عليه الأسبان بعد مطاردة كبيرة إثر خروجه من تلمسان بسبب قوة و عدد الجيش الاسباني أولا وتأخر المدد المغربي ثانيا) .

وقد شهدت العلاقات بين خليفته خير الدين و محمد البرتغالي الوطاسي فتورا (إن لم يكن انقطاعا) بعد مقتل عروج[15]و مما زاد في فتور العلاقة بين الطرفين هو ظهور الأشراف السعديين في المغرب الأقصى ومنافستهم للوطاسيين ، وكذا اشتداد الهجمات الاسبانية على الجزائر ، خاصة حملة 1519 ميلادي وحملة الإمبراطور شارلكان الشهيرة سنة 1541 م والتي انتهت بهزيمته .

حتّمت ظروف المرحلة و ما ميزها من تداعيات سياسية بأن جعلت العلاقة بين الوطاسيين وحكام الجزائر العثمانيين في أواخر عهد خير الدين ، و خليفته حسن آغا [16]و كذا في عهد حكم حسن بن خير الدين باشا الأولى (951 –958 هـ / 1544- 1551م)تتميز بنوع من التقارب و التعاون ضدّ القوتين الاسبانية و البرتغالية ، و من أمثلة ذلك إستقبال السفن الجزائرية العثمانية في موانئ شمال المغرب وتزويدها من تلك الموانئ ، بالإضافة إلى انتقال بعض الأتراك العثمانيين للعمل في بلاط الوطاسيين وكذا في صفوف جيشهم ، إذ بلغ عددهم أكثر من أربعمائة جندي[17].

ومن الشواهد الأخرى كذلك على وجود نوع من الود في العلاقات العثمانية الجزائرية الوطاسية آنذاك هو أنه عندما أطاح حسن بن خير الدين باشا بالسلطان الزياني أحمد،الذي فرّ إلى منطقة دبدو بالمغرب،قبض عليه

---

[12]– عمار بن خروف ، العلاقات السياسية ، مرجع سابق ، ص، 81 ، 82

[13]–Diego de haedo, Histoire des rois d' Alger ,tradiction de l' espagnol et notes de, henri delmas degrammont,éditions,Grand-alger livres(G,A,L),alger,2004, p,38

[14]– عمار بن خروف ،نفس المرجع ، ص ،82

[15]– عمار بن خروف ، المرجع السابق ، ص، 83 ، 84

[16]– هو الخليفة الذي جاء بعد خير الدين و هو من اختاره... و كان كريما متسامحا متفرغا بالكامل لمصلحة المملكة و من أجل رفاهية ورخاء الناس ، فنشر العدل و أحب الدراسة و العلم وحمى الدين وأخيرا فإن قوته و شجاعته جعلته محبوبا ومحترما أنظر :كورين شوفاليه،الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510 – 1541)،ترجمة جمال حمادنة ،ديوان المطبوعات الجامعية ،ص، 87 .

[17]– عمار بن خروف ، العلاقات السياسية ، مرجع سابق ، ص، 86 ،نقلا عن ديكودي طوريس ، تاريخ الشرفا، ص ، 151

أمير دبدو المريني ووضعه في السجن ولم يقدم له أية مساعدة[18].غيرأنه وفي خضم التوتر والصراع الذي كان شهده المغرب بين الوطاسيين و السعديين ،خاصة بعد هزيمة الوطاسيين في معركة درن سنة 1545 م إذ أسر السلطان أحمد الوطاسي وابنه،وقد ازداد الأمر سوءا بعدما طلب السلطان العثماني من محمد الشيخ ضرورة إطلاق سراح أحمد الوطاسي فورا [19]،غيرأن محمدا الشيخ غضب غضبا شديدامن محتوى الرسالة حتى همّ بقتل مبعوث السلطان العثماني،ورفض الاستجابة لتلك الأوامر،وأعاد السفارة العثمانية خالية الوفاض [20].

ولعل الملفت للانتباه هو ازدياد قوة و شعبية الدولة السعدية الناشئة خاصة بفضل نسبهم الشريف فانحازت فئة كبيرة من الشعب المغربي إليهم ، مما جعل محمد الشيخ يحاصر الوطاسيين ويقضي على حكمهم سنة 1549[21] ومن ثمة فرار أبا حسون إلى الإسبان والبرتغاليين ثم لجأ إلى حكام الجزائر[22].

أما عن العلاقات بين أتراك الجزائر،وسلاطين الدولة السعدية فتكاد تكون في معظمها مضطربة في أواسط القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي . على أن أوّل اتصال بين الطرفين حسب ما يشير إليه الباحث عمار بن خروف استنادا إلى وثائق برتغالية تشير إلى وجود أتراك عثمانيين في صفوف السعديين منذ سنة 935هـ/ 1529م و مشاركتهم في حصار سانتا كروز كمدفعيين و مدربين[23] وإذا كانت علاقات أحمد الأعرج والأتراك العثمانيين طيبة، فإن تلك العلاقات سرعان ما تلبّدت بالغيوم في عهد محمد الشيخ (951هـ – 964هـ / 1544 – 1557 م) "الذي تاقت نفسه إلى الاستيلاء على المغرب الأوسط و كان يعز عليه استيلاء الأتراك العثمانيين عليه ... وقد نهض محمد الشيخ فعلا من فاس قاصدا تلمسان في جموعه إلى أن نزل بها ، وحاصرها تسعة أشهر[24] . وبعيدا عن تفاصيل هذه المحاولة التي قام بها السعديون للسيطرة على تلمسان (سنتطرق لها بنوع من التفصيل في الفصل الأوّل) فإنها تؤكد حقيقة واقعية هي أن سلاطين المغرب السعديين كانوا يحلمون هم كذلك بإبعاد العثمانيين و ضم أكبر جزء من تلمسان إلى مملكتهم الفتية ، ذلك " أن أطماع المغرب قديمة في غرب الجزائر و تلمسان بصفة خاصة. إن الحملة السعدية الأولى على تلمسان سنة

---

[18]– أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، الجزء الرابع ،الدولة المرينية، تحقيق و تعليق ولدي المؤلف ، جعفر الناصري و محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1955 ، ص ،163

[19]– عمار بن خروف ، العلاقات السياسية ، مرجع سابق ، ص، 87 ، نقلا عن طوريس ، ، تاريخ الشرفا، ص ، 207 ،209

[20]– يقال أن محتوى تلك الرسالة لم تكن فقط إطلاق سراح السلطان الوطاسي ، بل كذلك الوصف الذي وصف به السلطان العثماني محمدالشيخ ، بشيخ العرب أو حاكم مراكش ... بالإضافةإلى طلب السلطان العثماني إقامة خطبة الجمعة في أقاليم المملكة باسمه والدخول تحت لوائه ، كما فعل الوطاسيون من قبل إذا اعترفوا بالسلطة الرمزية للخليفة العثماني على بلاد المغرب ، و نقشوا اسمه على المملكة ، و دعو له في خطبة الجمعة ، أنظر: إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ من بداية المرينيين الى نهاية السعديين ، المجلد الثاني ، الطبعة الأولى ،دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء ، المغرب ، 1978 ، ص ، 207

[21]–مؤرخ مجهول ،تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية ، تحقيق ، عبد الرحيم بن حادة. دار تينمل للطباعة والنشر 1994 ص 9 ، 15

[22]– عمار بن خروف ،العلاقات السياسية،ج1 مرجع سابق ،ص ، 88 ، 89

[23]– عمار بن خروف .نفس المرجع ، ص، 89 ، 90

[24]– توفيق المدني ، حرب 300 سنة ، مرجع سابق ، ص ، 306

957هـ / 1550م ، ورفض محمد الشيخ التعاون مع أتراك الجزائر ، مما أدهش الإسبان الذين توقعوا تحالفا إسلاميا ضدّهم وضدّ البرتغاليين[25].ولم يكتف السعديون بذلك بل سعى محمد الشيخ إلى التقرب من الإسبان وطلب مساعدتهم لمواجهة العثمانيين[26] .

وتتوالى الحملات المغربية على تلمسان فكانت الحملة الثانية سنة 964هـ / 1557م ثم الحملة الثالثة سنة 968هـ / 1560م واللتان برهنتا على شيءأساسي هو أن العداوة بين أتراك الجزائر والأسرة السعدية كان سببها تصادم المصالح من جهة ، و رغبة كل طرف في فرض وجوده و معاداته للطرف الآخر بالقوة[27] ، رغم محاولات التقارب وإصلاح ذات البين التي قام بها ، الفقيه العلامة محمد الخروبي[28] و التي باء معظمها بالفشل باستثناء محاولة رسم الحدود بين المغربين الأوسط و الأقصى بتحديد نهر ملوية كحد فاصل بينهما .

وأمام تزمت محمد الشيخ في سياسته ضدّ الأتراك ، قام هؤلاء باغتياله سنة 964هـ / 1557م والتخلص منه (فقد تجاوزت خيانته – من وجهة نظر الأتراك – الحد الذي لا يمكن السكوت عنه فدبروا مؤامرة للتخلص منه) [29] وقد خلفه ابنه محمد عبد الله الغالب بالله الذي انتهج نفس سياسة والده المتمثلة في التحالف مع الإسبان وذلك للتنازل لهم عن نقاط معينة ، بالإضافة إلى عداوته للأتراك[30] وقد أثار تحالفه مع الإسبان ثائرة المغاربة ، فقاموا بعدة ثورات مناهضة لحكمه،لكنه قضى عليها ، بل أنه قتل ثلاثة من إخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لإبنه المتوكل،وهوما جعل أعمامه الثلاث،عبد الملك وأحمد وعبد المؤمن يفرون إلى الجزائر ، واستمر عبد الله الغالب بالله في الحكم إلى غاية وفاته سنة 981هـ / 1574[31] .

---

[25]– أحمد سالم علي،السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16م،شباب الجامعة ،الإسكندرية ،2011،ص، 171

[26]– أنظر: مراسلات السلطان السعدي مع الإسبان ، توفيق المدني ، حرب 300 سنة ، مرجع سابق ص ، 338 الى ص ، 343 ،كما اعتمد محمد الشيخ في تدخلاته في مناطق الحدود المغربية للجزائر على شيوخ القبائل و الطرق الدينية المعادية للأتراك ، انظر المنور مروش ، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني القرصنة الأساطير و الواقع ، ج2 ، دار القصبة للنشر الجزائر،2009 ، ص ، 129

[27]– A,berbugger,des frontiére de l' Algerie, R.A n°24 ,octobre,1860 P,401,417

[28] – لعل أهم الأعمال السياسية التي قام بها الشيخ محمد الخروبي هو سفاراته الدبلوماسية مندوبا عن الدولة العثمانية للمغرب، في محاولة لحل المشكلات الحدودية بين المغربين الأوسط و الأقصى عام 1552م .وقد تخلل الحملات السابقةالذكر ثلاث سفارات جزائرية الى المغرب ، سفارتا الخروبي الذي أرسله صالح رايس الى المهدي بمراكش سنة 959 هـ و في سنة 961 هـ . و كذا سفارة =الحاج مراد الذي أرسله يحي باشا إلى المهدي بمراكش سنة 964هـ .و قد أبرمت ثلاث معاهدات صلح و سلم . معاهدة ملوية بين قورصو والمهدي سنة 958 هـ .و معاهدتا مراكش بين السفير محمد الخروبي باسم صالح رايس و المهدي سنتي : 959 هـ .و 961هـ وينقضها محمد الشيخ بغاراته على تلمسان ومنطقتها مابين سنوات (953 هـ – 961 هـ) لتفاصيل أكثر أنظر : جلول المكي ، مسألة الحدود بين الجزائر و المغرب ، مرجع سابق ، ص ، 102 و كذلك ، حبيب وداعة الحسناوي ، الصراع التركي السعدي 1549 – 1557 و سفارة الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي للمغرب عام 1552 بشأنه . أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار =المغرب العربي ، تنقلات العلماء و الكتب ،إشراف ، عبد الحميد عبد الله الهدامة ، كلية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية العظمى ،طرابلس، ليبيا 1995 ، الصفحات من 177 إلى 184

[29]– أحمد سالم سالم علي ، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16م، مرجع سابق ، صص 173، 174

[30]– نفسه ص ، 174، كذلك : عمار بن خروف ، العلاقات السياسية – ج1 ، مرجع سابق و ص ، 174

[31]– عمار بن خروف ، العلاقات السياسية ، ج1 ، مرجع سابق ،ص ، 174

لما ولي الحكم المتوكل على الله ابن عبد الله الغالب بالله بعد وفاة والده ، كان عمه عبد الملك قد وطّد علاقاته بالأتراك ، الذين ساعدوه على استرجاع ملكه بالمغرب ، فما كان من المتوكل على الله سوى الاستنجاد بحلفائه البرتغاليين ، الذين وجدوها فرصة سانحة لإرساء أقدامهم بالمغرب خاصة ملك البرتغال سيباستيان فكانت النتيجة معركة وادي المخازن الشهيرة سنة 986هـ / 1578[32] .

وفي الفترة التي تلت هذه المعركة ستشهد العلاقات بين أتراك الجزائر والدولة السعدية نوعا من الاستقرار والهدوء الحذر،إذ مباشرة بعد توليه زمام الحكم في المغرب (بادر أحمد المنصور إلى إرسال سفارة إلى الجزائر وأخرى إلى القسطنطينية لإعلام السلطان العثماني مراد الثالث (حكم ما بين 982هـ– 1004هـ / 1574م – 1595م) ووالي الجزائر حسن فانزيانو بالانتصار على الحملة البرتغالية ، وبجلوسه على عرش المغرب[33](فكتب المنصور لصاحب القسطنطينية العظمى،ولسائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من إظهار الدين و إهلاك عبدة الصليب واستئصال شوكة الروم و رد كيدهم في نحورهم) [34].

وعندما جاءت الهدايا الى المنصور من كل حدب و صوب ، انشغل عن وفد السلطان العثماني فغضب السلطان العثماني من المنصور (ثم قدمت إرسال السلطان خاقان العثماني و معهم هدية و هي سيف محلي لم يرقط مثله مضاء ، و أصفى متنا[35] و لا شك أن دهاء و حنكة أحمد المنصور جعلتاه يبدي مجاملة لسفير السلطان العثماني أبي الطيب الخضر الجزائري ، معقبا على كلامه بأن السلطان العثماني لا يخشى أحد بل الجميع هم الذين يخشونه قائلا (... لا شك أن السلطان هو رئيسنا الكبير و المتميز بيننا و مجده يرفعه فوق جميع الملوك الآخرين)[36].أصدر السلطان العثماني مراد فرمانا يخول فيه أحمد المنصور حقّ حصر الحكم بعائلته جيلا بعد جيل وذلك في 23 رجب 990هـ[37] .

---

[32]– تراجع الدراسة القيمة للطالب ،جلول بن قمار ، معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات مع دول غرب أوروبا (البرتغال ، اسبانيا ، فرنسا) 986 – 1012هـ / 1578م – 1603م مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث بإشراف الدكتور عمار بن خروف جامعة غرداية 2010 ، 2011

[33]– عبد العزيزالفشتالي ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ،دراسة و تحقيق ، د، عبد الكريم كريم ، ص، 48

[34]– محمد الصغير الوفراني ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، صحّح عباراته التاريخية السيد هوداس ،1888 ص ، 81

[35]– محمد الصغير الوفراني نفس المصدر ص ، 81

[36]– عمار بن خروف ، العلاقات السياسية ، ج1، مرجع سابق ، ص، 214– 215 . نقلا عن : الجنابي مصطفى بن حسن ، البحر الزخار والعلم الطيار ، ترجمة عن الفرنسية ، الجزائر 1924 ، ص ، 535

[37]– عزيز سامح آلتر ، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا ، ترجمة محمود علي عامر ط1 ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، 1409هـ / 1989م وص ، 261 ، نقلا عن : دفتر المهمات الديوان الهمايوني نمرة /48/ ص ، 31

إنّ جلّ الكتابات التي تناولت شخصية السلطان أحمد المنصور الذهبي أشارت إلى أنه كان يمتاز بالدهاء وبعد النظر،والطموح إلى أبعد الحدود ومن أمثلة ذلك أنه تلقّب بلقب (الخليفة و الإمام وأمير المؤمنين)[38] ومما يؤكد طموحه هذا هو أنه توجه جنوبا و فتح السودان ، بل الأبعد من ذلك هو أنه أرسل دعاة إلى المشرق الإسلامي بصفة سفراء و تجار و طلاب علم و حجاج و رحالة و غير ذلك . فاتصل هؤلاء بعدد كبير من العلماء و الوجهاء و علية القوم،مبشرين بدعوة المنصور و داعين إلى خلافته العربية الهاشمية[39] وعندئذ أصبح منافسا عنيدا لأتراك الجزائر ولسلاطين الدولة العثمانية .

وبالعودة إلى العلاقات بين الجزائر و المغرب آنذاك فقد كان احتلال المنصور لتوات ثم السودان حربا واضحة،إذ استطاع أن يحوّل محور التجارة من السودان من الجزائر و تونس و ليبيا إلى المغرب بصفة خاصة،و لو أن البقاء القوي للمغرب في السودان لم يعش طويلا أكثر من حياة المنصور[40]

وجدير بالذكر أن السلطان أحمد المنصور ،كان قد أقام علاقات صداقة وتقارب مع الإسبان والبرتغال مطبقا في ذلك سياسة (عدو العدوصديق) على اعتبار أن الإسبان والبرتغال هما ألدّ أعداء الدولة العثمانية ، فما كان من السلطان العثماني مراد الثالث إلاّ أن تقرب من جهته إلى السلطان أحمد المنصور عارضا عليه المصاهرة[41]لاستمالته إليه ، و إبعاد نظره على التعاون مع الإسبان و البرتغال .

غير أن السلطان أحمد المنصور،تثاقل عن الاستجابة لعرض مراد الثالث ، وزاد تقربه أكثر من الإسبان فكانت النتيجة حملة علج علي على المغرب سنة 989 هـ / 1581 م التي لم يكتب إنجاز مهمتها بسبب أن السلطان أحمد المنصور أحسّ بثقل المسؤولية في مواجهة الأتراك (رغم استعداده للمواجهة) فبعث بسفارة هامة تحمل هدية عظيمة إلى السلطان العثماني بقصد الاعتذار له عن التأخر عن الجواب والعمل على إيقاف الحملة الموجهة ضدّه[42]، وقد قبل السلطان العثماني الهدية والاعتذار ومنذ ذلك الحين تحسنت الأوضاع بين الطرفين،وأصبحت العلاقات ودية سلمية ، فقد كان المنصور يبعث لمراد الثالث كل سنة بسفارة تحمل هدية

---

[38]– فهد بن محمد السويكت ، مواقف الأشراف السعديين، مقال سابق ص ، 200 ، نقلا عن ، الفشتالي ، مناهل الصفا ، ص ، 25 ، الأفراني ، نزهة الحادي ، ص ، 184، كذلك ، أحمد بن القاضي ، المنتقى المقصور على مآثر خلافة المنصور ،الذي ألّفه صاحبه خصيصا لأحمد المنصور الذهبي الذي تذكر المصادر بانه خلّصه من الأسر باذلا في فدائه (20000 أوقية من الذهب)

[39]– فهد بن محمد السويكت ، مواقف الأشراف السعديين ، المقال السابق ، ص ، 205

[40]– عمار بن خروف ،ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين ، مجلة الدراسات التاريخية، ، جامعة الجزائر ، عدد ، 03 ، 1987 ، ص ، 84

[41]– ((اخترنا لكم الانتماء و الانتساب الى أبوابنا العالية الأعتاب ، ليحصل لكم الارتقاء على ذروة أعلى المراتب ... فإذا وصل هذا المتوقع الكريم ، فوجهوا لسدتنا السلطانية و أعتابنا الخاقانية من يحمل لكم زوجتكم من أمرائكم الكرام ، و كبار داركم ، الذين لهم فيها النقض و الإبرام)) أنظر نص أصل الرسالة في المكتبة الوطنية بمدريد ، رقم : 7453 ورقة ، 24 ، نقلا عن، عمار بن خروف ، العلاقات السياسية.ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 217 ، 218

[42]– الوفراني ، نزهة الحادي ،مصدر سابق ص، 86

له،فيرد عنها هذا الأخير بسفارة وهدية[43].وفي الوقت الذي كان يجري فيه تبادل السفارات بين المنصور والسلطان العثماني لتصفية الجو بينهما كانت تجري بين المنصور وأتراك الجزائر العثمانيين مراسلات وسفارات تستهدف توطيد العلاقات بين حكومة الجزائر والمنصور وتقويتها،ويظهر فيها المنصور في موقع لا يقل عن موقع السلطان العثماني فيها،أوفي موقع من له نفوذ فيها[44]

وإذا كانت العلاقات السياسية بين المغربين الأوسط و الأقصى تتأرجح بين السلم والعداوة خلال فترة القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ،فإن العلاقات الثقافية كانت نشطة لم تضع لها الكيانات السياسية في المغربين الأوسط و الأقصى حواجز أوعوائق إذ كان التنقل من وإلى البلدين يتم بسهولة خاصة الفئة المثقفة من طلبة وعلماء،ممّن تتوق أنفسهم لطلب العلم أو زيارة ولي من الأولياء أو هروبا من واقع سياسي حال دون بقائهم في هذا البلد ،وعموما فلا غرابة في هذا النشاط والتواصل الثقافي بين البلدين إذا علمنا أن ثمة مجموعة من العوامل ساهمت في تنشيط هذا الجو ومن أبرزها :

1 – العامل الجغرافي:من خلال إلقائنا لنظرة عابرة على خريطة المغرب الإسلامي ندرك أنه عبارة عن امتداد طبيعي واحد وعندئذ فالجزائر هي امتداد للمغرب والعكس صحيح ،إذ لا يوجد بينهما فاصل أوحاجز يمنع اتصال واحتكاك السكان بعضهم ببعض .

2 – العامل التاريخي : لطالما كان البلدان (الجزائر والمغرب) بلدا واحدا أو كيانا واحدا ، ومن أمثلة ذلك فترة دولة المرابطين (430 – 541 هـ/ 1038 – 1156 م) أوفترة الموحدين (541 – 668 هـ / 1156 – 1269 م) وهي فترة كافية في –نظرنا– لامتزاج السكان بعضهم في البعض

3 – العامل البشري: إذا عدنا الى كتابات ابن خلدون[45] ،أوالحسن الوزان[46]، فإنه يتبين لنا أن العناصر الرئيسية التي كان يتألف منها سكان المغرب هي الأمازيغ والعرب،وهي نفسها التي يتألف منها سكان الجزائر ، وأصول القبائل الأمازيغية في كل من الجزائر و المغرب والتي تعود الى خمس مجموعات كبيرة هي: زناتة،وصنهاجة، ومصمودة، وهوارة،وغمارة،وهي تمثل سكان إفريقيا الأصليين[47]

---

[43]– عمار بن خروف ، العلاقات السياسية ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 222

[44]– عمار بن خروف .المرجع نفسه ، ص ، 223

[45]– ابن خلدون عبد الرحمان ، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، طبعة مصححة ، اعتنى بإخراجها و ألحق بها فهارس للأحاديث و الآيات و للموضوعات ، أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية، ، الصفحات من ص1597 ، إلى ص، 1601

[46]– الحسن الوزان (ليون الإفريقي) ،وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، و محمد الخضر ،ط 2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983، ص ، 34 و ما بعدها

[47]– مارمول كاربخال، إفريقيا ، ج1 ، ترجمة محمد حجي وآخرون،مكتبة المعارف للنشروالتوزيع ، المغرب ،1984،صص، 89 90

4 – العامل الديني :هذا العامل الذي يعتبر أكبر وأقوى دعامة وحّدت بين البلدين إذ أن الدين الإسلامي والمذهب المالكي يسودان بصفة مطلقة كلا البلدين،ويحتلان مكانة متميزة لدى السكان ناهيك عن وجود بعض الطرق الصوفية التي تمثل إرثا حضاريا و فكريا لكلا البلدين وأبرزهما الطريقتان القادريةوالشاذلية،والنتيجة هي أن العادات والتقاليد تكاد تكون متجانسة ومتطابقة إلى أبعد الحدود ومن أمثلة ذلك نمط المعيشة و طريقة اللباس وطرق الاحتفال في المناسبات الدينية كالأعياد مثلا،وهوما يؤدي حتما إلى وحدة الثقافة بين البلدين .

وإذا كان التعليم هو حجر الزاوية في ثقافة هذا البلد أو ذاك ، فإن التعليم في عمومه كان تقليديا سواء في الجزائر أوفي المغرب الأقصى ، خلال القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي – الفترة موضوع البحث – ذلك أن العالم الإسلامي كله كان يشهد نوعا من الانحطاط في هذا المجال ، الذي يعتبر التقليد فيه السمة البارزة،لأن أغلب العلماء كانوا يكتفون بقليل من العلم ...أما ظاهرة الجمود فقد كانت عامة[48] ويرى الباحث عمار بن خروف بأن الحياة الثقافية قد تدهورت في المغرب الأقصى ما عدا مدينة فاس التي لم تتعرض للغزو الخارجي فقصدها العلماء من كل جهة،حتى من الجزائر للأخذ والعطاء في مدارسها وجوامعها وزواياها المتعددة[49]

لقد ساهمت مجموعة من الظروف والعوامل الأخرى في انتقال الأفراد والجماعات ،خاصة من الجزائر نحو فاس لعلّ من أبرزها هو ذلك الدخيل الذي أصبح يهدد أمن واستقرار الناس،والمتمثل في التواجد الأجنبي على سواحل البلدين، فمع مطلع القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ، اجتاحت القوات الاسبانية سواحل الغرب الجزائري،مما جعل عددا هائلا من طلبةوعلماء الجزائر ينتقلون(يهاجرون) إلى المغرب[50].وبالمقابل فقد كانت السواحل المغربية عرضة هي الأخرى للمحتل الاسباني والبرتغالي، فهاجر عدد من العلماء المغاربة إلى الجزائر[51]

إنه على الرغم من أن حكام الجزائر كانوا من الأتراك فقد كان أغلبهم لا يقدّرون العلماء ولايعرفون لهم مكانة، بسبب أنهم رجال حرب وسياسة،وإذا ما رحّبوا بالوافدين إليهم من المغرب أوالمشرق ليس حبا في العلم وإنما

---

[48]– أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ،طبعة خاصة ، عالم المعرفة ، الجزائر ، صص ، 18 ، 19

[49]– عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع ،ج2 ، ص ، 49

[50]– عمار بن خروف.نفس المرجع ، ص ، 101 . يذكر الباحث عمار بن خروف مجموعة من الطلبة و العلماء الجزائريين الذين هاجروا من المناطق المشار إليها كأحمد بن أبي جمعة الوهراني ، و أحمد بن أبي جيدة المديوني الوهراني و غيرهما ، ممن سنتعرّض لهم بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا العمل

[51]– عمار بن خروف .نفس المرجع ، ص ، 102 . من أبرز علماء المغرب الذين هاجروا الى الجزائر في هذه الفترة ، عبد الله الخياط ومنصور بن عبد المنعم الصنهاجي و غيرهما.

لأغراض سياسية[52].وبالمقابل فإن حكام المغرب الأقصى قد رحّبوا بدورهم بعلماء الجزائر بل نجد أغلب هؤلاء المهاجرين نالوا مكانة متميزة في بلاط الحكام،خاصة في فاس التي تقلّد فيها كثير من العلماء الجزائريين (خصوصا علماء تلمسان) الفتوى والتدريس والخطابة وهي مناصب لم يحظ بها إلا من كان لديه إلمام بشتى العلوم و المعارف

ولاغرابة في ذلك على اعتبار أن حكام المغرب هم كذلك كانوا علماء،ألم يلقّب أحمد المنصور بسلطان العلماء وعالم السلاطين ؟؟؟ ولا يجب أن ننسى أو نغفل عن الأغراض السياسية لهذا الترحيب و لتلك المكانة التي منحها سلاطين المغرب لعلماء الجزائر .

فبالإضافة إلى أن كل عالم من هؤلاء العلماء كان مدرسة متنقلة،ومكتبة مفتوحة، فإن حركتهم كانت تشكل ما نسميه اليوم بوسائل الإعلام ، إذ عن طريق العلماء سوف يكتسب هؤلاء السلاطين مكانة هامة في الأوساط الشعبية(بواسطة حلقات الدروس التي كان يحضرها عدد كبير من عامة الناس) خاصة علماء تلمسان،إذ كانت تطمح السلطات المغربية منذ العهد المريني إلى استمالتهم ومن ثمة جعل عامة سكان الغرب الجزائري – خاصة تلمسان – يؤيدون التواجد المغربي في المنطقة[53].

[52]– عمار بن خروف. نفس المرجع ، ص ، 119 ، 120 . كان للعلماء و المرابطين في هذه المرحلة تأثير كبير على الرأي العام أو على عامة الناس، فاستغلت السلطة السياسية ذلك ، لجعل هؤلاء العلماء في خدمتها ، فنالوا حظوة كبيرة في المناصب الإدارية و غيرها

[53]– سنتعرض بنوع من التفصيل لأبرز العلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى المغرب خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي في الفصل الثالث من هذا العمل .

الفصل الأول

الأوضاع العامة في المغربين الأوسط والأقصى خلال القرن ال10 هـ/ ال16 م

ويتضمن :

المبحث الأول

أوضاع المغرب الأوسط في النصف الأول من القرن 10 هـ / 16 م

المبحث الثاني

المغرب الأقصى خلال القرن 10 هـ/ 16 م

I- المغرب الأقصى في النصف الأول من القرن 10هـ/ 16 م

II- المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 10هـ/ 16 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: أوضاع المغرب الأوسط في النصف الأول من القرن 16م

لا شكّ أن عمر الدولة كعمر الإنسان،له بداية وله نهاية،وقد شهد المغرب الإسلامي نشوء مجموعة من الدول سادت لمدة،وتفاوتت أعمارها بتفاوت سياسة ملوكها،وسلاطينها،فمنها من عمّرت لسنوات،ومنها من عمّرت لقرون طوال،وما يميز القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي في المغرب الإسلامي هو نهاية دول(كالمرينية والوطاسيةوالزيانية)،وظهور دول أخرى كالدولة السعدية التي ظهرت على أنقاض الدولة الوطاسية،بالمغرب الأقصى، وظهور دولة الجزائر الحديثة،و التي و إن كانت تابعةرأسا إلى الإمبراطورية العثمانية (الباب العالي)فإنها قد بنت كيانها ورسمت حدودها في هذه الفترة الزمنية

فماهي مميزات الأوضاع العامة للمغرب الإسلامي(خاصة المغربين الأوسط والأقصى)مع نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر هجري / الخامس عشر و السادس عشر ميلادي ؟ وكيف ساهمت الظروف المحلية والدولية لأفول نجم دول ، وسطوع نجم دول أخرى ؟

إن المتتبع لتاريخ المغرب الأوسط ،لا يمكنه فهم تلك التحولات والتطورات،التي حدثت في هذه الرقعة الجغرافية أثناء القرن 10هـ / 16م إلّا باستحضار تلك الترسبات السياسية التي وقعت لهذه المنطقة منذ نهاية دولة الموحدين[54] إذ تعتبر هزيمة معركة العقاب (609هـ / 1212م) أهم العوامل التي أدّت إلى تفكك الدولة الموحدية وتصدع الصرح الذي شيّده عبد المؤمن ومن خلفه من كبار أمراء هذه الدولة[55]. وعندئذ ظهر

---

[54]–دولة الموحدين: لمزيد من التفاصيل حول هذه الدولة وعلاقة المغرب الأوسط بها أنظر: – يوسف علي بدري ،عصر الدويلات الإسلامية في المغرب والمشرق من الميلاد إلى السقوط ،ط1،دار الأصالة ،الجزائر 1431هـ/2010م ص ، 162 وما بعدها – عبد الله شريط ، محمد مبارك الميلي،مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ، 1985، ص:101 وما بعدها

[55] –عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني ، حياته وآثاره ط1 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1982،ص:11

الزيانيون (بنو عبد الواد) [56]. وقد عمل يغمراسن ومن جاء بعده، على جعل دولتهم مستقلة وعاصمتها تلمسان، ولقب سلطانها بأمير المسلمين ويختار دائما من أسرة بني زيان[57].وقد عمّرت الدولة الزيانية أكثر من ثلاثة قرون(1236 م / 1550 م) على أن فترة حياتها هذه كانت نزاعات وصراعات [58] ومن أبرز ملوكها أبو يحي يغمراسن بن زيان بن ثابت [59] .والسلطان أبو حمو موسى بن يوسف الثاني [60] .ولا يمكننا في هذا المقام سرد تفاصيل ومراحل القوة والضعف لهذه الدولة،بل نكتفي بالإشارة إلى أن التطورات التي عاشتها هذه الدولة ،كانت صراعا طويلا ضدّ عدة قوى متصارعة متطاحنة عليها تتمثل في الأمور التالية :

صراع الأمراء فيما بينهم على العرش والسلطة تدخل دولة بني مرين من الغرب والحفصيين من الشرق، ومحاولة السيطرة عليها أو إزالتها من الوجود.

تدخل الإسبان ولنفس الهدف بعد أن ضعف شأن الإمارات الثلاث(الحفصية والزيانية والمرينية)

تدخل الأتراك في النهاية إنقاذا لوجودهم بالجزائر ولقطع خط الرجعة على الأسبان وتصفية وجودهم بسواحل المغرب العربي [61] .

العوامل المؤثرة في أوضاع المغرب الأوسط خلال النصف الأول من القرن 10هـ/ 16 م

مع نهاية القرن 9هـ/ 15م كانت الفوضى السياسية والاضطرابات المتوالية قد بلغت في إفريقيا الشمالية مبلغا نعجز عن التعبير عنه [62] إذ أن الانحطاط السياسي والعسكري والتدهور الاقتصادي هي السمات البارزة ففي الغرب كانت دول المغرب الأقصى تتمتع ببعض القوى السياسية والعسكرية أهمها فاس ولكنها كانت تشهد انحطاطا وليس الحيوية السياسية [63] .

---

[56] –ينتمي هؤلاء الزيانيون إلى قبائل زناتة البربرية الرحل في المغرب الأوسط ، وقد تمكنوا من تأسيس دولة دام حكمها قرابة ثلاثة قرون ومن أبرز رجالهم القائد القوي : يغمراسن بن زيان الذي تمت مبايعته أميرا على تلمسان سنة 633هـ/ وقد عرفت هذه الدولة بدولة بني عبد الواد إلى أن غير اسمها السلطان أبو حمو الثاني باسم الدولة الزيانية نسبة إلى زيان بن ثابت والد يغمراسن أنظر :عثمان سعدي ، الجزائر في التاريخ ، طبعة 2012، شركة دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ، ص: 332/ 333 .كذالك : صالح فركوس ، تاريخ الجزائر – من ما قبل التاريخ إلى الاستقلال– المراحل الكبرى ، دار العلوم للنشر و التوزيع ، ص: 96

[57] –عثمان سعدي : الجزائر في التاريخ ، المرجع السابق ، ص 333

[58] –الأغا بن عودة المزاري ،طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، تحقيق ودراسة : د.يحي بوعزيز ط 1، دار البصائر للنشر والتوزيع ، 2007،ص،155 ،163

[59] –ولد سنة ، 603هـ/1206م، وبعد وفاة أخيه أبي عزة زيدان ، تلقى البيعة سنة : 633هـ/1236م، وعرف عنه الشهامة والشجاعة والحكمة والدهاء و الحزم في اتخاذ المواقف،والأخلاق الحميدة وتكريم العلماء ، التفاصيل أكثر عن هذه الشخصية أنظر : عثمان سعدي ، المرجع السابق ص: 333 / 334 / 335 .

[60] – لمزيد من المعلومات عن هذه الشخصية السياسية و العسكرية و الأدبية أنظر : عبد الحميد حاجيات : أبو حمو موسى الزياني حياته و آثاره ، مرجع سابق ، الصفحات من ، 69 إلى 154

[61] – يحي بوعزيز ، تلمسان ، الطباعة الشعبية للجيش ، 2007 ص ، 48

[62] – محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور دورها في سياسة و حضارة الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ص ، 216

[63] – جون .ب. وولف .الجزائر وأوربا 1500 / 1530. ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله ، 2009 .عالم المعرفة للنشر والتوزيع ،ص23

أما المغرب الأوسط (الجزائر)، فقد كانت بدون حكومة تتكلم باسم المنطقة ،بل هي عبارة عن مستنقع سياسي من مدن صغيرة وقرى مستقلة ،ومن قبائل بدوية أو نصف بدوية من البربر و العرب [64] وتلمسان كانت تشمل بصفة غير محدودة الغرب الجزائري ، وقد كان أدعياء الملك لا يجدون صعوبة في جمع الأنصار لمحاربة السلطان القائم و كان الأبناء يثورون ويخلعون آباءهم ، كما كان الأبناء يحاربون بعضهم بعضا لاقتسام ملك أبيهم [65] . والفوضى نفسها كانت بالبلاد التونسية إذ أن الملك لم يكن له حق التصرف المطلق خارج قصره ، فقد كان يحميه حرس خاص يتكون من المرتزقة المسيحيين [66] .

إن حالة التقهقر، والفوضى والانحلال السابقة الذكر التي ميزت الدويلات الثلاث لا تدعو إلى الاستغراب إذا نظرنا إلى طبيعة المرحلة التاريخية التي تتميز بانعدام بعد النظر لدى ملوك وسلاطين تلك الدويلات ،غير أن المدهش حقا هو ذلك التطاحن والصراع فيما بينهم، إذ كانت تلمسان وبحكم موقعها وكأنها بين فكي كماشة ، فتخضع في مرات عديدة لأحد الطرفين المتنازعين القويين .. وهكذا وصلت جيوش المرينيين في بعض الأوقات إلى تونس.والزاب، وقسنطينة،كما وصلت جيوش الحفصيين إلى مدن المدية وملیانة وتلمسان،ومن أبرز العوامل المؤثرة في هذا الوضع نذكر مايلي :

1-الأطماع الاسبانية والبرتغالية في السواحل المغربية

ما أكثر كتب التاريخ التي تناولت تلك التطورات التي شهدتها شبه الجزيرة الأيبيرية في النصف الثاني من القرن 15م ومطلع القرن 16م ولعل من أبرزها زواج فرديناند الخامس (1467م / 1516م)ملك آراغون بإيزابيلا (1474م / 1504م) ملكة قشتالة سنة 1469م والذي كانت نتيجته توحيد المملكتيـــن وظهور مملكة إسبانيا الكاثوليكية الموحدة [67].

في هذا الجو المشحون بالاضطرابات و الفوضى لاحت في أفق الشمال الإفريقي أحداثا غيّرت مجرى التاريخ ونعني بذلك التحرشات الإسبانية البرتغالية من جهة ، وظهور الإخوة بربروس من جهة ثانية، وما يهمنا في هذا المقام ليس الدخول في تفاصيل الوحدة أو الصراع الإسباني البرتغالي فيما بعد حول مناطق النفوذ سواءفي شمال إفريقيا أوفي العالم الجديد[68]بل على ذلك التناقض العجيب و الملفت للانتباه حول ماكان يحدث بين

---

[64]–جون.ب وولف. نفس المرجع .ص، 24

[65]– محمد بن عمرو الطمار . تلمسان عبر العصور ، مرجع سابق ص ، 217

[66]– محمد بن عمرو الطمار .نفس المرجع . ص ،216.

[67]–لا نريد التوسع أكثر في خلفيات هذه التطورات ونتائجها ليس فقط على شبه الجزيرة الأيبيرية ، بل على حوض البحر المتوسط الغربي بكامله وكذا على العالم الجديد الذي تم اكتشافه عام 1492، وهذه بعض الكتب التي أحاطت بهذه الأحداث والتطورات وأهمها:

-Feraud. Braudel. La Méditerranée et le monde méditerranéen al' époque de Philipe II. T2 2eme édition librairie armand colin; paris. 1966 p 19 ؛

– جون .ب وولف ، مرجع سابق،ص ،25

[68]– عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية و آثاره (1505م. 1792م) ، دراسة تتناول الآثار السياسية و الاقتصادية والاجتماعية و الثقافية على الجزائر . دار هومة . للطباعة والنشر و التوزيع الجزائر . ص، 37 ،38 ،39

الضفتين الشمالية و الجنوبية بحوض البحر المتوسط ،خاصة الجهة الغربية منه.ففي الوقت الذي كانت الضفة الغربية لشمال البحر المتوسط تشهد نهضة كبرى [69]،كانت الضفة الغربية لجنوب البحر الأبيض المتوسط تشهد ضعفا وتقهقرا سياسيا [70].هذا الوضع وتداعياته كانت من أبرز الأسباب التي سهّلت عملية تغلغل الأسبان والبرتغاليين في المناطق الساحلية [71]

وفي هذه الأثناء لاح في الأفق نجم الإخوة بربروس الذين جاءت بهم مشيئة الله إلى سواحل المغرب الأدنى،فمن هم هؤلاء الإخوة ؟ وكيف جاؤوا إلى المنطقة (المغرب الأوسط) ؟ وهل كانت العمليات الحربية – الجهادية – التي قاموا بها من أجل إنقاذ سكان هذه المناطق من الهيمنة الإسبانية ؟ أم جاؤوا لإلحاقها بالدولة العثمانية ؟

2- الإخوة بربروس وإلحاق الجزائر بالإمبراطورية العثمانية

إن الحديث عن الإخوة بربروس ومغامراتهم في حوض البحر المتوسط ،و أمجادهم البطولية فيه لا يمكن هضمه أواستساغته مالم نعرج بالحديث عن الدولة العثمانية [72].التي كان لها عظيم الأثر في توجيه

---

[69]- إن تتابع المخترعات التقنية مثل انتشار استعمال البارود ، وتعدد المراكز الفلكية وتطور التقنيات الملاحية البحرية وظهور الطباعة ، بالإضافة إلى شيوع الفكر الفلسفي الديكارتي بين النخب المتعلمة كل ذلك قد جعل أوروبا تتحفز لتجاوز حدودها الجغرافية إلى ما وراء البحار لطفي عيسى ، مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن 17 م .سراس للنشر . تونس . 1994 . صص27 .28.

[70]- في المغارب كان الوضع العام يتّسم بضعف السلطة المركزية وظهور عدة إمارات محلية ... وأصبح الأسبان و البرتغاليون يهددون الأراضي المغاربية مباشرة . أنظر المنور مروش ،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني القرصنة الأساطير الواقع ،الجزء الثاني،دار القصبة للنشر 2009 . ص ، 40 كذلك ، توفيق المدني، حرب 300 سنة بين الجزائر واسبانيا 1492م/ 1792م ، دار البصائر للنشر . 2007 ص58، أنظر :

-AUGUST COUR; l établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger (1509- 1830), lérroux éditions, paris,1904, p,6

[71] - إن تفتت السلطات و تعددالإمارات المتنافسة و الضعيفة خلقاعقبات أمام النهوض و حشد القوى لمقاومة التوسع الأيبيري الذي كانت انتصاراته تتوالى على السواحل المغربية ، فسقط المرسى الكبير بيد الأسبان في 1505م ثم تنس سنة 1508م ووهران في 1509م وبجاية في 1510مواضطرت دلس وشرشال ومستغانم إلى دفع الجزية لإسبانيا ابتداء من سنة 1511م وكذالك مدينة الجزائر التي سلمت حصنها الدفاعي البحري الذي يسميه الأسبان البنيون للأسبان كعلامة على الخضوع . أنظر: مروش ،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني –القرصنة الأساطير الواقع – الجزء الثاني ، مرجع سابق صص 40- 41 -جون .ب. وولف ، الجزائر و أوروبا ، مرجع سابق ص ص،26، 27 -توفيق المدني ، حرب 300 سنة ، مرجع سابق ، ص 86 وما بعدها بالفرنسية أنظر :

-F.braudel, les espagnols et l'Afrique du nord, Revue Africaine,1928,pp,198,199

- De la primaudie, les espagnols en Afrique , Revue Africaine , 1875, p 67

[72]- ثمة عدد هائل من المؤلفات التي تناولت تاريخ الدولة العثمانية . أنظر مثلا :

– جب هاملتون وهارولد باوون ، المجتمع الإسلامي والغرب ج 1/ 2 ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى . دار المعارف ، القاهرة 1970 – فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار الجيل ، بيروت 1977– العزاوي قسي جواد ، الدولة العثمانية . قراءة جديدة لعوامل الإنحطاط ، الدار العربية للعلوم ، بيروت .1994 – محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، مطبعة التقدم . مصر . ط : 2 . 1912–مصطفى أحمد عبد الرحيم ، في أصول التاريخ العثماني . دار الشروق ، بيروت ، 1982بالفرنسية أنظر:

- Hammer. Joseph. Histoire de l' empire ottoman depuis son origine jusqu'a nos jours 18 vol .paris .1836.

هؤلاءالمغامرين،ومساعدتهم وتأييدهم(خاصةخيرالدين)مع مطلع القرن 10هـ / 16م،عندما كانت الحملات الإسبانية تتوالى على السواحل الشمالية الإفريقية،والتي امتازت بالنهب واللصوصية والانتقام من الإسلام والمسلمين (الموريسكيين*)

وبسبب طول الفترة الزمنية لهذه الدولة (1288م – 1924م) ،والتي تحوّلت من قبيلة متنقلة باحثة عن الكلأ و المرعى إلى إمارة مستقرة ثم إلى دولة ومنها إلى إمبراطورية كبرى مترامية الأطراف امتدت أقاليمها في آسيا وأوروبا وإفريقيا وأضحت من أ كبر الدول الإسلامية التي شهدها التاريخ[73].فإننا سوف نقتصر على أوضاع هذه الدولة مع مطلع القرن 10هـ 16م . التي كانت فيها تسيطر على أوروبا الشرقية و آسيا الصغرى وعلى الجزء الأكبر من بلاد اليونان وبلاد البلقان،وتمكنت بعد عام 1516م من فتح بلاد الشام ومصر وانضمت بلاد الحجاز واليمن كما التحقت بها الجزائر عام 1518م وبذلك توسعت رقعة الأراضي العثمانية التي امتدت إلى ثلاث قارات،وهي إفريقيا وآسيا وأوروبا وأصبحت تطل على البحر الأسود والبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط .وهي المياه الدافئة وممر تجارة العالم بأسره خاصة البحر الأبيض المتوسط الذي يصل بين قارتي أوروبا وإفريقيا . وبذلك تكونت الإمبراطورية العثمانية [74] .

وفي عام 1512م تمكن السلطان سليم الأول* الاستيلاء على السلطة بالقوة بعد أن أجبر أباه بايزيد على التنازل له على الحكم ، وحكم مابين (1512م –1520م)، وبرز في هذا العهد عروج وخير الدين اللذان لعبا دورا كبيرا في مد رقعة الدولة العثمانية إلى كل من ليبيا وتونس والجزائر وجزر البحر المتوسط ، سواء في عده أو في عهد خليفته سليمان القانوني**[75]

---

*الموريسكيون : هم الأندلسيون الذين بقوا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة أصبحوا يعرفون باسم (الموريسكيين) los Moriscos يراجع، عبد الله حمادي .الموريسكيون و محاكم التفتيش في الأندلس،.م.و.للكتاب بالجزائر و الدار التونسية للنشر 1994 .

[73]– الغالي الغربي ، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288م – 1916م).د. المطبوعات الجامعية ، الجزائر . 2007، ص 25 نقلا عن :إبراهيم شحاتة : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، منشأة المعارف للطباعة ،الإسكندرية 1981 بدون ذكر رقم الصفحة

[74]– محمد سي يوسف . أمير أمراء الجزائر علج علي باشا ، الأمل للطباعة والنشر و التوزيع،2009 صص : 35، 6 3

*سليم الأول : هو السلطان العثماني الملقب بالقاطع ولد سنة 875هـ .. و توفي في الحادية و الخمسين من عمره أي سنة 926هـ/1520م بعد فتوحات كثيرة ...كانت له الخلافة بمصر حيث تنازل له محمد المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين عن الخلافة وسلمه الآثار النبوية الشريفة و هي البيرق و السيف و البردة و سلمه أيضا مفاتيح الحرمين الشريفينو صار كل سلطان عثماني أميرا للمؤمنين وخليفة لرسول العالمين اسما و فعلا: محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ط1 ، دار النفائس،1981 ، ص، 188,197 .

** سليمان القانوني ، ولد هذا السلطان الذي بلغت الدولة العلية في عهده أعلى درجات الكمال ، سنة 900هـ/1494م . واشتهر بالقانوني لما وضعه من التنظيمات الداخلية للحكومة...توفي سنة 974هـ/1566م،*يراجع*،محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ،تحقيق احسان حقي ط1 ، دار النفائس ، بيروت ، 1981 ، ص،198 و ما بعدها

[75]– محمد سي يوسف ، أمير أمراء الجزائر علج علي باشا . المرجع السابق . ص ، 20، كذلك : الغالي غربي ، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288 – 1916 . مرجع سابق ص . 56

وبناءا على ما سبق ذكره نتفق مع الدكتور، أبوالقاسم سعد الله في أن العثمانيين قد دخلوا الجزائر أساسا بطلب من أهلها[76]وربطوا مصيرهم في الغالب بمصير أهل البلاد وتحالفوا معهم سياسيا وعسكريا وخاضوا معهم حروب الجهاد في البر والبحر[77]

هذه الحروب التي أكسبت الإخوة بربروس بطولات سجلها التاريخ الإسلامي لهم بحروف من ذهب،لأن الفترة التي ظهر فيها هؤلاء الإخوة،كانت فترة حروب دامية بين العالمين الإسلامي (بزعامة الدولة العثمانية) والعالم المسيحي (بزعامة إسبانيا الكاثوليكية)

إن القراءات المتأنية لنشاط الإخوة بربروس[78] البحرية في حوض البحر المتوسط خاصة الجهة الغربية منه تبدأ بنزولهم في الموانئ الحفصية سنة،1504م وشروعهم في أعمال القرصنة بسواحل أوروبا الجنوبية عامة وسواحل صقلية و جنوب ايطاليا خاصة،كما شاركوا في نقل المسلمين الفارين من شبه الجزيرة الأيبيرية[79] وكان هؤلاء الإخوة يتميزون بالشجاعةومعرفةعلم البحر مما جعلهم قراصنةمهابي الجانب في البحر المتوسط،فقاموا بحملات جريئة على شواطئ إسبانيا لمساعدة مسلمي الأندلس ، إذ كانوا يملكون حوالي عشرة سفن عليها حوالي ألف رجل جاعلين من القرصنة حرفة لهم وتربطهم بسلطان تونس علاقة مادية بحتة تعتمد على اقتسام الغنائم[80] وإذا ما تصفحنا بعض مصادر القرن 16م الأوربية نجد أن عروج جاء إلى بجاية في شهر أوت 1512م على رأس إثنا عشرة قطعة بحرية محملة بالمدفعية والذخيرة وألف تركي وبعض الأهالي[81] ، إذ بعد ثمانية أيام من الحصار والقصف المدفعي أصدر عروج أمر الاقتحام ،لكن قذيفة سقطت على ذراعه الأيسر أوقفت العمليات

---

[76]– أول قاعدة للإخوة بربروس في الجزائر هي جيجل ، وقد تواجدوا بها صدفة ، عندما سيطروا على سفينة صقلية محملة بالقمح في الوقت الذي كانت فيه البلدة مهددة بالمجاعة فوزعوا القمح على السكان . فما كان من السكان إلا أن دعوا عروج ليصبح ملكا عليهم .أنظر : جون . ب . وولف . الجزائر و أوروبا . مرجع سابق ص : 30 ، كذلك : توفيق المدني . حرب 300 سنة ، مرجع سابق ص : 148 ،158

[77] – أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 مرجع سابق . ص : 141 ، كذلك: صالح عباد ،الجزائر خلال الحكم التركي 1514م – 1830م . ط 3 ، دار هومة للطباعة والنشر و التوزيع . الجزائر 2011 ص ، 44 ،45 ، 46

[78] – لتفاصيل أكثر حول أصل هؤلاء الإخوة ونشاطهم . خاصة الأخوين عروج و خير الدين أنظر :المؤرخ المجهول : غزوات عروج وخير الدين ، الطبعة الأولى، ترجمة د. محمد دراج، شركة الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر، 1431هـ/ 2010م –المنور مروش . دراسات عن الجزائر في العهد العثماني ج2 .ص : 70 . 71

–عبد الله حمادي ،سيرة المجاهد خير الدين بربروس ، مرجع سابق ص : 5 – 13، بالفرنسية أنظر:

-Diego de haédo. Histoire des roid d'alger. Tradiction de l'espagnol et notes de henri delmas degramont. Editions grand-alger.livres.Alger. 2004.p.11-68

[79]– استجاب خير الدين لاستغاثة موريسكيي الأندلس ، مرسلا سنة 1529م ستة وثلاثون (36) سفينة . وأنقذ خلال 7 رحلات متوالية سبعون ألف من عرب الأندلس . أنظر :علي تابليت . الجزائر في القرن 16 ، مجلة بحوث . عدد : 05 1998 ، جامعة الجزائر ص: 256 . كما أن عروج وحده أنقذ ما يزيد عن عشر آلاف أندلسي من يد النصارى أنظر : عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور . دورها في سياسة وحضارة الجزائر . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1984 . ص : 215 .كذلك :عمار بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962 ط3 ، دار البصائر للنشر و التوزيع ص، 53 ، 54، 55

[80]–كورين شوفاليه ، المرجع السابق . ص : 28

[81]- Diego de haédo. Histoire des rois d'Alger op.cit p 18

وتفرق الجمع البري و البحري[82]،وبعد أن فشل في بجاية وجد المكان المناسب في جيجل التي كانت السيطرة عليها سهلة ونقل مقره من تونس إلى هذه المدينة الحصينة واتخذها منطلقا لجهاده[83] في هذه الأثناء كانت مدينة الجزائر مضطربة منذ استسلامها للإسبان سنة 1510م بسب الانقسامات التي حصلت بين سكانها حول تلك الضريبة التي تدفعها لهؤلاء المحتلين وبوفاة الملك الإسباني فرديناند (بتاريخ 23 جانفي 1516م)[84] شعر حضر مدينة الجزائر و الشيوخ العرب بأن موته قد أحلّهم من يمين الولاء الذي أدّوه له ، فدعوا عروج لمساعدتهم على طرد الإسبان بعيدا عن مدينتهم [85]

وهذا هو ما حدث بالفعل، إذ ركّز الإخوة بربروس كل مجهوداتهم على الجزائر منذ 1516م ، ولا تهمنا تلك الأحداث الدامية[86] التي حدثت بالجزائر بعد استقرار عروج بها وبعد اغتياله لحاكمها السابق سالم التومي ثم توسعاته في غرب الجزائر وصولا إلى تلمسان التي لقي حتفه بها سنة 1518م بقدر ما يهمنا إصرار عروج على تحرير هذه الأخيرة من يد الأسبان ، ومن يد المتواطئين الزيانيين مع الإسبان وهو ما سنتعرض له بعد حين.

3- نشاط الإخوة بربروس

بعد ما تمكن عروج من تصفية حساباته مع أحد مناوئيه (قارا حسن) حاكم شرشال،دخل مدينة الجزائر وبعد عشرين يوما لم يحقق عروج أي تقدم في تخليص سكان الجزائر من الإسبان أضف إلى ذلك تصرفات الأتراك التي كانت تمتاز بالعنف والسرقة و الغطرسة، مما زاد الوضع سوءا على سوء ، وهو ما أزعج سليم التومي كذلك ...فما كان من عروج إلاّ أن يحافظ على مكانته وذلك بالتخلص منه ... وقام بصك العملة و عمل على تقوية وسائل دفاع المدينة...واعتبر نفسه غير ملزم باحترام المعاهدة السابقة مع الإسبان[87].

وعندئذ أقدم عروج على محاولات عديدة لإخراج الإسبان من قلعة البنيون و تحطيمها ،فما كان من المجلس الملكي الإسباني إلا إرسال حملة عسكرية لإنقاذ حصن البنيون.وقد ساند شيخ مدينة تنس تلك الحملة ،ونظرا

---

[82]-Idem. p. 19

[83]-صالح عبّاد ، الجزائر خلال الحكم التركي . مرجع سابق صص 44. 45

[84]- صالح عبّاد. نفس المرجع ، ص 46

[85]- جون .ب. وولف ، الجزائر وأوروبا . مرجع سابق . ص : 30

[86]- وصفتها هنا بالأحداث الدامية ، لأنني رأيت أنّ المصالح الضيقة ، والصراع على الحكم قد جعل صديق الأمس يتحول الى عدو ، وهو ما ينطبق على إقدام عروج على تصفية سليم التومي ، وبعض أعيان مدينة الجزائر . وبعدها الصراع الذي سوف يحدث بين خير الدين بربروس و ابن القاضي – حليفا الأمس- والذي نتج عنه دخول ابن القاضي إلى الجزائر و طرده لخير الدين بربروس في الفترة مابين 1520 م – 1525م وثمة اختلاف كبير بين المؤرخين حول أحداث هذه الفترة للتوسع أكثر في هذه الأحداث أنظر :

- جون .ب. وولف ،. مرجع سابق . ص: 30 . 31 - شوفاليه ، الثلاثون سنة الأولى لقيام... مرجع سابق صص : 29 – 30

- مع العلم أن المصدر الوحيد الذي لم يشر إلى مقتل سالم التومي أو إلى مذبحة أمراء و أعيان تلمسان التي دبّرها عروج حسب المصادر الأهلية والأوروبية على السواء هو ، غزوات عروج وخير الدين – ترجمة د. محمد دراج ،مصدر سابق

[87]- كورين شوفالييه ، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر .مرجع سابق ، صص : 29. 39 . كذلك : - عمار بوحوش . التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962 . مرجع سابق ص،53

للأخطاء التي ارتكبها قائد الحملة ديغو ديفيرا(قصف الجزائر من بعيد وتقسيم قواته إلى أربع مجموعات دون حماية مؤخرة الجيش،فباءت الحملة بالفشل[88]وازداد عروج إصرارا على تطهير غرب البلاد،من الأسبان،والمتواطئين معهم سواء في تنس أو مستغانم أو تلمسان ،خاصة بعد النجدات التي وصلت إليه من تلمسان لطلب المساعدة و الحماية ضد السلطان أبو حمو الذي تحالف مع الأسبان ضد سلطانهم الشرعي أبو زيان[89]، فتوجه عروج إلى مدينة تنس حيث قضى على ثورة حميدة العبد[90] .ثم زحف إلى تلمسان بعدما وضع حامية عسكرية في قلعة بني راشد*،جاعلا منها مركزا لحماية مواصلاته، وأمّر أخوه إسحاق بن يعقوب على رأس هذه الحامية المكونة من 600 رجل[91] ، وعندما وصل عروج إلى سهل أربال اصطدم بجيش أبي حمو فهزمه ثم دخل تلمسان ... أما أبو حمو الثالث فاتجه نحو تلمسان ،ومنها ارتحل الى وهران واضعا نفسه تحت حماية حاكمها العام ، وقام عروج بوضع أبي زيان الثالث المسعود بدل عمّه الذي اغتصب منه الحكم[92]،وهنا نرفع الستار عن أحداث عاشها المغرب الأوسط و عاصمته (تلمسان آنذاك)التي اكتوت بنارها فئات عدّة، كان وقودها الصراع على كرسي الحكم بين من تزعّموا السلطة في آخر أيام الدولة الزيانية والذين كانوا بمثابة رؤوس الفتنة خاصة في موالاتهم للإسبان حينا وللأتراك حينا آخر، وهو ما جعل عروج يرى ضرورة الفصل فيها والتي كلّفه حياته[93]،رغم المقاومة القوية التي أبداها مع مرافقيه،ولم ينج إلاّ قليل منهم،تمكن من العودة إلى الجزائر ليخبر خير الدين بالنكبة التي حلّت بعروج ورفاقه [94] .

تأثر خير الدين كثيرا لوفاة أخويه عروج و إسحاق ... فاستدعى رفاقه وأعيان مدينة الجزائر، وأخبرهم عن عزمه في العودة إلى الشرق،لكن إصرار هؤلاء على ضرورة بقائه في الجزائر جعله يهتدي إلى فكرة طلب

---

[88]– كورين شوفاليه ، الثلاثون سنة الأولى لقيان دولة مدينة الجزائر . مرجع سابق صص : 33 ،34 . انظر كذلك:نجيب دكاني ، الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن 10هـ / 16 م . رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر . إشراف : د. ناصر الدين سعيدوني جامعة الجزائر . 2001 /2002 .ص: 55 ، 56 ، 57

[89]–كورين شوفاليه ، الثلاثون سنة ، مرجع سابق ص 36

[90]– أرزقي شويتام ، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519م/ 1830م . ط1 . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، الجزائر 2009، صص ،44 / 45

*قلعة بني راشد ، هي هوارة ، تبعد عن معسكر نحو 25كلم ، وعن مستغانم نحو 55 كلم . أنظر : عبد الله حمادي ، سيرة المجاهد خير الدين بربروس ، مرجع سابق .ص : 91 ، الهامش رقم 03

[91]– توفيق المدني ، حرب 300 سنة .... مرجع سابق صص 171 ، 172

[92]– توفيق المدني ،المرجع نفسه .ص ، 172

[93]– عن ظروف استشهاد عروج أنظر :

-Berbugger.Andrien. la mort du fondateur de larégence d'Alger(aroudjBarberousse in Revue Africaine,N°.4.1859.1860. P25.3

[94]– نجيب دكاني ، الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية . مرجع سابق صص : 61 ، 62، نقلا عن جون . ب . وولف ، ص : 31

المساعدة[95] من السلطان العثماني سليم الأول،الذي رحّب بالفكرة ،وألحقت الجزائر بذلك بالدولة العثمانية[96].

(إن ظهور شخصية خير الدين باشا كأول باي لارباي للجزائر، أعطى للجزائر مكانه متميزة في حوض البحر الأبيض المتوسط وقد كان في نيته توحيد الجزائر،لولا صراعه مع ابن القاضي)[97] وكذا الحروب الدامية التي خاضها ضد الإسبان كصدّه لحملة 1518م[98] وقضائه على صخرة البنيون عام 1529م[99]

وبموازاة ما كان يقوم به خير الدين باشا مابين (1519م- 1546م) وهي فترة حكمه للجزائر،باستثناء ما حدث من صراع بينه و بين ابن القاضي (الذي سبقت الإشارة إليه) في الفترة ما بين (1520م – 1527 م) من توطيد أركان الحكم في الجزائر خاصة في الجهة الشرقية من الجزائر من جهة ورده للاعتداءات الإسبانية من جهة أخرى. فإن الوضع في الجهة الغربية من الجزائر(بقايا الدولة الزيانية)كان يتسم بأوضاع أقل ما يقال عنها،التواطؤ،والتناحر، ترى كيف ذلك ؟

4- صراع بنو زيان على الحكم في النصف الأول من القرن 16م و نتائجه

---

[95]- أرسل سليم الأول ألفين من الجنود الإنكشارية ، وأربعة آلاف من المشارقة (العثمانيين) المجنّدين في الميليشيا الجزائرية ، بالإضافة الى إرساله لبعض المدافع والذخيرة الحربية ...أنظر : جون .ب. وولف ، الجزائر وأوروبا . مرجع سابق ص : 32 . كذلك : كورين شوفالييه ، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر . مرجع سابق ص : 41 . كذلك : عبد الجليل التميمي ، أول رسالة من الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 . المجلة التاريخية المغربية ، عدد : 6 جويلية 1976 . راجع النص التركي لهذه الوثيقة في العدد ،05 من المجلة التاريخية المغاربية . جانفي 1976 . القسم الفرنسي ص : 97 ،99،98

[96]- في 15 مايو 1519 وصل جواب من السلطان مع الوفد الذي أرسل في السنة الماضية إلى اسطنبول . أنظر : كورين شوفاليه الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر ، مرجع سابق ص 44 . كذلك : جون .ب . وولف ، الجزائر و أوروبا ، مرجع سابق ص :32 . ومن خلال إطلاعنا على بعض ما كتب حول هذه القضية (إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية) وجدنااختلافا في مسألتين اثنتين.

أولا : حول الشخصية التي قادت الوفد الجزائري إلى السلطان سليم الأول . فعبد الجليل التميمي ، يشير إلى شخص " أبو العباس أحمد بن القاضي " (أنظر المجلة التاريخية المغربية) عدد : 6 . جويلية 1976 ص : 118 .بينما جون .ب. وولف يقول أنه شخصية الحاج حسن (أنظر جون وولف)الجزائر وأوربا،مرجع سابق ص98

ثانيا : التاريخ الفعلي لانضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية " فعبد الجليل التميمي ، يشير إلى أن الرسالة كتبت في أوائل ذي القعدة 925 هـ الموافق ل : نوفمبر 1519م (أنظر المجلة التاريخية المغربية . عدد :6 . جويلية 1976. ص 120 الهامش رقم (20) من نفس الصفحة ، بينما كورين شوفالييه . يرى أن جواب السلطان كان يوم 15 مايو 1519 أنظر ص : 41 أنظر التفاصيل في: نجيب دكاني – الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية ص : 67 ، 68 ، 69

[97]- كورين شوفالييه ، الثلاثون سنة الأولى ، مرجع سابق ، ص ، 42 ، 43 ، 44

[98]- هي الحملة الإسبانية التي قادها (هوغو دومونكادا – Don Hugo Moncada) يوم 17 أوت 1518 م ، وبعث برسالة تحذير إلى خير الدين يطالبه فيها بالاستسلام ، فرد عليه خير الدين يقول له " السيف هو الذي يحكم بيننا والمنتصر فيها يكون جديرا بحكم هذه المدينة " أنظر تفاصيل هذه الحملة في : نجيب دكاني ، الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية مرجع سابق ص : 64 / 65 / 66 . كذلك : توفيق المدني حرب 300 سنة ... مرجع سابق ص : 188 / 193.مع ملاحظة أن الأستاذ توفيق المدني حدد هذه الجملة بيوم 17 أوت 1519 وليس كما ورد في المرجع السابق : يوم 17 أوت 1518م . كذلك : كورين شوفاليه ، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر . مرجع سابق صص :39 /40 . يؤكد شوفاليه بأن الحملة نزلت بميناء الجزائر يوم 17 أوت 1518م .وليس كما أشار إليه المدني سابقا .

[99]-كورين شوفاليه ،ال 30. مرجع سابق ص : 47/46 /48 ؛كذلك : صالح عباد ،.مرجع سابق صص : 52 /53

في زخم الأحداث التي كانت تعيشها الجزائرمع مطلع القرن ال10هـ/ 16م كانت دولة بني زيان تعيش آخرأيامها،وعلى اعتبارأن دراستناهذه تتمحورحول الجهة التي نشأت بها الدولة الزيانية (تلمسان) فإن الواقع الأليم الذي عاشته المنطقة بعد سقوط وهران في يد الإسبان كان يتميز بما يلي :

– بعد احتلال وهران من طرف الإسبان عام 1509م (كما رأينا سابقا) فقد لجأ الحاكم الإسباني إلى المكر إذ أخذ يوالي جهوده بواسطة الخونة من العرب (المتعاونين معه) لبثّ بذور الفتنة والشقاق بين المسلمين والوعد ببذل الإعانات المادية و الأدبية لمن يتعلق بأذياله[100] .

ومن نتائج تلك الفتنة أن ثار أبو زيان السعد يحي الثابتي على أبي حمو الثالث في الوقت الذي كان فيه المسلمون يستعدون للجهاد ضد الإسبان، فدخل أبو زيان تنس واستبدّ بها تحت حامية إسبانية،فجهّز أبو حمو الثالث جيشا لقتاله فلما كان على وشك الانتصار توقف جيشه عن القتال وحارب أبو حمو الثالث الإسبان،ولكنه عجز عن مقاومتهم فاحتمى بهم في آخر الأمر على أن يؤدي لهم ضريبة سنوية مبلغها اثنا عشر ألف دوقية واثنا عشر فرسا وستة بزاه ...فغضب الشعب التلمساني بسبب احتماء أبو حمو بالنصارى وكذا إثقال كاهلهم بالضرائب[101] .

وأمام هذا الوضع شكّل أعيان تلمسان وفدا أرسلوه إلى عروج يستنجدونه باسم الإسلام ضدّ أبو حمو الثالث...ولما سار عروج إلى تلمسان التجأ أبو حمو الثالث إلى فاس ثم إلى الحامية الإسبانية بوهران بعد أن انهزمت جيوشه، ونصّب عروج أبا زيان أميرا ... غير أن الجند التركي أساء معاملة أهل تلمسان ... فشكي أبو زيان ذلك إلى عروج فما كان من عروج إلاّ أن أمر بشنق أبي زيان ... بل إنّه أغرق سبعين شخصا من أسرة أبي زيان ، وأنّ الجنود الأتراك قتلوا نخبة من أهل المدينة[102].

وهنا لابد لنا من تعليق على هذه الحادثة،فعملية القضاء على أبي زيان الثالث الملقب بالمسعود من طرف عروج، لم تكن مباشرة بعد فتح عروج لتلمسان بل بعد تنصيب أبي زيان الثالث حاكما لتلمسان بفترة،ذلك أن الفتنة ظهرت بين مناصري أبا زيان،زد على ذلك شكوك أبا زيان في عروج (مخافة أن يظم تلمسان إلى الجزائر و عندئذ يفقد ملكه)[103]،غير أن الحسن الوزان يقول حيث أن (عروج) بربروس التركي طمح إلى الحكم فقتل أبا زيان غيلة ، ونصّب نفسه ملكا[104] .

---

[100] – محمد بن عمروالطمار، تلمسان عبر العصور ، مرجع سابق .ص: 227

[101] – محمد بن عمروالطمار، المرجع نفسه . ص : 228

[102] – مبارك بن محمد الهلالي الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث ج3 .مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ص ،47 أنظر كذلك : محمد بن عمرو الطمار . تلمسان عبر العصور ... مرجع سابق ص ، 229 / 230

[103] – توفيق المدني ،حرب 300 سنة .. مرجع سابق ص 172 /173 ؛كورين شوفالييه. المرجع السابق .ص 36

[104] – الحسن بن محمد الوزان الفاسي،وصف إفريقيا .ط2 .ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت .1983 ص 09

ومهما يكن من أمر فإنه أمام هذه الأحداث نجد سكان تلمسان كانون نادمين على استنجادهم بعروج[105] " فتحالف أنصار أبو زيان مع الأسبان وكذا قوات أبو حمو المتحالفة أيضا مع الإسبان (المقدّرة بعشرة آلاف رجل، فهاجموا قلعة بني راشد وقضوا على إسحاق (أخو عروج)،ثم حاصروا عروج في قلعة المشور وقضوا عليه أيضا"[106] . وقد انقلبت الحالة في السنة الموالية فالملك أبو سرحان المنصور قد خلع سلطة أبي زيان أحمد الثاني ، ونصّب نفسه ملكا على ذلك العرش الذي كان من ذهب فأصبح من قصب ، وتعهد بالانضواء تحت راية الجهاد العثماني ثم خان العهد ، وقلب ظهر المجن للعثمانيين،لكن شقيقه عبد الله الثاني(أبو أحمد) ثار عليه وطلب النجدة من العثمانيين بالجزائر ، فأمدوه و نصروه وبقي بتلمسان ملكا إلى أن توفي[107]

ولما تولى الحكم أبو عبد الله محمد (السابع) سنة (930هـ / 1524م) كان مذبذبا في ولائه فاتبع الإسبان حينا وتأثّر بعهودهم ووعودهم ، ثم أدار وجهة شطر الجزائر وتاب و أناب ، فأصبح مرتابا من الجانبين إلى أن مال نهائيا للإسبان،فحاربه الجزائريون وطردوه من تلمسان فالتجأ إلى وهران مستجيرا ورجع إلى تلمسان مع رجال إسبانيا و خيلها و اعتلى من جديد ذلك الكرسي المحطم[108]، وعندما كانت الجزائر منشغلة بحربها ضد الإسبان خاصة حملة شارلكان على الجزائر عام 1541م[109] ،والتي فشلت فتطايرت أخبار فشلها إلى أهل تلمسان ، فثاروا على حكم محمد السابع فطردوه ، وتولى أمر تلمسان الملك أبا زيان أحمد الثاني للمرة الثانية... لكن إسبانيا لعبت بعقل أبي زيان و استمالته وما إن علم شعب تلمسان أن ملكه قد خان حتى ثار عليه وبايع خلفا عنه أحد إخوته الملك الحسن الذي كان مواليا للعثمانيين[110]

5 –بداية نهاية حكم الزيانيين

خلال فترة النصف الأول من القرن 10هـ / 16م كانت الأوضاع السياسية مضطربة و متدهورة ، كما رأينا سابقا خاصة بالنسبة لملوك الدولة الزيانية(صراع على الحكم، موالاة للإسبان تارة، وللأتراك تارة أخرى) غير أنه لابد لنا من إبداء ملاحظات كان لها دور في بقاء هذا الوضع متذبذبا وغير قار،ومن ذلك ما يلي

– انشغال خير الدين بما كان يحدث في الشرق الجزائري (ثورة ابن القاضي)[111]

–انشغال إسبانيا بالجزائر بدلا من تلمسان،خاصة تحضيرها لحملات عسكرية لاقتلاع جذور العثمانيين من الجزائر مثل حملة شارلكان سنة 1541م. وقبلها حملة أندري دوريا على شرشال سنة 1531م[112]

---

[105] – عبد الله شريط،محمد مبارك الميلي ،مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي،م.و. ك. الجزائر1985،ص ،149

[106] – عبد الله شريط،محمد مبارك الميلي ،المرجع نفسه ، ص ،149

[107] – أحمد توفيق المدني ، تلمسان بين الزيانيين و العثمانيين ، مجلة الأصالة ،عدد ، 26 جويلية– أوت ، 1975 ، ص ، 43

[108] – توفيق المدني ، المقال السابق ، ص ، 43

[109] – توفيق المدني ، حرب ال300 سنة ، مرجع سابق ، ص، 260 ، 273

[110] – توفيق المدني ، تلمسان بين الزيانيين و العثمانيين ، مقال سابق ، 44

[111] – صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي . مرجع سابق .صص 52/51

[112] –كورين شوفاليه ،ال 30 سنة ....مرجع سابق ص : 83

– استدعاء خير الدين إلى إسطنبول، وتعويضه بحسن آغا كنائب باي لارباي على الجزائر سنة 1533م[113]

– تولي حسن باشا بن خير الدين (الحقيقي) ، وحكم الجزائر سنة 1545م ، خلفا لحسن آغا الابن الروحي لخير الدين بربروس، تولى حكم الجزائر ثلاث مرات)[114]

– خاض أتراك الجزائر معارك دامية ضد الأسبان بغرب البلاد أهمها:معركة شعبة اللحم 1543م[115]

في الوقت الذي بدا فيه وكأن أمر تلمسان قد انتهى لفائدة حكومة الجزائر وإذا بالأشراف السعديين يوجّهون أنظارهم لظم تلمسان إلى مملكتهم،وقد تمكنوا من احتلالها فعلا سنة 957هـ/1550م ولكن قوات خير الدين تمكنت من إجلائهم عنها في السنة التالية (1551)وإبعادهم إلى ما وراء نهر ملوية.وهو ما سنراه في الصفحات الموالية

6 – الأطماع السعدية في الغرب الجزائري

يبدأ النصف الثاني من القرن العاشر هجري، السادس عشر ميلادي (بعثمنة)الغرب الجزائري كله أي جعله تابعا لأتراك الجزائر، وبالمقابل كانت هناك أطماع كبيرة للسعديين في المغرب الأوسط (سيتم التعريف بالسعديين في المبحث الثاني من هذا الفصل) و استغلالهم للأوضاع المتدهورة للدولة الزيانية (لا تزال قائمة شكليا رغم تبعيتها لأتراك الجزائر) في محاولة لجعلها تابعة لهم و ذلك في 05 جوان سنة 1550 إثر محاصرة تلمسان من طرف الشريف محمد المهدي السعدي[116]

وتعتبر هذه الحملة على تلمسان من قبل الدولة السعدية ، حملة مضنية ، ذلك أن قائدها الشريف محمد الحران بن محمد المهدي(مؤسس الدولة السعدية) حاصر تلمسان مدة تسعة أشهر ، ثم فتحها يوم الاثنين 23 جمادي الأولى سنة 957هـ/ 1550 ثم زحف نحو مستغانم بقواته ووصلوا حتى شلف[117] .

ورغم انشغال أتراك الجزائر بمحاربتهم للإسبان ،فإن ذلك لم يمنعهم من تجهيز جيش بقيادة حسن قورصو للانقضاض على فلول السعديين ،فسارت الفرقة الأولى نحو شلف و هزمت الجيش السعدي بينما فرقة أخرى قصدت مستغانم فدكّت الحامية السعدية دكّا و قتل فيها محمد الحران[118] و رغم فشل هذه الحملة وما نتج عنها إلا أن محمدا الشيخ قام بحملة ثانية (إنتقامية) أسند قيادتها لثلاثة من أبنائه، وقد هزم هذا الجيش المتكون من سبعة عشر ألف (17000) مقاتل[119] وقتل الشريف عبد القادر قائد الجيش المغربي، وعاد

---

[113] – كورين شوفالييه ، المرجع السابق ، 86 ، 87 ، انظر كذلك :خليل الساحلي، تقليد مصالح باشا ولاية جزائر الغرب سنة 1552 ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد :2 جويلية . 1974 ص :125

[114] –خليل الساحلي ، تقليد صالح باشا ولاية جزائر الغرب سنة 1552 ، مرجع سابق صص :125 / 126

[115] –توفيق المدني ، حرب 300 . مرجع سابقق ص :290 . أنظر كذلك :– صالح فركوس ،تاريخ الجزائر ... مرجع سابق ص . 102

[116] –صالح فركوس ، تاريخ الجزائر ، مرجع سابق ، ص . 102

[117] –محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور .مرجع سابق ص : 233

[118] –محمد بن عمرو الطمار ، المرجع نفسه ، ص، 234

[119] – المنور مروش ، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني . مرجع سابق ص :127

الجزائريون إثر ذلك إلى تلمسان حيث نصبوا على العرش الزياني الأمير الحسين بن عبد الله الثاني ..وكان الأمير الجديد سيء السيرة فاغتنم سكان تلمسان فرصة وجود صالح رايس فرفعوا إليه شكواهم ، فقرّر هذا الأخير نهاية دولة بني زيان و ضم تلمسان رسميا إلى الدولة الجزائرية وذلك سنة 962هـ/1554م[120]

7 – عودة حسن بن خير الدين و سياسته الجديدة .

بعد وفاة صالح رايس[121] سنة 1556م ،عاد حسن بن خير الدين على رأس الدولة الجزائرية في جوان 1557 بعد غيابه عنها لأربع سنوات فوضع حدا للفوضى و أعاد النظام... ولعلّ أبرز انتصار حقّقه حسن بن خير الدين أثناء فترة حكمه الثانية هو تلك المعركة التي أثبتت للجميع حرص الجزائريين و الأتراك على الدفاع والاستماتة عن الجزائر مهما كلفهم ذلك من غال ونفيس إنها معركة ما زغران[122] قرب مستغانم وقد كانت هذه المعركة ذات طابع مصيري حاسم وخلّدها الشاعر الأخضر بن خلوف في قصيدة ،عبارة عن رواية حقيقية للمعركة من طرف شاهد عيان وتبدأ هكذا :

يافارس من ثم جيت اليوم قصـــة مازاغران معلومـــة
حزناهم للصور ذاك اليوم تسعـة آلاف ابغات مغنومـة
من حيط الدشرة ذاك اليوم تسعة ألاف مشات محطومة [123]

ولعلّ هذا الانتصار في معركة مازغران هو الذي دفع حسن بن خير الدين إلى توجيه أنظاره إلى وهران بغرض تحريرها من الإسبان ،كي يبعدهم عن هذه الأرض الطاهرة فكانت معركة المرسى الكبير التاريخية التي استمرت

---

[120] –كانت الدولة الزيانية في هذه الفترة جسما بلا روح ، وهيكلا بدون محتوى ، وكان بقاؤها على هذا الوضع من العوامل التي كانت تشجع الأسبان على التدخل في شؤونها ،تمهيدا لاحتلالها . وذلك لا يمثل خطرا عليها فحسب وإنما على مستقبل الوجود التركي بالجزائر خاصة بعدما أصبح أمراؤها بمثابة كرة في أيديهم. أنظر: يحي بوعزيز . الموجز في تاريخ الجزائر ج2 ، ط2 : ديوان المطبوعات الجامعية . ص : 19 .

[121] – ومن أبرز مشاريعه بعد تعيينه حاكما على الجزائر عام 1552 ما يلي :

– تحقيق الوحدة بين أجزاء الدولة الجزائرية

– إبعاد الأسبان نهائيا عن أرض الجزائر (ماعدا وهران والمرسى الكبير)

– وضع حدا لطموحات الدولة السعدية في الجهة الغربية للجزائر

– مساعدة أبا حسون الوطاسي في استرجاع فاس ، وتنصيبه سلطانا عليها عام 1554م. للتوسع في هذه المعلومات أكثر أنظر : توفيق المدني ، حرب ال:300 سنة ... مرجع سابق ،ص، 317 ، 322 . كذلك : المنور مروش ، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني . مرجع سابق ص : 126 . كذلك : عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، مرجع سابق . صص : 309/308

[122] – هي من أشهر المعارك(وقعت يوم 1558/08/26م) التي انتصر فيها أتراك الجزائر بقيادة حسن باشا بن خير الدين ، ضد القوات المتحالفة الثلاث. الإسبانية بقيادةالكونت أليكونت والجيش المغربي بقيادة ابن الملك السعدي محمد الشيخ،و القوات الزيانية بقيادة منصور بن أبي غانم الذي جنّد آلاف المقاتلين ضد الأتراك. وكانت نتيجتها القضاء على قائد الحملة الكونت أليكونت و أسر ابنه(الذي تم افتداؤه فيما بعد بمبلغ ثمين) و قد دامت المعركة ثلاثة أيام و خسر فيها الجيش الإسباني اثنا عشر ألف ما بين قتيل و أسير ، منهم خمسون ضابطا. للتوسع أكثر أنظر : – محمد سي يوسف أمير أمراء الجزائر،علج علي ، مرجع سابق ص،55 نقلا عن: ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني – توفيق المدني ، حرب 300 سنة ...مرجع سابق ص 354/350 – عبد الرحمان الجيلالي ،تاريخ الجزائر العام مرجع سابق صص: 309/308 – المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني ، ص،126

[123] – المنور مروش ، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني ، مرجع سابق . صص : 133 /134

ما بين 11 مايو إلى 05جوان 1563[124] ورغم فشلها في نهاية المطاف إلاّ أنها أثبتت عمق وبعد المقاومة الجزائرية للاحتلال الإسباني.ورغم ما أبداه (ملوك الجزائر) في الدفاع عن كل شبر من أرض الجزائر شرقا وغربا وجنوبا سواء في عهد حسن باشا أو علج علي★ أو رمضان باشا(الذي حكم في الفترة مابين (1574 – 1577م) إلا أن تمكّن الأتراك من حكم الجزائر و قضائهم على الدولة الزيانية كانت له سلبيات(...ولا تسل عما قاسى الشعب الجزائري من مرارة و تصرفات الجند التركي المتكون من أتراك ومرتزقة...أضف إلى ذلك أن الأتراك قد انفردوا بامتيازات على حساب أهل البلد)[125]

ولنأخذ الآن مقارنة عجيبة و ذات بعد فلسفي هام، إنه رأي المؤرخ الأمريكي جوون.ب. وولف الذي يقارن بين الأتراك والإسبان قائلا:الإسبان اكتفوا بإنشاء مقيمات أوحصون على الموانئ الرئيسية بينما حاول الأتراك حكم الأهالي في داخل البلاد ،بالإضافة إلى المدن الداخلية وجعلها تحت نفوذهم (تحت سيادتهم) وبالتالي فالأتراك كانوا مكروهين من الأهالي بنفس الدرجة التي كانوا يكرهون بها الإسبان ... والفرق الأساسي هو أن الأتراك كانوا مسلمين[126] وربما نكون منحازين جدا إذا ردّدنا مع الشاعر سعيد المنداسي الذي هجا الأتراك في الجزائر بسبب الضرائب المجحفة في حق الجزائريين قائلا

فما دبّ فوق الأرض كالترك مجرم ولا ولدت حواء كالترك إنسانا[127]

غير أنه والتزاما منّا بالحياد و الموضوعية ولكي لا نخرج عن إطار البحث (موضوع الدراسة) فإن تقييم التواجد التركي في الجزائر خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر الميلادي سوف نطرحه على بعض علماء تلك الفترة ،خاصة علماء تلمسان ، وهذا ما سنراه في الفصول اللاحقة .

المبحث الثاني : المغرب الأقصى خلال القرن العاشر هجري/السادس عشر الميلادي

المغرب الأقصى في النصف الأول من القرن العاشر هجري / السادس عشر الميلادي

إن جلّ الكتب التي تتناول دراسة الدول المغاربية الثلاث (تونس، الجزائر، المغرب)تكاد تنطلق من فترة دولة الموحدين تلك الدولة التي تعتبر من أعظم الدول في التاريخ الإسلامي . إذ تمكنت من تحقيق وحدة المغرب

---

[124]– توفيق المدني ، حرب ال : 300 سنة ... مرجع سابق ص : 356 /360

★– علج علي :هو من بين الشخصيات البارزة في تاريخ البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، و تكمن أهمية هذا الرجل في تفوقه على أعدائه من جهة و في ارتقائه إلى أعلى المناصب في الدولةالعثمانيةمن جهة أخرى و هذا بعدما كان مجرد جداف مسيحي مقيدا في سفن المسلمين لمدة (14سنة) و من أبرز ما عرف عنه أنه فكر في ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر كي تسترجع مصر و البلاد العربية أهميتها التجارية بسبب أن التجارةالأوربية كانت تمر عبر الجنوب الإفريقي ... توفي هذا البطل عام 1587م أنظر : محمد سي يوسف أمير أمراء الجزائر،علج علي ، مرجع سابق صص: 70/69 كذلك : توفيق المدني ،حرب 300 سنة ... صص، 385/384

[125]– محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور ... مرجع سابق صص :237.

[126]– جون .ب. وولف ،. مرجع سابق . صص: 113 /114

[127]– عثمان سعدي ، الجزائر في التاريخ . مرجع سابق ص : 421.

بأقسامه المختلفة ... والتاريخ يشهد بأن دولة الموحدين كانت آخر الدول الإسلامية في المغرب التي وحّدت بين أقطاره ولم تقم وحدة بعد ذلك التاريخ حتى وقتنا الحاضر[128]

1-الدولة المرينية

على اعتبار أن بحثنا هذا يتناول القرن10هـ/16م الخاص بالمغرب الأقصى فإنه لن يتسنى لنا فهم مميزاته الا بإلقاء نظرة سريعة على الدولة المرينية (591هـ-957هـ/1195-1550م)التي كانت قد استولت على عاصمة الموحدين سنة 668هـ/1269م على يد يعقوب بن عبد الحق،وفي سنة 796هـ/ 1393م كانت دولة بني زيان بتلمسان قد ظهر عليها الضعف والوهن، إذ زحف عليها بنو مرين و ضمّوها لدولتهم [129].ذلك أن الدولة المرينية كانت ترى نفسها أنها أحقّ بأملاك الموحدين في المغرب الأوسط و الأدنى وأنّ خروج بني زيان في تلمسان،وبني حفص في تونس عن الدولة الأم في مراكش يجب عودته إلى سابق عهده وذلك بضم الدولتين وعودة المغرب موحدا كما كان في السابق[130].

وعلى هذا الأساس كانت العلاقات بين الدول الثلاث تمتاز بالعداء والتطاحن كما رأينا في المبحث الأول من الفصل الأول،وقد تميز عهد المرينيين بمميزات أهمها :

– مزاحمتهم من طرف دول مجاورة نشأت إثر التمزّق الموحدي ،فدولة بني نصر في غرناطة، ودولة بني عبد الواد في تلمسان،ودولة بني حفص في تونس،وكثيرا ما ينشأ صراع عسكري يستنزف طاقة المغرب

— فتن وحروب داخلية أضعفت قوة الدولة و أنهكتها مما جرّأ النصارى على احتلال بعض ثغور المغرب مثل سبتة وطنجة وغيرهما[131] غير أن (محاربة بني مرين للموحدين وخروجهم على الدولة الموحدية استغرق حتى إسقاطها ما يزيد عن الخمسين عاما... واتخذ بنو مرين نظام السلطة شعارا للحكم بدلا من الخلافة...وقد سار رؤساء بني مرين على هذا الخط فتلقبوا جميعا بلقب سلطان)[132] ورغم قوة هذه الدولة إلّا أن الصراع على السلطة كان المحرك الأساسي لانهيارها خاصة و أن القبائل العربية لعبت دورا أساسيا في توجيه أحداث المغرب وذلك بنصرة أمير مريني على آخر حتى انتهى الأمر إلى استقرار أبي العباس أحمد بن أبي سالم المريني بفاس ومنافسة ابن أبي يغلوسن بن أبي علي المريني بمراكش، واشتد الصراع بين العاصمتين فاس ومراكش وأصبحت

---

[128]– عبد الفتاح مقلد الغنيمي . موسوعة تاريخ المغرب العربي (بني حفص ، بني زيان، بني مرين ، بني وطاس والسعديين ، وظهور الأشراف العلويين) ، دراسة في التاريخ الإسلامي ج5-6 مكتبة مدبولي. ط1 (1414هـ /1994م) ص :14

[129]– يوسف عليبدوي،عصر الدويلاتالإسلامية في المغرب والمشرق من الميلاد الى السقوط، ط1،دارالأصالة 1431هـ/2010م.ص202-203

[130]– قام أبو يعقوب المريني بمحاصرة تلمسان قرابة ثمانية أعوام، وبنى بجوارها مدينة المنصورة،أنظر:صالح فركوس، مرجع سابق ص 96-97

[131]– عبد الله المرابط الترغي ،فهارس علماء المغرب منذ النشأة الى نهاية القرن12هـ ، منهجيتها تطورها قيمتها العلمية ، ط1 1420هـ/ 1999م ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان .ص :15

[132]–عبد الفتاح مقلد الغنيمي . موسوعة تاريخ المغرب العربي . مرجع سابق ص :269

الدولة تنقسم فيما بينها،قسم يناصر فاس والآخر ينحاز إلى مراكش [133]وهكذا انتهت دولة بني مرين التي امتد عمرها حتى 1428م) وخلفها فرع منهم كان يحكم سلا هو فرع بني وطاس[134].

2-الدولة الوطاسية

ينتمي الوطاسيون إلى قبيلة صنهاجة وبالتالي إلى لمتونة وهم من ولد وطّاس بن المعز بن يوسف بن تاشفين،وقد لجأ وطاس بن المعز بن تاشفين إلى أحياء بني مرين فارا بنفسه من تلمسان أمام عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين آنذاك فاستجار بهم فأجاروه، و أقام بينهم فكانوا من جملة قبائلهم محسوبين في عددهم ، وكان لهم فيهم رياسة[135]

وسواء أكانت دولة بني وطاس امتدادا لدولة بني مرين، أو محاولة لإعادة حكم الصنهاجيين فقد كان بنووطاس يهدفون إلى إنقاذ البلاد من الفوضى التي ضربت أطنابها يومئذ في كل ربع من ربوعها[136] وقد عجز الوطاسيون عن بسط نفوذهم على كامل أجزاء المغرب ، بسبب أن هذا الأخير كان مقسم إلى وحدات سياسية كثيرة تحت زعامات قبلية أو دينية أو مجالس محلية مستقلة عن الوطاسيين تماما[137] . ذلك أن المغرب في نهاية القرن الخامس عشر ميلادي ،ومطلع القرن الموالي كان فسيفساء سياسية على شكل إمارات نذكر منها:

- في الشمال و الجنوب الشرقي:إمارة بني راشد في شفشاون وآل المنظري في تطوان وآل عبد الحميد في القصر الكبيروآل رحو في دبدو وهذه الإمارات كانت تخضع إسميا للوطاسيين
- في وسط المغرب وغربي الوسط إمارات ابن حدو و أخيه أبي فارس في الجبل الأخضر وإمارة إبن عامر في تنسيتة، وإمارة آل فرحون في آسفي، وجمهوريات مدن تافزة، والجمعة وآزمور ،ونفوذ رؤساء القبائل في سهول دكالة،وتادلة،وكل هذه الإمارات الصغيرة لم تكن تخضع للوطاسيين .
- وفي جنوب المغرب وغربه نذكر إمارة شنتوف في مراكش،وإمارة مولاي إدريس الهنتاني في الأطلس الكبير وجمهوريات مدن تارودانت ، وتدسي وتفتنت ، ونفوذ الشيخ يحي في ثيوط ... وكثيرا ما كانت تقوم بين هذه الوحدات السياسية نزاعات لأسباب مختلفة[138]. وبذلك فقد كانت سلطة الوطاسيين في فاس سلطة إسمية ، ولم يكن بيدهم في حقيقة الأمر شيء من السلطة أو السلطات[139] .

---

[133] -عبد الفتاح مقلد الغنيمي مرجع سابق ، ص 335

[134] - توفيق المدني ، حرب 300 سنة ... مرجع سابق ص :60

[135] - ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ المجلد الثاني من بداية المرينيين الى نهاية السعديين ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء . ص 194 . نقلا عن الذخيرة السنية، ص 19 لمؤلف مجهول .

[136] - إبراهيم حركات المغرب عبر التاريخ . المرجع السابق ص .195

[137] - عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب في القرن 10هـ / 16 م.ج1 ،دار الأمل للطباعة والنشر و التوزيع ص ،46

[138] - عمار بن خروف ، نفس المرجع.ص 46 . انظر كذلك عن هذا التمزق السياسي أثناء فترة حكم محمد الشيخ الوطاسي(حكم مابين 1471م-1505م) إبراهيم حركات ، المرجع السابق ص :197

[139] -عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، موسوعة تاريخ المغرب العربي . المرجع السابق ص ،27 ،28

و بوفاة محمد الشيخ الوطاسي (مؤسس الدولة) سنة 1505م آل الحكم إلى ابنه أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي الشهير بالبرتغالي الذي حكم ما بين(1505م-1525م) و كان قد أسره البرتغاليون عندما استولوا على أصيلا سنة 1471م و أطلق سراحه بعدما عقد والده هدنة مع البرتغاليين[140] .

من أبرز مميزات فترة حكم أبو عبد الله محمد الشيخ وكذا فترة حكم أخيه أبي حسون بن محمد الشيخ (آخر سلاطين بني وطاس) هو سيطرة الطرق الصوفية التي بدأت تمارس دورها و تحاول أن تجد لها مجالا في العمل السياسي بعد أن تجمع الناس حولها[141] أضف إلى ذلك أن النزاع بين أبي حسون وابن أخيه أحمد بن أبي عبد الله[142] حول الحكم ، وفوق كل هذا و ذاك وجود الخطر الأجنبي البرتغالي والإسباني الذي كان يهدد السواحل المغربية ، وهو ما سنتطرق له بعد حين .

3-التحرشات الاسبانية والبرتغالية بالمغرب الأقصى

إن إسبانيا التي كسبت المعركة السياسية والعسكرية في غرناطة وجدت نفسها مجبرة لشن حملات عسكرية على الفضاء الجغرا-سياسي الإفريقي لاحتواء السواحل المغربية مدفوعة في ذلك بطابع استمرارية الحملة الصليبية على الإسلام[143] وهنا حقّ لنا أن نتساءل هل إسبانيا وحدها هي التي كانت تريد احتواء السواحل المغاربية (حسب رأيالباحث التونسي عبد الجليل التميمي) أم أن البرتغال كذلك ؟ ومنذ متى كان هذا التخطيط للاستيلاء على السواحل الإفريقية المغاربية ؟ وما هي أهدافه و غاياته؟ من خلال قراءاتنا للعديد من المصادر وأقوال رجال الدين والسياسة المسيحيين آنذاك (قبل وأثناء القرن 10هـ/16م) ندرك يقينا أن عملية السيطرة كان مخططا لها،وحالة الضعف والفوضى لدويلات شمال إفريقيا قد ساهمت بشكل كبير في ذلك ونستشهد بمقولة كاتب الملكين الكاثوليكيين الإسبانيين(فرديناندز زافرا) سنة 1494 م بقوله : "إن البلاد كلها في حالة بحيث يبدوا و أن الربّ يريد أن يهبها لصاحبي الجلالة ".ويقصد بالبلاد دويلات المغرب الإسلامي آنذاك[144] ودون أن نخوض في سير المعارك أو الطرق التي استحوذ بها الإسبان والبرتغاليون على سواحل المغرب العربي،نحاول وضع تواريخ لتلك المحطات التاريخية التي خيّم من خلالها هذا الدخيل على أجزاء متعددة من أراضي المغرب العربي في ظل الظروف العامة السابق ذكرهاومن ذلك :

احتل القشتاليون تيطوان سنة 1401 م

---

[140]-إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ . المرجع السابق ص :199

[141]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي . موسوعة تاريخ المغرب ... المرجع السابق ص : 29

[142]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، نفس المرجع. ص :36

[143]- عبد الجليل التميمي ، دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن 16م . مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، ماي 2009 . ص ،143

[144]- صالح عباد ، الجزائر خلال الحكم التركي . مرجع سابق ص ،26 نقلا عن بروديل ص،212،211. أنظر كذلك : جون .ب. وولف ، الجزائر وأوروبا مرجع سابق ص: 24

– واحتل البرتغاليون سبتة سنة 1415 م ،ثم طنجة سنة 1438م، ثم آزمور 1468م وكذا أصيلا سنة 1471م ،وأغادير عام 1507م، ودكالة م1513. غير أن إسبانيا كانت تدخل بين الحين والآخر في صراع مع البرتغال حول هذه المنطقة أوتلك،ومن ذلك إفتكاك الأسبان لسبتة من البرتغاليين واحتلال مليلة سنة 1497 .[145]

ولوضع حد لهذا الصراع فقد لجأ الطرفان إلى عقد مجموعة من الاتفاقيات و المعاهدات مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ميلادي .ومن أمثلة ذلك اتفاقية طليطلة سنة 1480م واتفاقية توردیسیلاس (07 جوان1494م) التي اتفق الطرفان فيها على وضع خط يفصل بين مناطق نفوذ البلدين يمتد طوله بحوالي 2000 كلم . وقد نصّت الاتفاقية التي أبرمت بين ملك البرتغال (يوحنا الثاني)والملك الإسباني (فرديناند الخامس)الكاثوليكي،على أن كل المناطق الواقعة إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر تخص التاج القشتالي،وكل البلاد الممتدة إلى الشرق من هذه الجزر تكون من نصيب البرتغال ،و قد عرفت هذه الاتفاقية في بعض الأحيان باتفاقية تقسيم العالم، وهو ما أكّدته (إتفاقية سينترا1509 م)التي حدّدت مجال كل طرف[146]

وأمام هذا الوضع كان المغاربة في حاجة ماسة الى من ينقذهم من هذا الاستعمار الجاثم على المناطق الساحلية، فكانت الأعناق كلها مشرئبة نحو الأشراف السعديين ،فمن هم هؤلاء السعديون ؟وكيف أنشأوا دولتهم ؟وما علاقتهم بجيرانهم في المغرب الأوسط ؟هذا ما سنتطرق له في الصفحات القادمة

المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 10هـ/ 16 م

1 – الدولة السعدية

يعود أصل السعديين إلى مدينة ينبع ،قدموا إلى المغرب في وقت يصعب تحديده واستقرّ السعديون في وادي درعة في بداية القرن 14م .... وظلوا حتى مطلع القرن 16م يعيشون حياة بسيطة كعلماء ، وكان نسبهم يكسبهم شيئا من الاحترام[147]. لم يبرز السعديون على مسرح الأحداث السياسية إلاّ مع شدة وطأة

---

[145]– يحي بوعزيز . موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر والعرب ج1. دار الهدى .عين مليلة . الجزائر صص،238 ،239 كذلك أنظر : إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ . مرجع سابق ص : 198 ،199 . كذلك أنظر : عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، موسوعة تاريخ المغرب العربي مرجع سابق ص ، 29 ،30

[146]– عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية . مرجع سابق صص ،38 ، 39 .كذلك: عمار بن خروف ، العلاقات السياسية بين المغرب والجزائر . مرجع سابق ص: 47 /48

[147]– نسب السعديين العربي ليس موضوع شك . ولكن نسبهم الشريفي كان موضع طعن وهذه المسألة أثارها الأشراف العلويين في أواخر عهد السعديين حين كانوا يتحركون ليحلوا محلهم . أنظر : محمود علي عامر ، محمد خير فارس ، تاريخ المغرب العربي والحديث . المغرب الأقصى– ليبية– منشورات جامعة دمشق 1999 .2000 ص :29 . وللتوسع أكثر : أنظر – اليفراني أو الوفراني .نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ص: 6 – مؤرخ مجهول ،تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية ط1 ، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بن حادة . دار تينمل للطباعة والنشر 1994 . ص: 12 وما بعدها .أنظركذلك : – ديكودي طوريس ، تاريخ الشرفاء . ترجمة الى العربية :محمد حجي ،محمد الأخضر مطبعة سلا؟ .ص 13 وما بعدها . أنظركذلك – إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، مرجع سابق ص ، 272 ، 273

البرتغاليين على سكان الجنوب الغربي، دون أن يتدخل الوطاسيون لحمايتهم ، حيث كانوا منشغلين بالدفاع عن الشمال فلجأ أهل الجنوب إلى السعديين لقيادة صفوفهم ضد البرتغاليين[148]

غير أن أوّل اتصال لسكان الجنوب كان بالرجل الصالح محمد بن مبارك*لكنه رفض و أشار عليهم بتنصيب محمد القائم بأمر الله الذي كان مؤذنا ،فقبل وتمّت مبايعته سنة (915هـ/ 1509م)باعتراف الشيوخ والقضاة والفقهاء[149]،ولما تمت مبايعته في مدينة تدسي بالسوس تلقب بالقائم بأمر الله ،وقدّمت له كل قبيلة بايعته عشرة من رجالها المقاتلين فبلغ المجموع (500) رجل،و كانت هذه القوة النواة الأولى للجيش السعدي النظامي الذي أسند قيادته لابنه الأكبر أحمد الأعرج[150] .

دعا القائم بأمر الله السكان إلى الجهاد ضدّ البرتغاليين ، وقد أحرز المجاهدون نجاحا أوليا شجع على الالتفاف حول القائم بأمر الله ، لكنه توفي سنة 1517م[151]. استأنف أحمد الأعرج النضال ضد البرتغاليين (بعد أن خلف أباه)، لكن أكبر مشكلة اعترضته هو حليف البرتغاليين يحي بن تعففت** ومابين 1523م – 1525م ، استولى أحمد الأعرج على مراكش ... وكان هذا أول الخطوات في مسيرة السلطة[152].

2 – الصراع السعدي الوطاسي ونتائجه

تأكّد الوطاسيون بأن هدف السعديين ليس هو الجهاد فقط، وإنما إقامة دولةجديدةيحكمونها ويسيرونها هم بأنفسهم ، خاصة بعد استيلائهم على مراكش من طرف أحمد الأعرج وكان هذا الأخير ذكيا ، إذ أنّه عندما سمع باستياء الوطاسيين راسل السلطان محمد البرتغالي الوطاسي، وعرض عليه أن يكون عاملا له بمراكش،وأن يدفع له ضعف ما كان يدفعه سلفه[153]، لكنه تماطل في ذلك مما جعل محمد البرتغالي الوطاسي يحاصره في مراكش، غير أن ثورة فا س(التي قادها أولاد محمد البرتغالي) جعلته يتراجع ويغير وجهته نحو فاس للقضاء عليها ، على أمل العودة إلى مراكش ثانية والقضاء على أحمد الأعرج لكن الأجل وافاه سنة 1526م [154].

واستؤنف الصراع سنة 935هـ / 1528م فجرت معارك بين الوطاسيين والسعديين،أبرزها معركة أتماي (خارج مراكش) عام 1528م ولم تكن حاسمة ثم معركة بوعقبة عام (943هـ / 1536م) التي انتصر فيها

---

[148] – عمار بن خروف ، العلاقات السياسية – مرجع سابق ص : 50

*عن الولي الصالح ابن مبارك وزاويته الشهيرة ، أنظر : الوفراني ، نزهة الحادي، مصدر سابق ص : 10

[149] – إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، مرجع سابق ص 274

[150] – عمار بن خروف ، العلاقات السياسية . مرجع سابق ص : 50

[151] – محمود علي عامر،محمد خير فارس ، تاريخ المغرب الحديث . مرجع سابق ص : 34 .

** عميل للبرتغاليتين إذ مكّنهم من إقامة محمية لهم في دوكالة مما سهل لهم احتلال كل من أزمور 1513 مازغان 1514 و آقوز 1519 .... وقد تمكن السعديون من إغتياله عام 1521 وبذلك أزاحوا أكبر عقبة من أمامهم . أنظر : نجيب دكاني ، الإحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية . مرجع سابق ص : 12 .

[152] – محمود علي عامر ، محمد خير فارس : تاريخ المغرب العربي الحديث . مرجع سابق ص :35

[153] – عمار بن خروف ، العلاقات السياسية .مرجع سابق ص 52 .نقلا عن السلاوي الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،ج4 ص11

[154] – عمار بن خروف ،المرجع نفسه ،ص ،52

السعديون ومني الوطاسيون(بزعامة أبو العباس أحمد الوطاسي) بهزيمة كبيرة لكن القوى المرابطة أدركت خطورة هذا الصراع وتأثيره على الجهاد،فتدخلت وتوسطت بين الطرفين ... وتم الاتفاق على أن تكون المناطق الواقعة من تادلا إلى السوس للسعديين ولم يشر الاتفاق إلى مسألة التبعية[155] .وكان من نتائج هذا الاتفاق ما يلي :

– تقسيم المغرب بن السعديين والوطاسيين [156]

– ظهور السعديين بمظهر القوة خاصة بعد استرجاعهم لأغادير عام 1541م ، مما جعل البرتغاليين يغادرون آسفي وآزمور حيث زال خطرهم في الجنوب[157] .

ولعل أكبر نتيجة هي نهاية ذلك الصراع المحتدم بين الأخويين أحمد الأعرج و محمد الشيخ حول السلطة[158] بتفوق محمد الشيخ واتخاذه لمراكش عاصمة له ، ثم حاصر فاس للقضاء على الوطاسيين مما اضطر السلطان الوطاسي أحمد إلى عقد اتفاق مع محمد الشيخ ... أما أبا حسون فقد غادر فاس إلى باديس في الشمال ثم اضطرّ للجوء إلى الإسبان في مليلة[159] .

إنّ تعاظم القوة السعدية ، وظهور محمد الشيخ كزعيم سياسي وعسكري محنّك ، جعل أهل تلمسان يستنجدون به فطالبوه بالتدخل لإنقاذهم من الأتراك والإسبان(سبقت الإشارة إلى ذلك في المبحث الأول من هذا الفصل) فتسرّع محمد الشيخ بمهاجمة المغرب الأوسط قبل أن يستتب له الأمر تماما في المغرب فكلّفه ذلك حياة إبنه الحرّان ، وانهزام جيشه وتراجعه إلى ما وراء نهر ملوية[160] .

شجّع انتصار أتراك الجزائر على الجيش السعدي في تلمسان ،أبا حسون الوطاسي (الذي كان قد إلتجأ إلى الجزائر) شجّعه على استرجاع ملكه في فاس ، فطلب من أتراك الجزائر المساعدة مقابل الاعتراف بضم المغرب إلى السيادة العثمانية ، فلبّى صالح رايس ذلك وساعده على استرجاع فا س عام 1554م ، غير أن أبا حسون لم يستمتع بذلك لمدة طويلة ، إذ كان ينقصه المال عصب الحرب والرجال وعدة الحرب ، فما كان من محمد الشيخ سوى تشديد القبضة علية ، ومحاصرته في فاس والقضاء عليه عام 1554م[161]

3 – سياسة محمد الشيخ السعدي ونتائجها

---

[155] – محمود علي عامر ، محمد خير فارس : تاريخ المغرب العربي الحديث . مرجع سابق ص : 36 /37

[156] – عمار بن خروف،العلاقات السياسية ...مرجع سابق،صص،53 ،54 ، 55

[157] – محمود علي عامر ، محمد خير فارس : تاريخ المغرب العصر الحديث ، مرجع سابق ص : 37

[158] – للتعريف بشخصية كل من محمد الشيخ و احمد الأعرج و إبراز خصالهما أنظر: – إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ . مرجع سابق ص : 276 / 279 .

[159] – محمود علي عامر ، خير فارس : تاريخ المغرب العربي الحديث، مرجع سابق صص : 39 ، 40 – أنظر كذلك عن حصار محمد الشيخ لمدينة فاس ونتائج ذلك : – مؤرخ مجهول : تاريخ الدولة السعدية التكمادارتية الصفحات : 15.14.13.12.11.10.9

[160] – محمود علي عامر ، خير فارس : تاريخ المغرب العربي الحديث . مرجع سابق ص : 40 أنظر كذلك : – إبراهيم حركات . المغرب عبر التاريخ ص ، 279 ، 280

[161] – محمود علي عامر ، خير فارس ، . مرجع سابق ص : 42 /43

لاشك أن دهاء وحيلة السلطان السعدي محمد الشيخ جعله يتّخذ مواقف أثّرت أيّما تأثير على تاريخ المغرب الأقصى مع مطلع النصف الثاني للقرن 10هـ/ 16م ،ومن أبرز مميزات سياسته الخارجية هومعارضته للأتراك إذ كان يرفض بشده الاعتراف بهم بل كان يقلل من شأنهم ويحتقرهم ، ويصف السلطان العثماني بسلطان الحوّاتة ، ويذكر اليفراني (أن محمدا الشيخ لما تغلّب على المغرب ، ودانت له حواضره وبواديه ، تاقت همّته العليا إلى بلاد المشرق فكان يقول ، لابد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج منها الأتراك من أحجارهم ، وأنازلهم في ديارهم)[162] ، وقد كلّفته هذه التهكمات على السلطان العثماني حياته ، إذ استطاع حسن باشا حاكم الجزائر التخلص من محمد الشيخ بالخديعة بعد أن كلّف واحدا من خيرة ضبّاطه (صلاح كاهيا) بتدبير اغتيال محمد الشيخ سنة، (964هـ / 1557م)[163] وحملوا رأسه إلى البلاط العثماني.ورغم كل ما قيل عن محمد الشيخ ، إلا أنه يعتبر بحق المؤسس الحقيقي للدولة السعدية في المغرب ، والموحّد لأجزائه وذلك من خلال سياسته الداخلية والخارجية.

4 – خلفاء محمد الشيخ السعدي

بويع عبد الله الغالب بالله،بعد مقتل والده عام 1557م ،ونقل ملكه من فاس إلى مراكش،وقد كان قاسيا على أسرته إذ قتل بعضهم وهرب ثلاثة من إخوته (عبد المالك وأحمد و عبد المؤمن)إلى الجزائر ومنح ولاية العهد لابنه محمد[164]، تابع سياسة والده الداخلية والخارجية خاصة موقفه الصارم من أتراك الجزائر إذ استطاع صدّهم عن المغرب عام 1558م في معركة وادي اللبن[165] أما داخليا فقد تقرّب مع بعض الصلحاء وخصوصا أتباع الإمام الجزولي[166]،أصيب الغالب بمرض الضيقة فتوفي في رمضان سنة (981هـ/ 1573م)[167]

جاء في كتاب نزهة الحادي للوفراني أن (محمدا المتوكل قد تمّت مبايعته في فاس بعد وفاة والده عبد الله الغالب بالله،لأنه كان قد ولّاه أبوه ولاية العهد)[168]،غير أنه لم يهنأ بالحكم إذ لقي معارضة كبيرة من طرف أحمد

---

[162]– كان يدعوا السلطان العثماني (سليم القانوني) بسلطان الحواتة لأنّ البواخر العثمانية ، كانت تجوب بكثرة عرض البحر المتوسط ... ولما راسله سليمان القانوني يدعوه فيه إلى الدعاء له على منابر المغرب أجاب السفير العثماني قائلا : قل لسلطان الحواته لا أجيبه حتى أكون بمصر إن شاء الله . أنظر: – الوفراني : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي صحّح عباراته التاريخية السيد هوداس، تم طبعه على يد بردين صاحب المطبعة بمدينة أنجي، 1888، ص، 14 . أنظر كذلك : –إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، مرجع سابق ص : 281 – محمود علي عامر ، خير فارس : تاريخ المغرب العربي الحديث مرجع سابق ص :44 .

[163]–إبراهيم حركات ، مرجع سابق ، ص :282 – محمود علي عامر ، خير فارس ، تاريخ المغرب العربي الحديث ، مرجع سابق ، ص : 45 . كذلك : – عمار بن خروف ، العلاقات السياسية، مرجع سابق ، ص :63

[164]– محمود علي عامر ، خير فارس . تاريخ المغرب العربي الحديث . مرجع سابق ، ص ، 47

[165]– ايراهيم حركات المغرب عبر التاريخ . مرجع سابق ص : 286 .

[166]– على الرغم من التشدد الذي أظهره الغالب بالله في سياسته تجاه بعض أرباب الزوايا فقد كان يتقرب إلى أرباب الطريقة الجزولية ،أنظر ، إبراهيم حركات ، المرجع السابق ، ص : 288 . 289 .

[167]–إبراهيم حركات ، المرجع نفسه ص : 287

[168]– الأفراني ، نزهة الحادي ، المصدر السابق 200 و أظنه لجأ إلى البرتغال ، لأنه سيأتي بسباستيان إلى المغرب لاستعادة ملكه، لكنه لقي حتفه في معركة وادي المخازن كما سيأتي ذكره.

المنصور و أخوه عبد الملك اللذان كانا قد لجآ إلى الجزائر فدعّمهما أتراك الجزائر بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل فانهزم المتوكل ودخل عبد الملك فاس دخول الظافر في أواخر 983هـ/1575م وفر المتوكل باحثا عن ناصر جديد[169].

حكم المغرب عبد الملك بن محمد الشيخ بعد دخوله إلى فاس،كما أسلفنا سابقا ولعل أبرز حادثة تاريخية وقعت بالمغرب أثناء ولاية عبد الله بن محمد الشيخ هي:معركة وادي المخازن[170]،التي كانت انتصارا عظيما للمغرب الأقصى وهي ما تعرف بواقعة الملوك الثلاثة (قتل فيها المتوكل وسباستيان وعبد الملك) وبوفاة عبد الملك بويع أخوه أحمد المنصور في واد المخازن ، ولقب بالمنصور لأنه استفاد من هذا النصر ، وقد حكم ما بين 1578م إلى غاية 1603م ، كان واسع الثقافة ملما بالمسائل العصرية الدبلوماسية ، قرّب العلماء والفقهاء المغاربة وقد وصف بأنه خليفة العلماء، وعالم الخلفاء،واتصل بعلماء مشارقة في مصر والشام[171].

ويعتبر المنصور أبرز السلاطين السعديين، لبراعته في توجيه العلاقات المغربية التي تخدم مصالح المغرب،وعرف كيف يجني منها الفوائد..ويعتبر المنصور مهندسا بارعا للعلاقات الخارجية في عهده[172]

وخلاصة القول

-أنّ القرن10هـ/16م كان بحق قرن تحوّلات هامة ليس في المغرب الإسلامي فحسب ،بل في حوض البحر الأبيض المتوسط خاصة في جهته الغربية .

- أنّ قدوم الأتراك إلى الجزائر (متمثلا في شخصيتي عروج و خير الدين) كان بداية فعلية لتشكل الدولة الجزائرية الحديثة بحدودها الجغرافية المتعارف عليها.

- أنّ القضاء على الدولة الزيانية مع منتصف القرن10هـ/ 16 كان أمرا حتميا ، بسبب ظروف المرحلة أولا، وصراع أبناء الأسرة الحاكمة ثانيا، ناهيك عن دور الإسبان في إضعاف الدولة الزيانية .

- أنّ التطورات الحاصلة في المغرب الأقصى منذ نهاية القرن9هـ/15م –وطيلة القرن 10هـ/ 16م وتداول

---

[169]- لجأ عبد الملك و أخوه أحمد و عبد المؤمن إلى تلمسان ، وذهب عبد الملك مع أمه . سحبانة الرحمانية إلى اسطنبول ثم عاد مع القوة العثمانية التي أرسلت لتحرير تونس ، ونجح عبد الملك في أن يكون أول من يزف البشر للسلطان العثماني وحصل مقابل ذلك على موافقة السلطان على مساعدته أنظر – محمود علي عامر ، خير فارس ، تاريخ المغرب العربي الحديث، مرجع سابق ص : 50 الهامش رقم ،1 ويرى المؤرخ المجهول . تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية أن عبد الملك لما استلم السلطة بفاس بتدعيم من الأتراك سمح بالدعاء للسلطان العثماني على منابر المغرب أنظر : تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية ، مصدر سابق ص :53 وما بعدها .

[170]- هي معركة مجدتها كتب التاريخ . واعتبر الإنتصار فيها إنتصارا للمسلمين كافة وليس للمغاربة فقط لأنها قضت على الذل والمهانة ممثلا بشخص المتوكل وعلى رأس الصليبيةآنذاكسباستيان وعلى صاحب الأنفة والعزّة السلطان عبد الملك لتفاصيل أكثر و للإلمام بحيثيات هذه المعركة أسبابا ونتائج .أنظر—كتاب: وادي المخازن ، معركة الملوك الثلاث .القصر الكبير د.شوقي أبو خليل ط1 دار الفكر بدمشق .1888

[171]- عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ص : 188/187/186 نقلا عن مصادر متعددة كالفشتالي في مناهل الصفا. وابن القاضي في المنتقى المقصور . و التمجروتي في النفحة المسكية، والمقري في روض الآس ...

[172]- عمار بن خروف ، العلاقات بين الجزائر والمغرب في عهد أبناء المنصور . مجلة دراسات في العلوم الإنسانية ،جامعة الجزائر عدد 4 (2003 / 2004) ص،62

الأسر الحاكمة عليه أضعفه وجعله لقمة سائغة في يد الأطماع الخارجية (الإسبانية والبرتغالية)

– أنّ مسألة الحدود بين الجزائر و المغرب ، و الصراع المحتدم حولها صراع قديم أوجدته ظروف تاريخية وسياسية رغم اشتراك شعبي البلدين في مقومات عدّة كالدين واللغة والعادات والتقاليد .

– أنّ الصراع على السلطة سواء في الدولة الزيانية أو في من تعاقب من الأسر على حكم المغرب الأقصى هي السمة البارزة خلال القرن 10هـ/16م.

– أنّ الغزو الأيبيري للسواحل المغاربية مع نهاية القرن الخامس عشر و النصف الأول من القرن السادس عشر ميلادي كانت له دوافع متعددةدينية وسياسية واقتصادية وحتى حضارية .

– أنّه رغم الصراع السياسي (على السلطة) في المغرب الأقصى خلال القرن 10هـ/ 16م إلاّ أنه لم يخضع كلية لا إلى الإسبان و لا إلى البرتغال و لا إلى أتراك الجزائر ، و مردّ ذلك – في نظرنا –إلى أسباب و ظروف تاريخية وكذا حنكة ودهاء وبعد نظر بعض رجال السياسة في المغرب الأقصى.

– أنّ فترة القرن10هـ/16 م – في نظرنا – فترة مواتية لو اتحدت دويلات المغرب الإسلامي لاستطاعت استرجاع الأندلس أو بعضا من أجزائه .

– أنّ مكانة الفئة المثقفة كانت معدومة بسبب توجّهات رجال السياسة وطبيعة المرحلة (صراع عسكري وجمود فكري...) و هذا ما يدفعنا للتساؤل عن الواقع الثقافي آنذاك فهل فشل التقارب الثقافي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال هذا القرن كما فشل التقارب السياسي؟؟ هذا موضوع الفصول القادمة.

الفصل الثاني

الحياة الثقافية في الجزائر و المغرب خلال القرن 10 هـ / 16 م

ويتضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث هي كالآتـــــــــي:

المبحث الأول:

الحياة العلمية والأدبية فيا لجزائر أثناء العهد الزياني (نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م).

المبحث الثاني:

الحياة العلمية في الجزائر خلال القرن 10هـ/ 16م (العهد العثماني).

المبحث الثالث:

الحياة الثقافية بالمغرب الأقصى مع نهاية ق 9هـ-15م وطيلة القرن 10هـ-16م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لئن كانت الحياة السياسية هي التي تصنع الأمم والدول ،وتساهم في تطورها أو ركودها ،فإن الحياة الثقافية هي التي تمثل وعاء هذه الدولة أو هذا المجتمع ، وتصنع مجدها ، وترسي دعائم الثقة بين أفراد مجتمعاتها ، ومن هنا تولي الأمم المتحضرة اهتماما كبيرا بالجوانب الثقافية ،ومن ذلك إنشاء المؤسسات الثقافية والسهر على تطويرها ، ولعلّ أبرز ما يميز هذه المؤسسات في المغرب الإسلامي هو وجود المدارس ، والمساجد ، وحتى الزوايا التي أنشئت في ظروف متميزة ، وهذه المؤسسات حافظت بطريقة أو بأخرى على مقومات الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل ، ولعلّ الدولة الزيانية لم تكن السبّاقة في هذا المجال ، فقد حذت حذوها دويلات المغرب الأقصى المتوالية على الحكم (المرينية ،والوطاسية ،والسعدية) فكيف كانت الحياة الثقافية في هذه الكيانات السياسية ؟ وما مميزاتها ؟ وما مظاهرها ؟ وما هي العوامل المؤثرة فيها سلبا أو إيجابا ؟

المبحث الأول

الحياة العلمية والأدبية في الجزائر أثناء العهد الزياني (نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م)

إن التطورات السياسية التي سبقت الإشارة إليها في الفصل الأول (الخاصة بالدولة الزيانية) قد أثّرت أيّما تأثير على الواقع الثقافي لهذه الدولة وهو ماسنحاول إماطة اللثام عنه في هذا المبحث.غير أنه من المفيد قبل الخوض في هذا المجال،وجب أن نعرّج على مفهوم الثقافة،ثم التعرض لأهم المؤسسات التي ساهمت في رسم صورة واضحة المعالم لتطوير ثقافة الفترة الزمنية التي نحن بصدد الحديث عنها.

مفهوم الثقافة :

الثقافة من كلمةثقف،وثقف ثقفا وثقافة،صارحاذقا خفيفا وثقفه ثقفا أي ظفر به أو أدركه،ثقّف الرمح،أي قوّمه وسواه،ثقّف الولد أي هذّبه وعلمه[173].والثقافة لغة هي مصدر ثقف أي صار حاذقا خفيفا[174] والثقافة هي تقويم القوى العقلية على طريقة متوازية أي تهذيب الشخصية الإنسانية والسير بها إلى أقصى درجات الكمال الممكن[175]،وقد اختلف الدارسون في استعمال كلمة ثقافة لأن مفهوم الثقافة يخضع إلى المعتقدات الدينيةوالسياسية والمذهبية[176]وقد ذهب بعضهم إلى إعطاء مدلول الثقافة بعدا آخر متمثلا في المكاسب العقليةوالأدبية والذوقية والتكنولوجية.

وقد اعتاد الناس ألاّ يفرقوا بين العلم والثقافة،فالعلم مهما يكن نوعه والاختصاص فيه ما هو إلاّ وسيلة للثقافةوليس هو الثقافة.قد يكون الإنسان عالما في مادته ولا يكون مثقفا،فالثقافةهي أكثر تشّعبا مما يظن[177].

---

[173] – فؤاد إفرام البستاني، منجد الطلاب، دار المشرق بيروت، ط27 ،ص، 64

[174] –محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، الشركة لوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983 ، ص، 07

[175] –فؤاد إفرام البستاني، منجد الطلاب ، مرجع سابق، ص، 64

[176] – عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ج2،موفم للنشر، الجزائر، 2007 ، ص، 317

[177] –محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج ،المرجع نفسه ، ص، 07

وقد عرّف المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي*الثقافة في كتابه (الثقافة والفوضى)سنة 1869 بأنها :" محاولتنا الوصول إلى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما في الفكر الإنساني،مما يؤدي إلى رقي البشرية".

ولعل من أشهر تعاريف الثقافة تعريف تايلور القائل بأن الثقافة هي ذلك المركب الكلي الذي يشمل على المعرفة والمعتقد والفن والأدب والقانون والأخلاق والعرف والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع،ثمّ بعد ذلك طوّر تولكت بارسونز مفهوم الثقافة ليصبح نظاما من الرموز المشتركة المكتسبة بالتعليم التي تضفي على خبرة الإنسان أهمية خاصة وتزوده بإطارذي معنى يوجهه في تكييفه مع نفسه ومع الآخرين[178].

وفي آخر طبعة لمعجم الأكاديمية الفرنسية الصادرة ما بين عامي 1932م، 1934م،فقد أعطت الثقافة التعريف التالي"كلمة ثقافة تعني مجازا الجهد المبذول لتحسين العلوم والفنون، وتنمية المواهب الذهنية ومواهب الفكر و الذكاء وبشكل خاص ترادف الثقافة أحيانا كلمة الحضارة"[179] . وقد عرّفها جميل صليبا بقوله : إن الثقافة هي تلك المجموعة المعقّدة من المعارف والتقاليدوكل القابليات والتطبيقات (أنماط الأسلوب) التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع ما والتي أنشأها هذا المجتمع في عملية تطوره التاريخية،إنها طريقة حياة الناس وكل ما يملكونه ويتداولونه اجتماعيا[180].

ومهما تعددت هذه التعاريف أو اختلفت فإن الثقافة في معناها البسيط المرتبط بموضوع البحث هي ذلك الوعاء الذي يحمل عادات وتقاليد الشعبين الجزائري والمغربي،انصهرت فيه العناصر الثلاث (التعليم – مؤلفات العلماء –وظاهرة التصوف) التي انعكست كلها على سلوك المجتمع بجميع فئاته وعليه لابد من إلقاء نظرة شاملة على هذه العناصر الثلاث .

التعليم في العهد الزياني (المؤسسات العلمية و التآليف)

للتعليم أهمية كبيرة في حياة الأفراد و المجتمعات على حد سواء ، إذ بواسطته ترتقي الأمم وتتطور (ذلك أن التعليم ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية ولازمة من لوازم العقل وهو الفيصل بين الإنسان وباقي المخلوقات)[181]، ولقد أدرك المجتمع الإسلامي أهمية التعليم و القراءة منذ نزول أول آية من القرءان الكريم في

---

*أرنولد جوزيف توينبي ولد في 14 أبريل 1889 في لندن وتوفي في 22 أكتوبر 1975. أهم أعماله " دراسة للتاريخ" وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين. يُعتبرُ تُوينبي أحدثَ وأهمَّ مُؤرِّخ بحَثَ في مَسألة الحضارات بشكلٍ مُفصَّلٍ وشامِل، ولاسيَّما في موسوعته التاريخيَّة المعنونَة ''دراسة للتاريخ'' التي تتألَف من اثني عشرَ مُجلَّدًا أنفق في تأليفها واحدًا وأربعين عامًا. وهو يَرى، خِلافًا لمعظم المؤرِّخين الذين يعتبرون الأُمَم أو الدُول القوميَّة مَجالاً لدراسة التاريخ، أنَّ المجتمعات (أو الحضارات) الأكثر اتِّساعًا زمانًا ومكانًا هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخيَّة. موسوعة ويكيبيديا الحرة ، يوم : 2013/6/3 الساعة/ 09,08

[178] –محمد بن يحي ، المثقف المنزلة و الدور ، مجلة المعرفة، عدد، 347 ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1992م،ص،162

[179] –حواس محمود ، واقع الثقافة العربية في عصر العولمة، مجلة المعرفة،عدد، 521 ، وزارة الثقافة ، دمشق، 2007 ، ص، 336

[180] –جميل صاليبا ، المعجم الفلسفي ج1،دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982 ، صص،275,276

[181] – ابن خلدون عبد الرحمان ، المقدمة، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1 ،1413هـ/1992م ، ص، 460

قوله تعالى إقرأ بسم ربك الذي خلق،خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم [182]،كما أن النّبي ﷺ حثّ في أكثر من حديث على ضرورة التعلم،وطلب العلم ، وكان هو نفسه معلما إذ ورد عنه قوله ﷺ إنما بعثت معلما[183] ولما كان العلم جزءا من الدين إذّ لايمكن عبادة الله عن جهل أو تقليد،فقد اهتمت معظم الدول الإسلامية،عبر مراحل تاريخها بالعلم،وبنت الكتاتيب والمدارس للتعليم والقراءة والكتابة،فهل كانت الدولة الزيانية كذلك ؟

لقد شكّل التعليم محور النشاطات العلمية والسياسية في الدول السابقة للدولة الزيانية واستثمر في توجيه الأمة نحو بغية الساسة وصياغتها،بما يخدم طموحاتهم. وكان له الأثر البالغ في إقامة دول وإسقاط أخرى[184] .وقد ظهر نظام المدارس في تلمسان (مهد الدولة الزيانية) إبتداءا من العقد الأول من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر ميلادي وانتشرت عبر أحياء المدينة خلال هذا القرن ،وقد تأخر وجودها عن بلاد المشرق بنحوي قرنين من الزمن،وعن جارتيها افريقية و المغرب الأقصى بنحو نصف قرن[185] .

إن مدارس تلمسان خاصة، والمغرب عامة،وجدت من أجل المذهب المالكي... وأن المدارس التلمسانية كانت مدارس حكومية رسمية تابعة كلها للدولة،والتي ظلت تشرف عليها بالتمويل،وتعيين الأساتذة والمدرسيين وكان كل مدرسيها من المالكية[186].

وبالرغم من أن الحالة السياسية والاجتماعية للدولة الزيانية في أغلب فتراتها كانت متميزة بالاضطراب ، إلا أن الحالة العلمية و الفكرية كانت نشطة جدا[187] ، ومما زاد في نشاطها ظهور المؤسسات العلمية التي يمكن أن نوجزها فيما يلي :

1 -المسجد: لقد كان المسجد مؤسسة تعليمية رائدة ، ساهمت في تعليم المجتمع وتربيته و قد عمل المسجد على ترقية العلوم وتوريثها للأجيال اللاحقة ، وقد تخرج من أحضانه كبار العلماء وعدد لايحصى من الرواد المثقفين[188]، وقد تجلى دور المسجد منذ بداية رسالة الإسلام التي رفع رايتها النبي محمد ﷺ وصحابته الفاتحين الذين كانوا كلما فتحو بلدا أو مدينة إلاّ وبنوا فيها المساجد والمؤسسات التربوية، وتركوا فيها بعض الصحابة والمعلمين والفقهاء لتعليم أهلها مبادئ الإسلام واللغة العربية[189] .

---

[182] – سورة العلق الآية : 05

[183] – ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني ،السنن ، تحقيق ،محمد فؤاد عبد الباقي ،دار الفكر ج1 ،حديث رقم ،229 ، ص ،83

[184] – عبد الجليل قريان، السياسة التعليمية للدولة الزيانية(633-962هـ/1236 -1554م)، رسالة ماجستيرفي التاريخ الوسيط، إشراف الدكتورة،بوبة مجاني،جامعة منتوري ، قسنطينة، 2004/2003م ، ص، 08

[185] – عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ج2 ، مرجع سابق ، ص، 324

[186] – عبد العزيز فيلالي. نفس المرجع. ، ص. 326

[187] – محمد مشنان ، المؤسسات العلمية الثقافية في تلمسان الزيانية،مجلة رسالة المسجد، عدد، 00،جمادي الأولى1424هـ/جويلية2003م،ً56

[188] – عبد الجليل قريان، السياسة التعليمية للدولة الزيانية ، مرجع سابق ،ص، 98

[189] –عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ج2 ، مرجع سابق ، ص، 339

وتعود مكانة المسجد في الدولة الزيانية إلى من كان يشرف على المسجد من علماء أجلاّء ، بعضهم في تلمسان نفسها والبعض الآخر يعود إلى نزوح أولائك الأندلسيين إلى تلمسان بعد سقوط غرناطة ، إذ حملوا معهم علومهم وآدابهم وفنونهم ونظموا حلقات تعليم بالمدارس والمساجد،وخاصة المسجد الجامع* الذي أصبح معهدا للتدريس لا يقل أهمية عن جامع الزيتونة أو القرويين[190].

ومن بين المساجد الأخرى ، التي لعبت دورا هاما في الحياة الثقافية بتلمسان الزيانية نذكر كذلك :

– مسجد سعيد أبي الحسن الذي أُسس سنة 696هـ/1292م.

– مسجد سيدي بومدين،بني في عهد أبي الحسن المريني وأخذ اسم الولي الصالح الذي دفن بجانبه في النصف الأول من القرن الرابع عشر ميلادي – مسجد سيدي إبراهيم المصمودي،أسّسه السلطان أبوحمو موسى الثاني سنة 765هـ/1363م[191].

2 – *المدرسة* :احتوت الدولة الزيانية على مجموعة من المدارس التي بناها السلاطين الزيانيون وكذا سلاطين بني مرين لما استولوا على تلمسان[192]،ومن أبرز تلك المدارس :

– مدرسة ولديّ الإمام : بنيت في عهد السلطان أبي موسى الأول،حوالي سنة 710هـ/ 1310 م

– المدرسة التاشفينية : بناها عبد الرحمان أبو تاشفين الذي حكم ما بين 718-1318 م/ 737 هـ– 1336 م وكانت هذه المدرسة تحفة فنية رائعة وصفها المقري بأنها من بدائع الدنيا .

– المدرسة اليعقوبية : أسسها السلطان أبو حمو موسى الثاني وتم تدشينها في شهر صفر سنة 765هـ/1363 م [193]

أما عن المدارس التي أنشئت بتلمسان في العهد المريني فأبرزها مدرستين هامتين هما : مدرسة العبّاد والمدرسة الحلوية[194] . ولعل الاهتمام الكبير بتأسيس هذه المدارس في عهد الدولة الزيانية لايعود أساسا إلى أهمية العلم والتعليم فقط، بل إلى عوامل أخرى والتي من بينها ، عدم استيعاب المساجد لتلك الحشود من الطلبة وغيرهم

---

* بناه المرابطون سنة 530هـ و هو من أشهر المساجد و أكبرها إذ أنه يضاهي جامع القرويين بفاس ، و جامع الزيتونة بتونس ، و جامع الأزهر بالقاهرة . أنظر : Marcais(william)et Marcais(georges)Les monument arabes de tlemcen. Paris.1903.p,40.

[190] – محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، مرجع سابق ، ص 232 ، أنظر كذلك ، محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور ، مرجع سابق ، ص،221

[191] – محمد مشنان ، المؤسسات العلمية الثقافية في تلمسان الزيانية . مجلة رسالة المسجد ، مقال سابق ص ،60

[192] –حاصر السلطان أبو الحسن المريني تلمسان مدة سنتين ... وسقطت على يده عام 1337م ، وظلت تلمسان تحت حكم سلطان بني مرين مدة خمس وعشرين سنة (25 سنة) ، ولم ينته احتلالهم لها إلا سنة 1359م أنظر : ابن الأحمر ، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، تقديم وتحقيق : هاني سلامة . مكتبة الثقافة الدينية للنشر و التوزيع ط 1 2001م ،ص: 30.

[193] – محمد مشنان ، المؤسسات العلمية والثقافية في تلمسان الزيانية ، مقال سابق ص: 67.

[194] – عبد الجليل قربان ، السياسة التعليمية للدولة الزيانية ، مرجع سابق، ص، 99 ، الهامش رقم : 2 .

من عامة الناس ، أضف إلى ذلك حرص معظم سلاطين الدولة الزيانية على الظهور بمظاهر الاعتناء والحرص على العلم ،حتى تكون لهم السمعة الطيبة لدى العلماء والعامة من الناس[195] .

3-الزاوية وأهميتها: كلمة زاوية من الفعل إنزوى بمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد كما يطلق على الزوايا لفظ خوانق و هي جمع خانكاه ، كلمة فارسية تعني بيت . و الزاوية اصطلاحا هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين و إطعام المحتاجين من القاصدين حسب تعريف ابن مرزوق الخطيب (ت.781هـ/1319م) في كتابه ، المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن[196]

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن الزاوية : يطلق هذا اللفظ في شمال إفريقيا على مجموعة من الأبنية ذات طابع ديني،غرفة للصلاة،ضريح لأحد المرابطين،أوولي من الأشراف تعلوه قبة غرفة قصرت على تلاوة القرآن،مدرسة لتحفيظ القرآن،غرفة مخصصة لضيوف الزاوية والحجاج والمسافرين وغرفة للطلبة،ويلحق بالزاوية عادة مقبرة تشمل قبور أولائك الذين أوصوا في حياتهم أن يدفنوا بها[197]

وفي المغرب الأوسط وفي ظل الدولة الزيانية تكونت مجموعة من الزوايا منها زاوية العبّاد بظاهر تلمسان وزاوية سيدي أبي الحسن التي شيّدها السلطان أبو سعيد عثمان الزياني،وزاوية الحلوي بجانب مسجد الشيخ الحلوي، وزاوية أبي زيد عبد الرحمان بن علي ، و زاوية السنوسي بتلمسان[198] إنّ تعدد الزوايا و انتشارها بشكل واسع إبّان فترة الدولة الزيانية يجعلنا نتساءل عن وظيفة هذه الزوايا فهل كانت وظيفتها تعليمية محضة أم أن دورها تجاوز ذلك ؟

من خلال اطلاعنا على بعض المصادر و المراجع لا حظنا أن للزاوية-آنذاك – دورين أساسيين:

أ- دور تعليمي :ويتمثل في نشر التعليم (تحفيظ القرآن الكريم) وقراءة الكتب المتعلقة بسيرة النبي ﷺ والاهتمام بأخلاق الصالحين وأخبارهم،والاعتناء الكبير بأنواع ذكرالله عزّوجلّ من التهليل والتسبيح والتقديس... وفي هذه المرحلة يلاحظ تعايش الفقهاء مع المتصوفة[199]

غير أنه وفي فترة القرن التاسع هجري/ الخامس عشر ميلادي انحرفت الزاوية عن التصوف السني وانساقت نحو التصوف العملي المنحرف بعد أن هجرها الفقهاءوالعلماء الذين عايشوها من قبل.وتركت فريسة للاعتقادات والعوائد الغريبة عن الدين والتي أصبحت فيما بعد عقيدة في حد ذاتها لايمكن الخروج عنها[200] إنّ الالتفاف

---

[195] – نفسه، ص100، نقلا عن محمد قمبر ،دراسات تراثية في التربية الإسلامية ، دار الثقافة ،الدوحة ، 1405 هـ/ 1985 ص: 52

[196] – موقع : مركز القاسمي للدراسات و الأبحاث الصوفية " الثلاثاء 16 آفريل 2013 الساعة 17:22" د . أنظر كذلك :

– موقع دعوة الحق ، العدد 401 سنة 2011، مقال الأستاذ عبد الجواد السقاط ، الزاوية المغربية في العصر السعدي

[197] –مركز القاسمي للدراسات والأبحاث الصوفية ، موقع سابق نفس التاريخ و الزمن .

[198] –عبد الجليل قريان ، السياسة التعليمية للدولة الزيانية ، مرجع سابق صص : 118 ،119 . ولمزيد من المعلومات عن الزوايا ، أنضر المصادر التالية : محمدبن مرزوق التلمساني المالكي المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن أبي الحسن– الونشريسي، المعيار ج 7

[199] –عبد الجليل قريان ، المرجع السابق، ص، 120، 121 ،122

[200] –عبد الجليل قريان ، المرجع السابقنفسه ص: 133 .

حول زاوية هذا الشيخ أو ضريحه،والمبالغة في الاعتقاد في الشيخ و ابتداع الحضرة والأوراد وغيرها.كل هذه الأمور أغلبها وليدة القرن التاسع وما بعده[201] .ولقد أدّت المبالغة في الاعتقاد في الشيخ وانتشار الزوايا والأضرحة الى نتيجتين خطيرتين: أولهما تبسيط المعرفة و ثانيهما غلق باب الاجتهاد ذلك أنّ نقل التعليم إلى الزوايا قد أدّى إلى الاكتفاء بالحد الأدنى منه بطريقة جافة ريفية ضيقة ، و أصبحت الزاوية بذلك تنافس المدرسة و الجامع في نشر التعليم و كسب الأنصار ، و بدل أن يلتف الناس حول العلماء المتنورين في المدارس و المساجد أصبحوا يلتفون في زاوية حول شيخ أو مقدم تغلب على عقله الخرافة وعلى أحواله الزهد[202] وقد ازداد و تفاقم تأثير الزوايا في المجتمع الجزائري خلال القرن العاشر هجري/ السادس عشر الميلادي.خاصة مع تطور ظاهرة التصوف وهو ما سنراه في المبحث الثاني من هذا الفصل

ب– الدور الاجتماعي للزاوية:اهتمت الزاوية بالإطعام والإسكان،كما كانت موئلا ومقاما حسنا للمحتاجين والواردين عليها إذ توفر لهم العيش في كنفها وفي أحضانها على مدار السنة... وساهمت هذه الوظيفة في استجلاب أعداد وفيرة من الناس وإدخالهم في حظيرتها وفي طريقتها وفيها يقول الشاعر

هـــــذا محل الفضل والإيثار والرفـــــــق بالسكان والزوار

دار على الإحسان شيّدت والتقى فجزاؤها الحسنـــى وعقب الدار

هـــــي ملجأ للواردين و مورد لابن السبيل و كـل راكب ساري[203]

4 – التأليف:لا شكّ أن التأليف هو مرآة عاكسة لروح العصر و مميزاته،و قد ظهر في عهد الدولة الزيانية عدد هائل من العلماء تركوا تراثا علميا كبيرا توارثته الأجيال طيلة قرون متتالية[204].لقد أصبحت تلمسان ثقافيا تتغذى من رافدين هامين رافد المشرق،ورافد الأندلس فضلاعن الجهاز العلمي والثقافي المحلي والمغربي فنتج عن ذلك تكوين كوكبة من الأساتذة و العلماء ، تميّزوا بغزارة التحصيل و عمق التفكير حتى أصبحوا حجة في الفقه و التفسير،وعلم الأصول والنحو والأدب، والتاريخ وعلوم عقلية أخرى[205]. خاصة في القرن التاسع هجري/ الخامس عشر ميلادي،وهكذا يعتبر إنتاج القرن التاسع هجري/ الخامس عشر ميلادي من أوفر إنتاج الجزائر الثقافي ومن أخصب عهودها بأسماء المثقفين(أو العلماء) والمؤلفات المصنفة في كل ميادين المعارف (وفي إحصاء سريع أجريته لأسماء العلماء المنتجين خلال القرن التاسع والعاشروالحادي عشروالثاني عشر(هجري)وجدت أنّ عددهم في القرن التاسع يفوق أعدادهم في القرون الباقية متفرقة ... وكثير من إنتاج

---

[201]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ، دار المعرفة . الجزائر. طبعة خاصة 2011 ص، 48

[202]– سعد الله أبو القاسم ، المرجع السابق ، ص، 48

[203]– عبد الجليل قريان ، السياسة التعليمية للدولة الزيانية ، مرجع سابق صص: 148-149

[204]– محمد مشنان ، المؤسسات العلمية الثقافية في تلمسان الزيانية ، مقال سابق ص، 56

[205]– عبدالعزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ج2 ، مرجع سابق ص: 328

القرن التاسع ظلّ موضع عناية علماء القرون اللاحقة و التعليق عليه وتقليده)[206]. ومن أبرز ملامح حركة التأليف بتلمسان الزيانية نذكر ما يلي :

5 –التفسير : لا شك أن التفسير مرتبط بآيات الذكر الحكيم (القرآن) الذي تعتبر آياته في كثير من الأحيان مادة خام تحتاج إلى تفسيروتأويل و تلك مهمة العلماء المفسرين و من بينهم أحمد بن عبد الرحمان الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني* الذي ألّف كثيرا في هذا الميدان و منها سورة الفاتحة ... و من بين المفسرين التلمسانيين محمد بن أحمد بن مرزوق** الذي قام بتفسير القرآن لتلامذته خلال دروسه[207]

6–الأدب: يعتبر الأدب من أبرز الفنون التي عرفتها تلمسان الزيانية ...ذلك أنّ الحروب التي عاشتها الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة أثّرت على الحياة الأدبية ، إذ أننا نجد بروز الشعر الشعبي الذي خلّد بعض الأحداث كاحتلال الأسبان لوهران و المرسى الكبير ، والتنبؤ بسقوط تلك المراكز تحت ظل الاحتلال الإسباني و من أهم تلك الكتابات التي مزجت بين الأدب و التاريخ نذكر مؤلفين هامين هما :

–نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان و ذكر ملوكهم الأعيان، لمحمد بن عبد الله التنسي***

–بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحي بن خلدون**** اللذان فاق فيهما القسم الأدبي القسم التاريخي المحض من شعر و نثر[208] .

7 –العلوم الدينية: اهتم علماء الدولة الزيانية بالعلوم الدينية اهتماما كبيرا خاصة خلال القرن التاسع هجري/ الخامس عشر ميلادي.ومن البديهي في عصر تميز بتأثير الدين على الحياة الفكرية كلها أن يوجه العلماء جلّ اهتمامهم للعلوم الدينية وفي مقدمتها الفقه.إذ أن من أبرز علماء تلمسان في هذا الميدان(ميدان الفقه) أبو العباس الونشريسي[209] الذي كان ابن الغازي يعترف له بالتفوق في الفقهيات،وقد مرّ يوما في

---

[206]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ، مرجع سابق ص،39

*المتوفى سنة 845هـ / 1441م . اهتم بالتفسير،والحديث،و الأصول،و الفرائض، و المنطق،و قد كانت له قدم راسخة في التصوف أنظر: ابن مريم (البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان) مصدر سابق ص،42

**المتوفى سنة 842هـ/ 1438م إهتم بالتفسيرونعت بالفقيه و الأصولي و المجتهد و المفسر و المحدث و كذلك النحوي و اللغوي والبياني و العروضي،أحمد بابا التنبكتي،نيل الابتهاج ،ص 305؛ محمود آغا بوعياد، ، مرجع سابق ، ص6.

[207]– مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ج2 . الأحوال الاقتصادية والثقافية ، منشورات دار الحضارة . 2009 ،ص: 209-201

***المتوفى سنة 889هـ/1494م أديب و مؤرخ ومحدّث و فقيه و قد عرف بالحافظ التنسي اشتهر بكتابه (نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان) و قد احتل مكانة مرموقة بين معاصريه أنظر عنه،محمود آغا بوعياد،محمد التنسي مؤرخ بني زيان، مجلة الثقافة، عدد،44 ،افريل– ماي ، 1978، ص، 71 ، 84

****(نحو 1333 م– 1378م) أخو عبد الرحمان بن خلدون ، كاتب الإنشاء على أيام أبي حمو سلطان تلمسان ، قتل حسدا ، له بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، و فيه تاريخ تلمسان و ما إليها . أنظر: المنجد في الأعلام ط2، دار المشرقيروت، ص،206

[208] – محمود آغا بوعياد ،جوانب من الحياة في المغرب الوسط ق 9 هـ / 15م ، منشورات ثالة، ، الجزائر ، ط2 2011، ص: 65

[209] – هو أحمد بن يحي بن محمد الونشريسي ، ولد سنة 834هـ/ 1428م و قعت له فتنة مع سكان تلمسان (السلطان محمد بن أبي ثابت المعروف بالمتوكل) الذي غضب منه سنة 874هـ(و لا ندري ما سب هذا الغضب) حسب سعد الله أبو القاسم ،تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ، مرجع سابق، ص،124، و قد كان الونشريسي متمكنا من الفقه و النحو و البيان ... فرّ الى المغرب سنة 874هـ، واستوطن مدينة فاس و تولى

مجلسه بالقرويين فقال لمن حوله من الفقهاء لو أنّ رجلا حلف بطلاق زوجته إذ أنّ أبا العباس الونشريسي أحاط بمذهب مالك أصوله و فروعه لكان بارا في يمينه، ولا تطلق عليه زوجته[210] .

و هناك مجال آخر حضي بالتأليف ونال حضه من اهتمامات العلماء خلال مرحلة حياة الدولة الزيانيةونعني به كتب النوازل* التي لا تحتوي على نصوص الفقه النظرية ،فحسب بل تحتوي على قيمة تاريخية أساسية...ففي هذه النوازل يعالج الفقهاء المشاكل و يقدمون الحلول[211]، ولعلّ أبرز ما كتب في هذا المجال ذلك الذي جمع عشرات النوازل الفقهية إذ يعتبر ديوان الدرر المكنونة في نوازل مازونة من الكتب التراثية ذات الاتجاه الشرعي التي تعالج موضوعا واحدا هو الفتاوى والمسائل الفقهية الخاصة ببلاد المغرب الإسلامي في أواخر العهد الوسيط[212].

ومن العلوم الدينية التي كانت تدرّس ويؤلف فيها وتحظى بمكانة هامة خاصة خلال القرن التاسع هجري/ الخامس عشر ميلادي علم التصوف باعتباره ظاهرة أثّرت على ذهنية الفرد و المجتمع طيلة فترة زمنية طويلة وما دمنا نتحدث عن التأليف ففي باب التصوف وجب أن نشير إلى تلك القصيدة التي كان يتباهى بحفظها وترديدها عدد كبيرمن الطلبة والمريدين،والتي تضمنت مدح النبي صلى الله عليه و سلم والتي نظمها شرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجي المعروف بالبوصيري *والمعروفة بالبردة و عنوانها الكامل، الكواكب الدرية في مدح خير البرية[213]

ومن بين التآليف الأخرى في مجال التصوف حكم ابن عطاء الله وهي حكم منشورة من تصنيف تاج الدين أحمد بن محمد الإسكندري المعروف بابن عطاء الله الشاذلي**[214]

كما أننا نجد تآليف أخرى حاولت المزج بين الجانب الديني (التعبدي)، وجانب المعاملات ذلك أنّ سلوكات الأفراد كان يغلب عليها في أحايين كثيرة حبّ الدنيا، والتي لم يراع فيها أصحابها مصالح الغير واضعين نصب

التدريس الى أن توفي سنة 914هـ/ 1509م .أنظر : محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي ،مطبوعات دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر ،ط2 ، الرباط ، 1977 ، صص ، 47 ، 48 . كذلك : ابن مريم ، البستان ..مصدر سابق ، صص ، 80، 81

[210]–محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، مصدر سابق ص: 47

*النوازل جمع "نازلة"، والنازلة اسم فاعل من "نزل ينزل"، إذا حلّ، ومن ذلك القنوت في النوازل أنظر :" لسان العرب"، 656/11، مادة: (نزل) **وأما في الاصطلاح**: فقد شاع واشتهر عند الفقهاء إطلاق النازلة على المسألة الواقعة الجديدة التي تتطلَّب اجتهادًا، قال ابن عبد البر: "باب اجتهاد الرأي على الأصول عند عدم النصوص في حين نزول النازلة

[211]– نور الدين غرداوي : كتب الفتاوى مصدرا لكتابة التاريخ الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي للمغرب الأوسط ، نوازل المازوني نموذجا . مجلة الدراسات التاريخية ، جامعة الجزائر 2 العدد 14. 2012 ص، 97 .

[212]– نور الدين غرداوي ، مقال سابق ، ص، 97 .

*البوصيري ، توفي سنة ، 696هـ / 1296م

[213]– محمود آغا بوعياد ، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط ، مرجع سابق ص: 72 .

**ابن عطاء الله الشاذلي ، توفي سنة ، 709هـ / 1309م و قد بلغ هذا الكتاب شهرة واسعة في الأوساط الصوفية بالمغرب

[214]– ابن عطاء الله الشاذلي نفس المصدر. ص: 72.

أعينهم تحقيق أكبر قدر من الربح والوصول الى مراتب اجتماعية تجعلهم من بين أغنى الناس وفي هذا الإطار كتب محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر وهو كتاب فريد من نوعه ألّفه استجابة لرغبة أبداها أحد المهتمين برعاية الصالح العام وتغيير المناكر،وبموقف الشريعة من البدع التي شاعت و بطرق معالجتها[215]

إن التأليف (وفق ما رأيناه سابقا) هو تعبير صحيح و صادق عن ثقافة المجتمع ورصد لعلوم العصر بكل ما تحتويه من كثرة أو قلة وضعف،أوقوة وتقليد أو اجتهاد [216].

اهتمام السلاطين بالعلم و العلماء

من خلال تتبعنا لمراحل الدولة الزيانية خاصة في فترات قوّتها بدت لنا جليا أهمية ودور السلاطين في بعث الحياة الثقافية خاصة اهتمامهم بالعلم والعلماء إذ يعتبر السلطان يغمراسن أوّل من دشّن تشجيع الحركة الفكرية والتعليمية بتلمسان ورغّب رجال العلم في القدوم إلى عاصمته، وأغدق عليهم الأموال والهدايا والجرايات وأعلى منزلتهم وشجعهم على التدريس والتأليف[217]. وكان يجالسهم ويكثر من زيارتهم[218]وكانت له رغبة عالية في أهل العلم يبحث عليهم أين ماكانوا ويستقدمهم إلى بلده و يقابلهم بما هم أهله[219].ومن أكبر الأدلة على رغبة هذا السلطان في العلماء والبحث عنهم والعمل على استقدامهم إليه وتوفير الرعاية التامة لهم هو قصته مع العالم الكبير أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي*وهذا الاهتمام البالغ بجمع العلماء ورعاية مصالحهم قد هيّأ السلاطين من بعده لاقتفاء أثره والسير على سنته وهو ما كان عليه إبنه السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن حيث احتفظ بما كان من رجال العلم في بلاط أبيه[220].

---

[215]– محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور ، مرجع سابق ص: 222 223 .

[216]– عبد الجليل قريان ، السياسة التعليمية للدولة الزيانية ، مرجع سابق ص: 214 ، وللإلمام أكثر بحركة التأليف ، خلال فترة حياة الدولة الزيانية، أنظر الجداول والإحصائيات التي توصل إليها نفس المؤلف (عبد الجليل قريان) في دراسته القيمة للسياسة التعليمية للدولة الزيانية منذ النصف الأول من قرن 8هـ / 14 م إلى غاية النصف الثاني من ق 9 هـ/ 15م في الصفحات : 219 الى غاية 242

[217]– عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، مرجع سابق ص: 321 .

[218]– مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ج2، مرجع سابق ص: 268 أنظر كذلك : محمد مشنان ، المؤسسات العلمية الثقافية في تلمسان الزيانية مرجع سابق صص: 57/56 .

[219]– عبد الجليل قريان ، السياسة التعليمية للدولة الزيانية ، مرجع سابق ص: 42 ، نقلا عن التنسي ، نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان ص،126

*أبو اسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي المطماطي ، من كبار العلماء و الفقهاء في أقطار المغرب الإسلامي ، وهو من مدينة تنس ، استقدمه يغمراسن للتدريس في تلمسان فاستوطنها و توفي بها سنة 680هـ/ 1281م أنظر عنه : يحي بن خلدون ، بغية الرواد ج1 ، ص ، 144 ، التنبكتي ، ليل الابتهاج ، ص،38 ، ابن مريم ، البستان ، 66

[220]– عبد الجليل قريان ، السياسة التعليمية للدولة الزيانية، مرجع سابق ، ص،43

أما السلطان أبو حمو موسى الأول فقد جعل مدينة تلمسان منارة للعلم يقصدها العلماء و أهل الفكر نذكر منهم الفقيهين الكبيرين ابني الإمام أبي زيدوأبي موسى اللذين قرّبهما إليه وكان يكثر من مجالستهما والاستماع إلى نصائحهما و علمهما الغزير واختصّهما بالفتوى والشورى[221] .

وهكذا دأب سلاطين الدولة الزيانية الأقوياءعلى حب العلم والعلماءحتى برع بعضهم في كتابة الشعر وغيره... فهذا السلطان أبو حمو الثاني كان عالما يقرض الشعر ويحب أهله ... ولم يقتصر إنتاجه الفكري على الشعر فحسب بل ألّف كتابا في إدارة الشؤون السياسية لابنه وولي عهده أبي تاشفين أسماه واسطة السلوك في سياسة الملوك**[222] .

لقد كان أبا حمو الثاني قمّة السلاطين في تحصيل العلم والتأليف فيه مما بوّأه مكانة كبيرة بين سلاطين العالم وكانت مرحلته من أزهى مراحل الدولة الزيانية في العلوم و المعارف[223] .

غير أن مسألة اهتمام السلاطين بالعلماء لم يكن من قبيل الصدفة – في نظرنا- بل كانت له أسباب وخلفيات و أهداف إذ أنه بعد تتبعنا لحياة كثير من سلاطين الدولة الزيانية تبين لنا أن الغاية من اهتمام هؤلاء السلاطين بالعلماء ربما حبهم للعلم خاصة،وأن الوازع الديني كان له أثر كبير في نفسية العديد منهم وحب العلم يؤدي حتما إلى حب العلماء، غير أن هناك أهداف أخرى يمكن إيجازها مسائل ثلاث

أولها:الاستعانة بهم في تسيير شؤون الدولة ومن أمثلة ذلك أنه لما علم السلطان أبوحمو موسى أن للآبلي دراية بعلم الحساب طلب منه أن يشتغل بأمر الحساب وضبط أموال الدولة فتفادى الشيخ من هذا الوظيف ولكن السلطان ألحّ عليه ثم أكرهه ففرّ إلى فاس في حدود سنة 710هـ/ 1310 م وبهذه المدينة انتشر ذكره و ذاع صيته و صار يدعى بعالم الدنيا ... ومن أشهر تلاميذه عبد الرحمان بن خلدون وأخوه يحي بن خلدون و ابن مرزوق الجد والشريف التلمساني[224]

ثانيها: نفوذ العلماء ذلك أن التأثير في الأفراد و الجماعات لا يكون إلا بواسطة العلم مصداقا لقوله تعالى : يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات* وقد أدرك كثير من سلاطين الدولة الزيانية ما لهؤلاء العلماء من مكانة عند عامة الناس وخاصتهم فسعوا إلى كسب ودهم والتودد إليهم كي يحافظ هؤلاء السلاطين على مكانتهم عند الرعية ذلك أن لكلمات العلماء عند الملوك وقع كبير[225]

---

[221]– عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، مرجع سابق، ص، 321، 322

**الكتاب عبارة عن نصائح سياسية و أخلاقية و تنظيمية أنظر عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني،مرجع سابق، ص، 323

[222]– عبد الجليل قريان ، السياسة التعليمية للدولة الزيانية، مرجع سابق ، صص، 34، 35

[223]– عبد الجليل قريان ، نفس المرجع ، ص 37

[224]– محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، مرجع سابق ، صص، 217، 218،يراجع كذلك: الجداول التي تبين مدى اعتماد السلاطين على الفقهاء و العلماء في أهم الوظائف آنذاك – عبد الجليل قريان ، نفس المرجع. الصفحات ، 48، 49، 50 ، 51

* سورة المجادلة آية ، 11

[225]– عبد الجليل قريان ، ، مرجع سابق ، صص، 54 ، 55 ، 56

ثالثا:تباهي السلاطين بالعلماء ،لقد كان ثمة تنافسا شديدا بين سلاطين المغرب الإسلامي في جمع العلماء فبالإضافة إلى مكانتهم ونفوذهم الروحي عند العامة والخاصة من الناس فقد كانوا محل فخر واعتزاز وتباه بين السلاطين[226]

إن (الذهنية الإسلامية) وتعاليم الدين الإسلامي كانت تدعوا دائما إلى تبجيل العلماء و ضرورة إتباع نهجهم باعتبارهم و رثة الأنبياء أولا وأصحاب فضل ثانيا ، طبقا لقوله تعالى (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ** وقدكان أبا حمو الأول كعادة سلاطين المغرب حريصا على التقرب من العلماء وضمهم إلى بلاطه ومن أمثلة ذلك تقربه من ابني الإمام وبني لهما مدرسة تحت إشرافهما[227] وفي نظرنا أن هذه المكانة التي تبوأها العلماء لدى بعض سلاطين الدولة الزيانية و إن كان ظاهرها هو حب العلم و العلماء إلا أن باطنها يدل دلالة قطعية على دهاء و بعد نظر هؤلاء السلاطين الذين أدركوا أن الواسطة بينهم و بين عامة الشعب هم العلماء الذين وجب استغلالهم لتمرير رسائل عدة إلى الرعيةخاصة و أن كلمة العالم دائما تكون مسموعة أو على الأقل لا تلقى معارضة علنية (خاصة علماء الدين) و من ثمة ضمنوا (السلاطين) استقرار وهدوء الرعيةوتجنبوا الاصطدام معهم إذ أن كثيرا من علماء الدين كانوا يهدفون بشتى الطرق إلى تفادي الفتنة داخل المجتمع لأن الفتنة أشد من القتل و هنا حق لنا أن نتساءل عن نوعية واتجاهات هؤلاء العلماء؟

إن معظم الدراسات التي تناولت علاقة العلماء(مهما كانت اتجاهاتهم) بالسلاطين في ربوع العالم الإسلامي قد قسّمتهم إلى فئات (مجموعات) ثلاث

علماء السلطة و هم الذين يسيرون في فلكها

علماء مستقلون تخشى الدولة من نفوذهم

علماء انعزاليون لا علاقة لهم بما يجري في الحياة[228] .

---

[226]– عبد الجليل قريان. نفس المرجع . ص، 57

**سورة الزمر، الآية 09

[227]– عبد الجليل قريان .نفس المرجع ، ص ، 57

[228]–عبد الجليل قريان ، المرجع نفسه، ص ، 59

المبحث الثاني: الحياة العلمية في الجزائر خلال القرن 10هـ/16م (العهد العثماني)

رأينافي المبحث السابق أن الحالة العلمية والفكرية كانت نشطة خلال فترة الدولة الزيانية،رغم الاضطرابات السياسية الكثيرة التي عرفتها هذه الدولة في مختلف مراحلها .

ومع مطلع القرن 10هـ/16م ونتيجة للتحولات السياسية التي عرفتها الدولة الزيانية والحوض الغربي للبحر المتوسط ككل ، فإن الوضع الثقافي و الحالة العلمية بصفة عامة ستشهد وضعا متميزا. ذلك أن الإرتباط الوثيق بين السياسةوالثقافة هو الذي يجعلنا نتساءل عن الوضع الذي آلت إليه الحياة العلمية و الثقافية آنذاك ، فمع تزايد الأطماع المسيحية(الإسبانية منها على وجه الخصوص) في سواحل بلدان المغرب الإسلامي من جهة ،وظهور الأتراك على مسرح الأحداث في حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى ناهيك عن ضعف سلاطين الدولة الزيانية،كل هذه المستجدات ألغت بضلالها على الوضع الثقافي الذي أصبح يشهد نوعا من الجمود استمر طيلة القرن 10هـ/16م ، فما هي مميزات الحياة العلمية في الجزائر أثناء فترة القرن الأول للتواجد العثماني؟إن جل المؤرخين(جزائريين و أجانب)الذين كتبوا عن هذه الفترة ووصفوها ببداية عصر الانحطاط الثقافي[229] .رغم أن هذا الانحطاط كان قد بدأ ينخر جسم العالم الإسلامي منذ فترة طويلة، ذلك أن ظاهرة الجمود كانت عامة[230] .

من خلال إطلاعنا على بعض المصادر والمراجع اتضحت لنا عوامل كثيرة ومتعددة ساهمت إلى حد كبير في رسم ملامح الوضع العام للجزائر (خاصة الجانب الثقافي منه) وهوما جعل سلوكات المجتمع الجزائري وتفكيره تكاد تكون واحدة،ألا وهي الجمود والتحجر و الخوف (إلى حد ما) من هذا الواقع الذي ميّز فترة القرن 10هـ/16م .

العوامل المؤثرة في الواقع الثقافي :

1-الهجرة الأندلسية:والتي كانت نحو سواحل المغرب الإسلامي عموما،والمغرب الأوسط خصوصا،ذلك أن هؤلاءالمهاجرين[231]أوالمهجّرين بصفة أدق،قد ذاقوا الأمرين من محاكم التفتيش[232]، إذ أن الآلاف منهم رووا ما وقع من إذلال وتعذيب،هذه المأساة لم تبدأ بسقوط غرناطة يوم 2 محرم897هـ/25 نوفمبر1492م،وإنما يوم

---

[229]- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 19

[230]- أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص، 19

[231]- حول عوامل ودوافع و نتائج هذه الهجرة أنظر الرسالة القيّمة للدكتور عبد المجيد قدور ،هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط (الجزائر) خلال القرن 16/ 17م و نتائجها الحضارية،رسالة ما جستير في التاريخ الحديث ،جامعة الأميرعبد القادر- قسنطينة- بتاريخ25 جوان 1994

[232]-إن محاكم التفتيش التي أقيمت بطلب من الملكين الكاثوليكيين، إيزابيلا و فرديناند،و محكمة التفتيش بإسبانيا أقيمت بمباركة البابا(ألكسندر السادس) و بموجبها يعود مصير كل المسلمين و اليهود تحت رحمة الرقابة الصارمة الدينية ... و لم تتردد هذه المحكمة في حرق العباد أحياءا و كذلك الكتب العربية الإسلامية بما فيها القرآن الكريم في الساحات العامة ، أنظر تفاصيل ما حدث لهؤلاء الموريسكيين من طرف محاكم التفتيش : عبد الله حمادي ، الموريسكيون و محاكم التفتيش في الأندلس ، المؤسسة الوطنية للكتاب و الدار التونسية للنشر ، 1994

استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على إمارة طليطلة سنة 478هـ/1085م نتيجة خيانة أميرها عبد القادر بن ذي النون،ولم يقتصر الأمر على سقوط طليطلة،بل سقطت معها توابعها[233].

إن مأساة الموريسكيين هذه جعلت العديد من أفراد المجتمع الجزائري، خاصة الفئة المثقفة تنظر الى الحياة ككل على أنها محطة زائلة، و أن نعيمها سراب ونعمة لا تدوم ، فالأفضل و الأسلم الاشتغال بالعبادة والنظر في حال المأكل وقلة مخالطة الناس لأن الزمن فسد[234].

2- الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية : كنا قد تناولنا هذه الجزئية في الفصل الأوّل وما يهمنا هنا هو ذلك التخاذل الذي بدا على المقاومة الجزائرية التي لم يستطع ملوكها رد تلك الهجمات خاصة بعد الاستيلاء على المراكز الساحلية مثل المرسى الكبير 1505م ،وهران 1509م، و مستغانم 1511م وتلمسان 1512م ،وتنس 1509م، و بجاية 1510م و الجزائر 1511م ،و عنابة 1512م[235].

أضف إلى ذلك الفوضى والتطاحن بين مختلف القبائل[236] .هذا الوضع جعل العديد من أفراد المجتمع الجزائري آنذاك يدرك ألاّ قيمة لهذه الحياة وأن النهاية قد قربت، ولا بد من الاستعداد إلى يوم الرحيل خاصة جرّاء ما تعرضت له المراكز الثقافية من دمار وتخريب،وما تعرض له العلماء والطلبة من قتل وأسر وتهجير[237] .

3- التواجد العثماني بالجزائر :وهو العامل الأهم(في نظرنا) المؤثر في الحياة الثقافية بصفة عامة وسلوكات الجزائريين بصفة خاصة،ذلك أن (حكام الجزائر من الأتراك أومن الأعلاج المتتركين كانوا في معظم الأحيان جهلةلايعرفون حتى القراءة والكتابة...وكانوا يحكمون الجزائريين بيدمن حديدويسلبونهم أموالهم وثرواتهم عن طريق الضرائب ... كماكانوا جفاة غلاظا امتاز عهدهم بالعنف الدموي وقصر فتراتهم في الحكم والفوضى،وانتشار الرشوة والظلم و الفساد)[238]، هذه العوامل الثلاث (في نظرنا) هي التي جعلت الوضع الثقافي في الجزائر طيلة القرن 10هـ/16م وضعا سلبيا (أي الانغلاق على الذات) خاصة بالنسبة لفئة كبيرة من علماء الدين وبذلك كان فقهاء الجزائر الذين عاشوا في القرن الأول من العهد العثماني يرددون أقوال

---

[233]- حنيفي هلايلي ، أبحاث و دراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، 2010، ص ، 105

[234]- صباح بعارسية، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر هجري ، السادس عشر ميلادي ، رسالة ما جستير في التاريخ الحديث ،إشراف الدكتور عمار بن خروف جامعة الجزائر، السنة الجامعية، 2005 / 2006 ،ص، 29 ، نقلا عن الونشريسي ، المعيار المعرب ، ج 11 ، ص ، 299

[235]- حنيفي هلايلي ، أبحاث و دراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي ،مرجع سابق ، ص ، 19

[236]- محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلىالاحتلال الفرنسي ، ط2 مكتبة الشرق ، بيروت ، 1979 ، ص ، 16 ،كذلك : Primaudie(e.de.la) document inédits sur l'histoire… R.A n 20 . 1876. P73

[237]- صباح بعارسية، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن 10هـ/ 16م ، مرجع سابق ص، 29

[238]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، مرجع سابق ،ص، 15 ، يرى القارئ أن الأستاذ سعد الله كان قاسيا في تقييمه للتواجد العثماني بالجزائر ، و لكي نكون موضوعيين يجب أن نشير هنا إلى بقية رأيه و تقييمه للتواجد العثماني في الجزائر بقوله : أما الجانب المضيء منه (من العهد العثماني بالجزائر) فهو أن العثمانيين أنقذوا بتدخلهم المغرب الإسلامي من الاحتلال الأجنبي المؤكد ، و تحالفوا مع الجزائريين لصد العدوان الصليبي ، وحماية الثغور ، وإقامة حكم إسلامي ثابت و قوي ظلّ طيلة ثلاثة قرون شوكة في حلق العدو، نفس المرجع والصفحة

المتقدمين و يحفظونها حفظا سطحا لا عقل فيه ولا تفكير ... يتظاهرون بالحفظ وقوة الحافظة،وكل العلم عندهم ما حواه القطمير[239].

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن هناك فئات عديدة من المجتمع الجزائري كانت تؤيد تدخل وبقاء العثمانيين في الجزائر ،ذلك أن آل عثمان هم الذين هيأهم القدر والعناية الإلاهية لحكم المسلمين وأن المتردد عليهم سيقع لا محالة فريسة في أيدي المسيحيين[240].

العثمانيون وعلماء الجزائر

إن معظم كتب التاريخ تبدأ تاريخ الجزائر العثماني سنة 920هـ/1516م ، غير أن الدراسات الحديثة تؤكد أن الوجود العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط يعود إلى أواخر القرن التاسع هجري/الخامس عشر ميلادي[241]،عندما كان الخطر المسيحي يخيم على سواحل المغرب الإسلامي فبرزت عندئذ مجموعة من المرابطين* جعلوا زواياهم ملجأ لمجاهدي البحر والبحارة العثمانيين[242] وعندئذ تحالف المرابطون والعلماء مع العثمانيين لرد الخطر المسيحي فكانت الانتصارات التي حققها البحارة العثمانيون هي التي دفعت سكان مدينة الجزائر الى طلب النجدة منهم،وحسب رواية عبد الرحمان التلمساني فإن السكان هم من راسل الإخوة بربروس بجيجل برسالة جاء فيها(أخذتم بجاية وجيجل من أيدي النصارى ،ونصرتم الدين فهنيئا لكم أيها المجاهدون،ولا بدّ أن تقدموا إلينا لتخلصونا من أيدي هؤلاء الملاعين الكفرة، لأننا في محنة عظيمة و ذل شديد)[243].

---

[239]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج2 ،عالم المعرفة ، الجزائر ، طبعة خاصة ، 2011 ، ص، 10

[240]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 17

*سنعود بعد حين للحديث عن المرابطين في الصفحات المقبلة

[241]–سعد الله أبو القاسم ، نفس المرجع ، ص ، 137

[242]– صادوق محمد الحاج ، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1964 ، ص ، 101

[243]– رشيدة شدري معمر،العلماء و السلطة العثمانية في الجزائر – فترة الدايات – 1671 – 1830،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ،جامعة الجزائر ، ، إشراف د. فلة موساوي القشاعي ، 2005 / 2006 ص، 13 ، نقلا عن ، التلمساني محمد بن عبد الرحمان ، الزهرة النيرة لما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة ، مجلة التاريخ و حضارة المغرب ، العدد ، 3 ، جويلية، 1967 ، ص . 32 ، أنظر كذلك : سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، ص، 139 ، 140 ، 141

*أتهم أحمد بن يوسف الملياني بالإلحاد من طرف بعض العلماء ، كما أتهم أتباعه من بعده و تعرضوا للمضايقة ... ذلك أنه قال عن نفسه أن الله أعطاه علم الظاهر و الباطن و ادعى أنه نائب عن الرسول صلى الله عليه و سلم و أن الله قد أحي به طريق أهل التحقيق ، و نسب اليه أنه قال

ومن هنا تتضح لنا العلاقة الروحية الدينية بين الأتراك وعلماء (مرابطي) الجزائر آنذاك،ذلك أن وشائج الدين كانت أعمق وأشمل بين الطرفين. ويرجع أول إتصال تمّ بين العثمانيين والعلماء (المرابطين) إلى اتصال عروج بأحمد بن يوسف الملياني* سنة 1517م غرب مدينة وهران عندما قصده الإخوة بربروس،مع أسير مغربي كدليل لهم،وهو من نصحهم بالاتصال برجل من ذوي النفوذ الروحي،وقد قال له عروج أنه سيصدّق ولاية وكرامة الشيخ إذا استطاع أن يطلعه عن مقاصده،وإن وفق سيقبّل رجليه ويطلب منه الدعاء الصالح،ولما وصل إلى الشيخ قال له هذا الأخير"عزمت إذن وأصحابك على الهجوم على العدو"فجثى عروج عند قدميه[244]وعندئذ أدرك العثمانيون أن رجال التصوف هم خير حليف لهم في صراعهم مع الأسبان[245]. ومن خلال ما رأيناه في الفصل الأوّل عن خصال خير الدين وبعد نظره ودهائه السياسي والعسكري،مكّنه ذلك من كسب ثقة الناس،بمعاملته لهم بالدين،واحترام مشايخهم الذين أحاط نفسه بأكثرهم شهرة و نفوذا[246]

ولعل هذا الأسلوب الذي انتهجه خير الدين لم يكن جديدا على الأتراك أو لعلّ السياسة هي التي تقتضي ذلك ؟ إذ أن ولاة الدولة العثمانية في المشرق العربي كانوا يحترمون مشايخ الصوفية ، فكانت كلمتهم مسموعة عند الحكام الذين أفاضوا عليهم الأموال والعطايا واستغلوا نفوذهم لدى عامة الشعب في تهدئة الخواطر، وحفظ الأمن لذلك اكتسبوا نفوذا عند الحكام والجماهير على حد سواء[247]

ومن هنا ترعرعت ظاهرة التصوف و اشتدّ عودها في الجزائر، وتكاد تكون هذه الظاهرة هي الميزة الأساسية التي طبعت الثقافة الجزائرية طيلة فترة القرن 10هـ/16م فما هو التصوف؟ و كيف تطور في الجزائر خلال الفترة – موضوع البحث– وماهي خصائصه ونتائجه على المجتمع الجزائري آنذاك ؟

عن السبحة أنها كالمهماز للفرس ، وأنه طلب من الله تعالى تحقيق ثلاثة أمور فحققها له في ليلة واحدة ، و هي العلم بدون مشقة(علم الظاهر والباطن) و بلّغه فوق مبلغ الرجال ، و أراه الرسول صلى الله عليه و سلم في اليقظة لا في المنام . لتفاصيل أكثر أنظر – سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1، مرجع سابق ص، 494 ، 496 ، 497 ، – صادوق محمد الحاج ، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف ، مرجع سابق . كذلك :

Bodin(M) notes et questions sur sidi Ahmed ben yousef in . R. A n66.1925.p.185

[244]– رشيدة شدري معمر ، العلماء و السلطة العثمانية في الجزائر – فترة الدايات – 1671 – 1830 ،مرجع سابق ص، 16، نقلا عن الصباغ محمد بن علي القلعي ، بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار و معدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب و الدار ص11

[245]– صادوق محمد الحاج ، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف،مرجع سابق ص ، 104

[246]- Robin(n.j) note sur l'organisation militaire et administrative des turcs dans la grande kabylie ,R.A n17.1873,p,132 ,133

[247]– محمد عبد المنعم الراقد ،الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر ، القاهرة ، ص ، 423

التصوف في الجزائر

قبل التعريف بمصطلح التصوف،نشير هنا إلى أن ظاهرة التصوف قد عرفها المشرق العربي بعد القرن الثاني الهجري ، وسرعان ما انتشر التصوف مع حركة الفتوحات الإسلامية ومنها وصل الى شمال افريقيا،و تأثرت به الجزائر قبل العهد العثماني(خاصة 9هـ/15م) ولم يجد الأتراك بدا من التعامل مع الصوفية و الطرقية ، بحيث لم يجدوا صعوبة في ذلك . إذ لم تكن الحركة الصوفية غريبة عنهم فقد لعب الدراويش دورا كبيرا في توسعات العثمانيين خاصة منطقة الأناضول و انتشرت الطريقة البكداشية*في أوساط الانكشارية [248].

تعريف التصوف

هناك مئات التعريفات[249] للتصوف في الماضي والحاضر، وسنذكر مجموعة منها منسوبة إلى قائليها :

– محمد علي القصاب : التصوف أخلاق كريمة ، ظهرت في زمان كريم ، من رجل كريم،مع قوم كرام

– أبو محمد الحريري :التصوف هو دخول في كل خلق سني،والخروج من كل خلق دني .

– عمرو بن عثمان المكي : التصوف أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى في الوقت[250] .ونكتفي هنا مع أبو القاسم سعد الله بتعريف ابن خلدون الذي قال عن أصل طريقة القوم (التصوف) (وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها،والزهد فيها مما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه،والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة)[251].ولو أنني أطلقت العنان لقلمي حول موضوع التصوف لكتبت عشرات الصفحات[252]،لكنني سأقتصر على محاولة الإلمام بالطرق الصوفيةودور المرابطين في

---

*البكداشية ،فرقة دينية سرية ذات علاقة بعلويي تركيا، تعتبر عادة طريقة صوفية.تأسست في القرن الثالث عشر عن طريق ولي مسلم يدعى الحاج الولي بكداش ،تأثرت هذه الطريقة لاحقا في القرن الخامس عشر بالقلندرية.الارتباط بعلي بن أبي طالب صفة أساسية للبكداشية مثل الشيعة الإمامية وعلويو تركيا.والبكداشية شديدة الارتباط بعلويي تركيا لحد أنهما يمكن اعتبارهما فئة واحدة تشكل ثقافة واحدة يطلق عليها الثقافة والأفكار العلوية–البكداشية.عن : ويكيبيديا الموسوعة الحرة ،يوم 06 / 09 / 2013 م الساعة ، 06,15

[248]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1، صص، 45-460 كذلك : صالح عباد ، ، مرجع سابق ، ص ، 24

[249]– ألّف عبد القادر البغدادي ، المتوفى سنة 429هـ كتابا في معنى لفظتي الصوفي و التصوف ، جمع فيه ألف قول مرتبة على حروف المعجم، أنظر: محمد بن عبد الكريم الجزائري ، التصوف في ميزان الإسلام ، مطبعة النهضة ، و هران ، صص ،14 ، 15

[250]– أحمد الشرباصي ، الغزالي و التصوف الإسلامي ، دار الهلال ، ص ، 147

[251]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج4 ،عالم المعرفة ، الجزائر ، طبعة خاصة ، 2011 ، ص 8 ، نقلا عن ابن خلدون (تاريخ العلامة ابن خلدون) المجلد الأول ،ط2 ، بيروت ، 1961 ، ص ، 683

[252]– الحديث عن التصوف حديث طويل و شاق ، و بقدر ما هو واسع و متشعب بقدر ما هو لذيذ و ممتع و حساس ، يجعل الانسان يغوص في أعماق النفس البشرية ليحاول معرفة أسرارها ومن ثمة أسرار الكون و الطبيعة و كل شيء ، و للتوسع في هذا الموضوع أنظر : – عبد الرحمان عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب و السنة ،ط 4 ، دار الحرمين للطاعة القاهرة ، 1993

– أحمد زروق ، قواعد التصوف ، صحّحه و نقّحه محمد زهري النجار ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، 1968

– محمد بن بريكة ، التصوف الإسلامي من الرمز الى العرفان ، ط1 ، دار المتون للنشر و الترجمة و الطباعة و التوزيع ، الجزائر ، 2006 ،– عبد الرزاق قسوم ، عبد الرحمان الثعالبي و التصوف ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1978

الحياة الثقافية بالجزائر خلال القرن الأول للتواجد العثماني بالجزائر –الفترة المدروسة– ذلك أن تأثيرها في المجتمع الجزائري قد ترك بصمته لقرون لاحقة .

المرابطون و الطرق الصوفية

في رأي السنيين إن الطريقة هي التي تأسست على صفتين هما :انقطاع القلب من الأغيار وخلو اليد من الدنيا الغادرة،وإن أوّل طريقة هي التي كانت على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه،ولهذا كان للتصوف طرقا كثيرة إذن فالطريقة هي حلقة الوصل بين الشريعة الإسلامية و الحقيقة الإلهية[253] .

تتفق الطرق الصوفية في كثير من التقاليد والممارسات ومن ذلك حفظ السلسلة أوالسند، فلكل طريقة سندها الذي يرجع بها إلى الرسولﷺ، وبذلك يكون صاحب الطريقة (الشيخ)شريفا أو منتسبا للشرف ... والسند يذهب من الرسول ﷺإلى جبريل ثم إلى الله سبحانه وتعالى...غير أن بعض الطرق تخرج من هذا التقليد،وتدعي الكشف المباشر،أي التلقي من الله دون واسطة..ويؤكد أصحاب هذه الطريقة على أنه كرامة*

وهناك من قال بأنه يملك الاثنين (السلسة والكشف المباشر) ومن ثم تزداد شعبية المكشوف له بين العامة، وتتميز الطرق الرحمانية و التجانية والعيساوية والخضرية بالسلسلة و الكشف[254].ومما تجدر الإشارة إليه أن جميع الطرق تتفق على تنفيذ الوصايا الخمسة وهي الخوف من الله تعالى و عدم حب الناس وكرههم إلاّ لله وفي الله والرضى بما حكم وقدر الله للإنسان،وترك كل شيء لله يصرفه لأن كل شيء من عنده خيرا أو شرا،والعمل طبقا للسنة النبوية ،والذين يعملون بهذه الوصايا يدخلون في الفرقة الناجية التي توقع الرسولﷺ أنها ستكون الوحيدة من بين ثلاث وسبعين فرقة التي ستنقسم عليها الأمة الإسلامية بعده[255] .

وللطرق شعارات وممارسات وأذكار تختلف فيها كل طريقة عن الأخرى،والطريقة (أي طريق)التي هي موصلة إلى النجاة والسعادة وتسمى الطريقة(وردا) على أن الداخل في الطريقة يأخذ الورد من الشيخ أوخليفته أومقدمه والمريد يبدأ بدخول الطريقة ليصل إلى مرحلة الجذب[256].

---

[253]– أحميدة عميراوي ، رسالة الطريقة القادرية في الجزائر، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، عين مليلة ، الجزائر ، ص ، 14

* الكرامة ،سنتعرض لمفهوم الكرامة و الكرامات عند حديثنا عن المرابطين في الصفحات المقبلة

[254]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج4 ، مرجع سابق ، ص ، 16

[255]–سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص ، 17

[256]–سعد الله أبو القاسم ،المرجع نفسه ، ص ، 17 ، وقد أوصل بعضهم هذه المراحل الى سبعة ، تقوم كلها على تطهير النفس وتصفية القلب... ثم تأتي بعد ذلك درجات أخرى تؤدي الى مرحلة الجذب ، كالجذب العاطفي والجذب القلبي ، والجذب النفساني ، والجذب الصوفي ، وأخيرا جذب التملك و تتلخص كلها في الوصول الى ما يسميه ابن خلدون بالمقام (مقام التوحيد و العرفان) و لا يتوصل الى هذه الدرجة إلا عن طريق التقشف و نكران الذات و الحرمان من الملذات ، و القسوة على النفس بالصوم و التهجد، و مراقبة الله في السر و العلانية ، لتفاصيل أكثر حول هذه المسألة أنظر :

-Rinn.louis.Marabouts et kouans. étude sur l'islam en Algerié.laibrairie editeur.alger. 1884

– ابن خلدون عبد الرحمان (تاريخ العلامة ابن خلدون) المجلد الأول ،ط2 ، بيروت ، 1961

وقد ارتبطت نشأة كل طريقة بحلم ديني حصل فيه المرابط من محمد ﷺ شخصيا على وحي الطريق الذي يجب أتباعه،والصورة المثلى في العبادة للتقرب من الله.بعدها ينطلق في استقطاب وتكوين أتباع ودعاة يلقبون بالإخوان وهم في ذلك مثل المرابطين واثقون من الحصول على الغفران بإتباعهم للتعاليم التي نزلت عليه في صورة رؤيا[257].

وشيخ الطريقة(أو مولى الطريقة) هو حامل البركة وهو الذي يرث إمام الطريقة أو المؤسس لها وقد يكون الشيخ وليا صالحا أوعاملا شهيرا كالشيخ عبد الرحمان الثعالبي في الجزائر وأبي مدين في تلمسان ...ويعتبر الشيخ ظل الله في الأرض والنائب عنه في نظر البعض، وعلى الإخوان (الأتباع)الطاعة لأن الله يحكم بطريق الشيخ[258]،ولكل طريقة ذكر يردده أتباعها بطقوس خاصة،وهم يستندون في ذلك إلى الآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا أذكروا الله ذكرا كثيرا)وهم يكثرون من ذكر اسم الله أو عبارة لا إله إلا الله أو أستغفر الله..

وتتميز كل طريقة عن بعضها في التفاصيل أثناء الممارسات الصوفية،فالقادرية تتميز بالإحسان والصدقة والرحمانية بالعزلة والانفرادية (الخلوة) ... والطيبية تلح على احترام آل البيت والإخلاص إليهم والتجانية عرفت بالتسامح والاعتدال[259].وثمّة ظواهر أخرى مشتركة بين مختلف الطرق كالزيارة*، والهدايا، والغفارة[260]** وهناك اجتماعات دورية للطريقة،وأهمها اجتماع (الحضرة)الذي يسمى كذلك بالزردة.والبعض يطلق عليه (جلالة) والمشهور أن الزردة عبارة عن موائد يحضرها العامة من إخوان الطريقة وهي فرصة لممارسة أنشطة صوفية من رقص و ضرب دفوف و إنشاد و ضجيج[261] ،وإذا كانت هناك درجات في سلم الانتماء إلى الطريقة فان هناك درجات في سلم المشيخة وهي عادة درجات تذكر في السلسلة أو السند و تبدأ بالغوث* و تنتهي بالولي[262].

---

[257]– إدوار دو نوفو ، الإخوان ، دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر ، ترجمة و تحقيق ،د ، كمال فيلالي ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ص ، 24

[258]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج4 ، مرجع سابق ، ص ،11

[259]– سعد الله أبو القاسم المرجع نفسه ، ص ، 24 ، 25

*الزيارة تعني التوجه إلى شخص مقدس أو مكان معظم دينيا ، و قد تكون الزيارة لأحد الأضرحة ، و هي عادة مرفقة بالعطاءات .

**الغفارة هي مجموعة الحيوانات و البضائع و الأموال التي احددها الطريقة و تفرضها على كل قبيلة أو جماعة ، و قد عدّ فيها الشيخ مبارك الميلي بأنها ضرب من النذر بل اعتبرها أقبح النذر ، و هي وظيفة مالية (لزمة) يلتزم بها أمرؤ يؤديها كل سنة لمن إعتقد فيه جلب منفعة أو دفع مضرة . أنظر : مبارك بن محمد الميلي، رسالة الشرك و مظاهره ، ص ، 399

[260]– مبارك بن محمد الميلي، رسالة الشرك و مظاهره ،دار الراية للنشر والتوزيع ،تحقيق ،أبي عبد الرحمان محمود ،ص،398، 401

[261]– إدوار دو نوفو، نفس المرجع. ، ص ، 21

*الغوث: الغوث عند المسلمين هو أنه في شهر صفر ينزل من السماء على الأرض 380 ألف مصيبة بشتى أنواعها ، موت ، جرح ، عثور ، مرض ، وعذاب بأنواعه ... و الغوث يتحمل وحده ثلاثة أرباعها ، ويصبح من جراء ذلك يعاني من أوجاع عديدة ، النصف الآخر من المشاق يتحمله عشرون وليا (أقطاب) موزعين على دار الإسلام أما الباقي فيلقى به على كل ما وجد في الطبيعة لتبتلى به البلية ، أنظر : إدوار دو نوفو ، الإخوان ، دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر ، ترجمة و تحقيق ،د ، كمال فيلالي ، مرجع سابق ، ص ، 29

[262]– إدوار دو نوفو، نفس المرجع ، ص ، 25

المرابطون

ظهر هؤلاء المرابطون قبل فترة التواجد العثماني بالجزائر ، وهم طائفة دينية اكتسب رجالها سلطة روحية بين الناس إما لأنهم اشتهروا بالكرامات[263]،وإما لأنهم ينتسبون إلى من اشتهر بها من أسلافهم وكانت كلمة مرابط تطلق في بداية استعمالها بالمغرب كما في المشرق على الرجل التقي الذي يلازم الرباط في الثغور لمراقبة العدو من جهة و للعبادة من جهة أخرى...غير أن مفهومها تطور فيما بعد حتى صار كل من يثير إعجاب الناس لنسكه وورعه ينعت بالمرابط سواء كان حيا أو ميتا، وكل خارق يثير الدهشة و يذهل العقل[264]

وقد انتشر المرابطون في الجزائر انتشارا واسعا،ويعود ذلك إلى موجة التصوف التي عمت المغرب منذ القرن 15م،أضف إلى ذلك أن فكرة المرابط تتلاءم مع العقلية البسيطة للقبائل الذين يميلون إلى تمجيد أولائك الذين يعتقد أنهم على اتصال بالقوة الإلهيةوأن أفعالهم هي إنعكاس لتلك القوة الإلهية[265].ونحن نتفق مع الأستاذ العيد مسعود في ذلك خاصة وأن انتشار المرابطين كان في الأرياف الذي كانت تسكنه غالبية الجزائريين .

غيرأن الملفت للنظر في هذه المسألة هو أن إقبال الناس على المرابطين واعتقاد ولايتهم جعل كثيرا من الدجالين والمستغلين،يستغلون سذاجة الناس فادعوا الولاية وتظاهروا بالعبادة والزهد،وبذلك كثر المرابطون وكثرت الرباطات في الجزائر منها الحقيقي ومنها المزيف[266]، وقدساعد العثمانيون على ترويج الخرافة ولم يكونوا يستهدفون من وراء ذلك أهدافا سياسية فحسب وإنما كانوا يعتقدون في الخرافة ويؤمنون بالأولياء(المرابطين) لكن الملاحظ هو أنه مهما كانت شهرة هؤلاء المرابطين فإنهم لا يقومون بالدعوة الصوفية ،ولذلك ليس لهم أوراد كالطرق الصوفية ولا أتباع منتظمون ولا دعاة[267].

---

[263]– الكرامة ، هي كل فعل خارق للعادة جرى على يد من ظهر صلاحه في دينه ، سالكا مناهج الشرع القويم من الكتاب و السنة ، و هناك تداخل و خلط كبير بينها و بين الشعوذة و السحر ، و ترتبط الكرامة بصلاح حال صاحبها و فساده لتفاصيل أكثر أنظر : الونشريسي المعيار ج11 ص، 41 ، ابن خلدون ، المقدمة ،ص ، 517 ، أبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي (المعروف بابن الزيّات ، 617هـ/ 1220م) التشوف إلى رجال التصوف و أخبار العباس السبتي ، تحقيق أحمد التوفيق ،ط2، 1997م ، أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن القنفذ القسنطيني ،أنس الفقير و عز الحقير ، نشر و تحقيق محمد الفاسي – أدولف فور ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، جامعة محمد الخامس كلية الآداب ، الرباط ، المغرب ، الغبريني أحمد بن عبد الله أبو العباس ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق عادل نويهض ، منشورات لجنة التأليف و الترجمة و النشر ببيروت ، ط1 ، 1969

[264]– العيد مسعود ، المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني ، مجلة سيرتا ، العدد 10 ، آفريل ، 1988 ، ص ، 8

[265]–العيد مسعود ، مقال سابق ، نقلا عن : Depont et G.Les confréries relegieuses musulmanes.p.132

[266]–العيد مسعود ، مقال سابق . ص ، 9

[267]–العيد مسعود ، مقال سابق ، ص ، 9 ، نقلا عن : Rinn louis . Marabouts et khouans …p . 18… ويقول حمدان خوجة في معرض حديثه عن الخرافات ببلاد القبائل : و في عهد الأتراك كان الحكام يرون أن من واجبهم أن يداروا هذه **الوهام** ليستولوا على النفوس ، المرآة ، ص ، 257 … ويقول أيضا ص،(340) وبدافع سياسي كان الحكام الأتراك يحافضون على بقاء هذه الأسس الفاسدة ، وهم أنفسهم كانوا يحترمون الأماكن التي ينظر اليها الجزائريون بعين التقديس

ورغم ذلك كان لهم تأثير كبير على ذهنية وثقافة و أفكار المجتمع الجزائري آنذاك. ومما تجدر الإشارة إليه أن الناس قد تعودوا على ربط كل ظاهرة طبيعية بكرامة ولي من الأولياء ... إذ أن الخرافة قد طبعت على عقول الناس و قد شملت أوساط العامة و حتى طبقة العلماء ممن لهم قدم راسخة في العلوم الدينية و الثقافية... وهذا ابن مريم في القرن السادس عشر أفردهم بمؤلف خاص (البستان في ذكر العلماء و الأولياء بتلمسان)[268]غير أنه و في هذا الجو الذي انتشرت فيه العادات السيئة والتي ألصقت بالدين حتى كاد المجتمع أن يصبح زاوية صوفية فيه الحضرة والرقص والإيمان بالغيبيات والروحانيات، ظهر من تصدى لهذه الخرافات والبدع وعلى سبيل المثال لا الحصر شخصية عبد الرحمان الأخضري* الذي كان من أخصب العلماء إنتاجا ومن أوسعهم شهرة في مجال التأليف إذ أنه كتب في المنطق و الفرائض والبيان و المعاني و الفلك و الحساب[269].وقد هاجم البدع و من سمّاهم علماء السوء ، ودعا إلى العمل بالكتاب و السنة، و يبدوا أن عقله كان عقلا رياضيا أكثر منه عقلا صوفيا يميل إلى الغموض و الروحانية[270] كما أنه انتقد الانحراف الصوفي ووصف المنحرفين و الأدعياء بالمزيفين الذين يستعملون جميع الوسائل لاستغلال العامة و نشر الجهل والخرافة فانتقدهم بشدة و رمى بعضهم بالزندقة واتخاذ التصوف وسيلة إلى الدنيا[271]، و هناك شخصية علمية ثانية انتقدت ما شاع من خرافات و بدع سادت المجتمع الجزائري خلال القرن 10هـ/16م ألا و هو شخصية عبد الرحمان الفكون* وذلك في كتابه ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية،الذي ذكر فيه أسماء المنحرفين (الدجاجلة الكذابين والمتشدقة والمبتدعة الضالين المضلين)،ولم يترك في قلمه قطرة حبر إلا أهرقها من أجل ذلك الهدف، ولم يترك كلمة ردع ونصح إلا صدع بها ولم يترك وسيلة تشنيع وتعرية إلا لجأ إليها[272] .

ومن خلال تتبعنا لما كتب عن ظاهرة التصوف لاحظنا أن ثمة سلبيات و إيجابيات تتمثل فيما يلي :

---

[268]– العيد مسعود ، المرابطون و الطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني ، مقال سابق ،ص،20

*عبد الرحمان الأخضري لتفاصيل أكثر حول هذه الشخصية أنظر : المهدي البوعبدلي ، عبد الرحمان الأخضري و أطوار السلفية في الجزائر ، مجلة الأصالة العدد، 53 ، جانفي ، 1978 ، ص ، 21 ، 35 ، كذلك الدراسة القيّمة للباحث: بوزياني الدراجي ، عبد الرحمان الأخضري العالم الصوفي الذي تفوق في عصره ، ط 2 ، مؤسسة بلاد النشر ، 2009

[269]– حنيفي هلايلي ، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص ، 230

[270]–حنيفي هلايلي ،المرجع نفسه ، ص ،248

[271]–حنيفي هلايلي ،المرجع نفسه ، ص ، 252

*هوعبد الكريم الفكون بن محمد بن عبد الكريم الفكون التميمي القسنطيني المتوفى سنة ، 1073هـ / 1662م أنظر تفاصيل عن حياته و عن عصره ، عبد الكريم الفكون ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية ، تقديم و تحقيق و تعليق الدكتور ، أبو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1987 ، ص، 7 ، و ما بعدها

[272]– عبد الكريم الفكون ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية ، مصدر سابق ، ص ، 13

سلبيات التصوف

– مساهمة التصوف والمتصوفة في انحطاط مستوى النشاط العلمي وركود الحياة الأدبية ، بسبب زهد المتصوفة و تغلغل أفكارهم في جميع الأوساط بما فيها العلماء والأدباء وعلى توكلهم على الله وتواكلهم وعلى تعصبهم و مقاومتهم لكل الأفكار الجديدة[273] .

– كثير من أهل التصوف أصبحوا ينذرون بقرب الساعة ويطلبون النجاة من شرور زمانهم ومجتمعهم فساعدوا بذلك على الضعف السياسي والانحلال الاجتماعي والتخلف الفكري[274].

– تميز بعض أتباعها (الطرق الصوفية) بالدروشة و الخرافات و الأباطيل و البدع[275] .

إيجابيات التصوف

–تعريب الطبقات الشعبية في الحواضر والأرياف.

– نشر تعاليم الدين في الأوساط الشعبية .

– تجنيد الشعب ضد المعتدين على دار الإسلام (اسبانيين وبرتغاليين).

– لجوء الناس إلى المتصوفة،يحكّمونهم في قضاياهم ،واستنجادا بهم لحماية أنفسهم وأموالهم وأمتعتهم[276]

– تحفيظ القرءان الكريم وتعليم اللغة العربية وإزالة الفوارق الاجتماعية،وتقليل الخلافات بين الناس[277]

وإذا كانت كتابات معظم المؤرخين الذين تناولوا الفترة العثمانية بالجزائر (خاصة القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي)،قد حكموا على الحياة الثقافية بالركود. فقد حاولت قلّة منهم إعطاء جوانب مضيئة لهذه الفترة الأمر الذي حافظ على الهوية العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري . ففيما يخص التعليم فإنه لم يكن للدولة أي دخل في ميدان التعليم لأن هموم الدولة كانت منحصرة في المحافظة على الاستقرار السياسي و الدفاع عن الحدود . و جمع الضرائب لبيت المال (الخزينة) ... ولم تكن هذه المداخيل و غيرها تستعمل في نشر التعليم و ترقيته ولكن في أجور الجنود... وفي المعدات الحربية وخصوصا البحرية ... وعليه فإذا انشر التعليم فالأمر لا يعنيها و إذا تقلص فالأمر لا يعنيها[278]

---

[273]– محمود آغا بوعياد ، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط ، مرجع سابق ، ص ، 50

[274]– صباح بعارسية، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن 10هـ/ 16م ، مرجع سابق ص ، 29

[275]– يحي بوعزيز ،موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، ج1 ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ص ، 225 ، أنظر كذلك أحمد مريوش ، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية ، الجزائر ، 2007 ص،144,145

[276]– محمود آغا بوعياد ، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط ، مرجع سابق ص ، 50

[277]– يحي بوعزيز ،موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 222 ، كذلك : أحمد مريوش ، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، مرجع سابق ، 141 ، 142 ، 143

[278]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 313 ، 314

ومن ثمة فانتشار التعليم اضطلع به رجال الدين وحفظة القرآن الكريم في المساجد والزوايا[279] .
لا تكاد المؤسسات الثقافية في العهد العثماني تخرج عن المسجد والمدرسة والزاويةوالمكتبة،ومعظم هذه المؤسسات كانت للتعليم أكثر مما كانت للثقافة بمفهومها اليوم[280]،وهذه العناصر تتحكم فيها الأوضاع العامة للبلاد ... ودورها ومستواها كان مختلفا من ظرف إلى آخر[281].

المؤسسات الثقافية خلال العهد العثماني :

1-الكتاتيب :وهي أول محل يتلقى فيه الطفل الحروف الهجائية بواسطة اللوح المصلصل والقلم القصبي وتكون هذه الكتاتيب(غالبا)في أضرحة الأولياء وفي الدكاكين والمساجد التي لا تقام فيها الصلوات الخمس[282]،كما أن هذه الكتاتيب هي أقل وحدة للتعليم الابتدائي وهي مأخوذة من الكتاب أو المكتب،وكان يطلق عليه و لاسيما في العاصمة اسم (مسيد) ، وهو بدون شك محرّف عن تصغير كلمة مسجد ، وظيفتها الأساسية هي تحفيظ القرءان الكريم للأطفال وترتيله ... و كانت الكتاتيب منتشرة في القرى والمدن و في جميع الأحياء[283].
و الملاحظ أن جميع الجزائريين كانوا يقبلون على إرسال أبنائهم الى هذه الكتاتيب دون تهاون أو تردد لأن ذلك يمثل في نظرهم رمزا لإسلام الجميع ... كما أن الأغلبية من الأطفال في هذه الكتاتيب يقومون بحفظ القرءان دون فهمه[284]

2- المساجد : الجوامع والمساجد كانت للعبادة والتعليم ... والجامع اصطلاحا أكبر حجما من المسجد فهو الذي تؤدى فيه الصلاة الجامعةأوالجمعةوالعيدين ... وفي الغالب لا تنسب إلى الأولياءوالصالحين بل إلى مؤسسيها أوالى الأحياء الواقعة فيها[285] وقدكان المسجد ملتقى العباد ومجمع الأعيان،ومنشط الحياة العلمية و الاجتماعية و هو قلب القرية في الريف وروح الحيي في المدينة ... وكان تشيد المساجد عملا فرديا (من طرف بعض الأغنياء) و أعيان القرية أو الحي يساهمون بالتبرعات... والدولة لم تكن مسئولة على بناء المساجد[286].وقد كان المسجد الكبير بالعاصمة مقرا للمفتي المالكي وللمجلس الشرعي الأسبوعي(يوم الخميس)وكان هذا المجلس يظم المفتي المالكي والمفتي الحنفي والقاضيين المالكي والحنفي وكبار العلماء والقضاة

---

[279]- صالح فركوس ،تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ الى غاية الاستقلال ، مرجع سابق ، ص ، 172
[280]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، مرجع سابق ، 227
[281]- أرزقي شويتام ، المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني (1519 ، 1830) دار الكتاب العربي ،ط1 ، 2009 ، ص، 459
[282]- محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تقديم و تحقيق ، محمد بن عبد الكريم ،ط1 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1972 ، ص ، 58
[283]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، مرجع سابق ،صص،276 ، 277
[284]- أحمد مريوش ، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص ، 19
[285]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، مرجع سابق ،ص ، 245
[286]-سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص ، 246 ، 247

... وهذا المجلس يفصل في القضايا الفقهية ... وكان مركزا للمناظرات بين العلماء في المسائل الخلافية العامة[287].

ومما تجدر الإشارة اليه أن كثيرا من المساجد كانت تحتوي على المصاحف والكتب الدينية والصوفية مثل صحيح البخاري،وتنبيه الأنام،ودلائل الخيرات وكتب الأدعية والأذكار...ومن أهم ما كان يلحق بالجوامع أيضا الكتاتيب لتحفيظ القرءان الكريم للأطفال،والزوايا لمبيت الطلبة والغرباء،ومن التوابع الضرورية للجوامع الميضات والعيون للطهارة والاستحمام[288].

3-المعمرات:هي مؤسسات ثقافية تشبه الكتاتيب القرآنيةكانت منتشرة في الأرياف الجزائرية أوالقرى الجبلية خلال الفترة العثمانية ينتقل اليها التلاميذ الدارسون بها من مختلف الجهات،وحتى من خارج الجزائر من أجل حفظ القرءان الكريم وتجويده وترتيله مع إضافة علوم أخرى دينية ولغوية ذات صلة بفهم القرءان والتفسير[289] وينقسم طلبة و تلاميذ المعمرات إلى ثلاث فئات:

أ -فئة القدادشة:وهم صغار التلاميذ الذين يأتون إلى المعمرة لحفظ القرآن فقط في بداية التحاقهم بها

ب - فئة الطلبة:هم فوق فئة القدادشة من حيث السن والقدم والثقافة ويتركز إهتمامهم في حفظ القرءان وتعلم بعض العلوم الدينية و اللغوية و التفسير ويشرفون على فئة القدادشة في تحفيظ القرءان الكريم ،وكذا تحضير الغذاء و القيام بأعمال التنظيف.

ج -فئة المقدمين والوكلاء والشيوخ الكبار :وهذه الفئة هي أعلى منزلة في المعمرات تقوم بمهمة التوجيه ماديا وفكريا وتحل المشاكل المطروحة بالمعمرات. ومن أبرز تلك المعمرات معمرة سيدي عمر الحاج علي على ساحل دلّس ومعمرة سيدي أحمد بن دريس بمنطقة العزازقة[290].

4-الزوايا :إحتلت الصدارة في مراكز الثقافة خصوصا في تثقيف المعوّزين والفقراء من أبناء الجزائريين المتعطشين إلى إكتراع زلال العلم و المعرفة وقد كانت مقسمة إلى قسمين :

القسم الأول : يقوم بوظيفة تحفيظ القرءان الكريم ، وقد يؤمه غالبا الغرباء الذين سبق لهم أن تعلموا الحروف الهجائية واستظهروا بعض الصور من آي الذكر الحكيم .

القسم الثاني : يقوم بتدريس بعض فنون الوقت لاسيما الفقهيات و قواعد النحو والصرف.وفنون البلاغة ... وهذا القسم لا يؤمه غالبا إلا المستظهرون لكتاب الله العزيز من طلاب العلم الشريف[291]، وقد لعبت الزاوية في الريف دورا أكثر ايجابية من الزاوية في المدينة ، إذ كانت مع نهاية القرن 9هـ وبداية القرن 10هـ ، عبارة عن

---

[287]-سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص ،258

[288]-سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص ، 255 ، 256

[289]- أحمد مريوش ، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص ، 20

[290]- أحمد مريوش ، نفسه ، ص ، 20 ، 21

[291]- محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، مرجع سابق ص ، 58 ، 59

رباطات أو نقط أساسية ضد الأعداء ... وعلى هذا النحو تحالف بعضهم مع العثمانيين ... وكان على السلطة العثمانية أن تؤيد المرابطين بالعطايا السخية ، والإعفاء من الضرائب[292]. ورغم كل ما قيل عن الزاوية فقد كانت فضلا عن وظيفتها الدينية معاهد لتعليم الشبان وتنوير العامة[293]، وأهم ميزة للزوايا كونها ملجأ الهاربين من العقاب والقتل مهما كانت جرائمهم[294] .

5 -المدارس : وهي أمكنة خصصت لإلقاء الدروس بها،ولا توجد إلا ببعض المدن الرئيسية مثل قسنطينة والجزائر وبجاية ووهران و تلمسان[295]، ورغم ذلك فإنه لم تكن للجزائر العثمانية مدرسة مستقلة للتعليم المحض بالمعنى الذي نفهمه اليوم باستثناء بعض مدارس تلمسان التي تعود إلى العهد الزياني ولذلك فإنه من الصعب تميز الوظائف التي تؤديها هذه المؤسسات (السابقة الذكر) مجتمعة في مجتمع يقوم فيه التعليم قبل كل شيء على الدين ،وتلعب فيه المساجد و الزوايا (وليس المدارس) الدور الرئيسي ومع ذلك فإن وظيفة المدرسة الابتدائية كانت هامة فهي تثقف و تربي الأطفال على قواعد الإسلام ،وعلى نمط اجتماعي محدد.. وقد كانت تؤدي وظيفة أساسية في المجتمع خصوصا رفع الأمية[296].

ومهما كان الأمر فقد كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف ، بل كانت منتشرة حتى بين أهل البادية و الجبال النائية[297] .

ومما تقدم ذكره بالنسبة للوضعية الثقافية للجزائر العثمانية خلال فترة القرن 10هـ/16م،انعكس ذلك سلبا على الإنتاج الثقافي والذي تؤكد معظم الدراسات التاريخية أنه كان محصورا في بعض التفاسير،والشروح والحواشي الفقهية والعقائدية التي دوّن مصنفاتها القدامى..وكان مضمون الإنتاج يغلب عليه التقليد من حيث التفكير،وكثر استعمال كلمة الحافظ من حيث التفكير[298]،وكثر إطلاقها على جل العلماء والفقهاء،فإذا عدت إلى كتاب(كالبستان) لابن مريم لوجدته يذكر في ترجمة كل فقيه،الكتب التي حفظها .. وظاهرة الحفظ جمّدت الإنتاج في العلوم ، وجعلته مجرد تكرار لأعمال الآخرين[299] .

ولعل هذه الميزة لا تقتصر على علماء و فقهاء المغرب الاسلامي فحسب،بل هي ظاهرة سادت جلّ أقطار العالم الاسلامي آنذاك،والتي جعلت شعوبه تمتاز بالجمود الفكري والسياسي وحتى الاقتصادي الذي يرجعه البعض الى تلك الأوضاع المتردية التي يتحمل مسؤوليتها كل من الحكام والمحكومين على حد سواء ،في الوقت

---

[292]- صالح عباد ، الجزائر خلال الحكم التركي ، مرجع سابق ، ص ، 25 ، 26

[293]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، مرجع سابق ،ص ، 268

[294]-سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص ، 271

[295]- محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، مرجع سابق ص ، 59

[296]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، مرجع سابق ،صص ، 279 ، 280

[297]-سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ص ، 274

[298]- محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، مرجع سابق ص ، 61

[299]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،مرجع سابق ، ص ، 10 ، 11

الذي كانت فيه أوربا تضع اللبنات الأولى للخروج من عصر الظلام (العصور الوسطى) الى عصر الإستنارة بفضل حرية الفكر والإبداع وتشجيع كل ما من شأنه أن يخدم غالبية الشعوب الأوربية،والتخلص تدريجيا من قبضة وهيمنة الكنيسة،التي كانت الى وقت قريب تهيمن على الحياة العامة في أوربا بواسطة رجال الدين من قساوسة ورهبان

ولعل الفارق بين شعوب العالمين الإسلامي و الأوربي المسيحي خلال هذه الفترة (في نظرنا) يتمثل في نظرة كل من الطرفين الى الحياة ، إذ يرى معظم أفراد الطرف الأول (العالم الإسلامي) أن الحياة لا قيمة لها في ظل تلك الظروف ، بل هي مطية للآخرة فقط متناسين في ذلك قوله تعالى (و لا تنس نصيبك من الدنيا) بينما يرى معظم أفراد الطرف الثاني (العالم الأوربي المسيحي) أنه برغم الظروف الصعبة لتلك المرحلة خاصة السياسيةوالدينية،فإنه يجب على الكل أن يعيش هذه الحياة بآلامها وآمالها لأن الفرديعيش مرة واحدة و عليه يجب أن يخلّدإسمه وأن يعيش كل دقيقة بل كل ثانية من عمره،و ربما المفارقة العجيبة بين العالمين (الإسلامي والأوربي المسيحي) خلال هذه الفترة هي أن أكابر الثوريين في العالم الأوربي كانوا رجال دين و على سبيل المثال لا الحصر،الألماني مارتن لوثر(1483 – 1546م) والفرنسي يوحنا كالفن (1509 –1564م)، فقد كانوا يؤمنون بأفكار تحررية و يطبقونها أي أنهم كانوا عمليين ، عكس بعض العلماء المسلمين الذين كانوا لا همّ لهم سوى الخوف من هذه الدنيا و بغض من يحبها و يركن إليها ، وهذه المفارقة هي التي كانت ولا تزال الى يومنا هذا محل دراسة وبحث من طرف العديد من الفلاسفة و الباحثين .

المبحث الثالث

الحياة الثقافية بالمغرب الأقصى مع نهاية ق 9هـ-15م و طيلة القرن 10هـ– 16م

ما أكثر المصادر و المراجع التي تناولت الجوانب السياسية للمغرب الأقصى في مراحل متباينة لتاريخه[300] خاصة في العصر الحديث ، غير أن الجانب الثقافي لتاريخ المغرب الأقصى– حسب علمنا — لم يحض بدراسة مستفيضة على شكل موسوعة لمختلف المراحل التاريخية التي مرّ بها المغرب الأقصى،وعمومافإن بعض المؤرخين المغاربة درسوا الجوانب الثقافية[301] للدويلات التي تعاقبت على حكم المغرب الأقصى وعلى اعتبار أن موضوع بحثنا يتناول التواصل الثقافي الذي حدث بين البلدين خلال القرن 10هـ/16م من خلال مؤثرات تمتد إلى فترة ما قبل هذا القرن،ارتأينا أن نخصص هذا المبحث لأوضاع المغرب الأقصى الثقافية بقدرما يخدم موضوع البحث،بدءا بالدولة المرينية،وانتهاء بالدولة السعدية.

---

[300]– أنظر على سبيل المثال لا الحصر : – أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، – الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، –كريم عبد الكريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، شركة الطبع و النشر ، 1978

[301]– من أبرزتلك الدراسات في الجانب الثقافي ، مؤلف : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ، جزآن ، لمحمد حجي (تحصلت على الجزء الثاني منه من موقع : (ketabweb المغربي يوم : 2013/12/25 م)

1 -الوضع الثقافي بالمغرب خلال فترة الدولة المرينية

سبق أن تناولنا في الفصل الأول تلك التطورات السياسية التي شهدها المغرب بظهور الدولة المرينية سنة 686هـ/1269م على يد يعقوب بن عبد الحق،واعتبرت هذه الدولة أنها أحقّ بأملاك دولة الموحدين إذ دخلت آنذاك في صراع مع الزيايين و الحفصيين ...ورغم ما امتازت به مرحلة الدولة المرينية،من صراعات داخلية وخارجية غير أن الواقع الثقافي امتاز بما يلي:

– وجود أكبر حركة ثقافيةوعلميةوفكرية شهدتها البلاد طوال تاريخها الإسلامي خاصة بسبب هجرةالأندلسيين إلى المغرب الأقصى بفنهم وعلمهم وثقافتهم وبرزت بذلك فاس (عاصمة بني مرين) متفوقة على جميع مدارس المغرب وبرزت في ميدان الحضارة وتألق نجمها في عالم الفكر والثقافة[302] أضف إلى ذلك أن سلاطين بني مرين لم يقيموا دولتهم على فكر ديني معين ... واحتضن السلاطين في مجالسهم العلماء على اختلاف مستوياتهم ،وبذلك شهد عصر بني مرين بالمغرب الأقصى وجود أكبر حركة ثقافية وعلمية وفكرية شهدتها البلاد طوال تاريخها الإسلامي[303] وكانت مجالس السلاطين عبارة عن ندوات علمية تطرح فيها الأفكار وتناقش وهو ما يدل على شغف السلاطين بالعلم وحبهم للعلماء[304]،وصدق من قال:" الناس على دين ملوكهم "ومن ثمة فثقافة الحكام على قدر ثقافة علمائهم ومن ذلك السلطان أبو الحسن وابنه أبو عنان اللذان كانا من محبي المناظرة و مجادلة العلماء[305]، وقد اهتم بنو مرين بالمدارس،حيث كان الطلبة يقيمون فيها على نفقة السلطان المريني ،واهتموا بها لتدريس الفقه المالكي وضمنوا معاش الأساتذة وآووا الطلاب .. كل ذلك يؤكد تقدم الحركة الفكرية[306] ،وأصبح المذهب المالكي في هذا العهد كامل السيادة ولم يعد ينافسه أي مذهب ديني آخر .وقد اكتسب الفقهاء اعتبارا فائقا في هذا العهد بسبب الإقبال العظيم الذي حصل على العلوم الدينية بوجه عام والذي كان كرد فعل للحجر الطويل على المذهب المالكي أيام الموحدين[307].وقد انعكس ذلك على حركة التأليف خاصة كتب الفقه والعلوم المرتبطة به..وعلى سبيل المثال لا الحصر :

المناسك الفقهية المنوطة بالأحكام الشرعية لابن منصور المغراوي

شرح مختصر خليل للقوري في ثماني مجلدات

---

[302]– عبد الفتاح مقلد غنيمي ،موسوعة تاريخ المغرب العربي ، مرجع سابق ، ص ، 274

[303]– عبد الفتاح مقلد غنيمي،المرجع نفسه ، ص 275

[304]– عبد الفتاح مقلد غنيمي ، المرجع نفسه ، ص ، 276

[305]– عبد الفتاح مقلد غنيمي ، المرجع نفسه ، ص ، 276

[306]– ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، مرجع سابق ، ص ، 165

[307]– ابراهيم حركات،المرجع نفسه ، ص، 169 . كان سلاطين بني مرين، يهتمون بأنفسهم، بفهم هذا المذهب (المذهب المالكي) لأنه المذهب المفضل و المحبب عند شعبهم ... إذ كان السلطان أبو الحسن يحرص على أن يوضع بين يديه مؤلفات المذهب المالكي... و كان المذهب المالكي هو محور التعليم في العصر المريني ، أنظر ، عبد الفتاح مقلد غنيمي ،موسوعة تاريخ المغرب العربي ، ص ، 279

تفسير القرءان لأبي القاسم السلوي [308]

الوضع الثقافي في المغرب خلال حياة الدولة الوطاسية

بسبب الفسيفساء السياسية (الوحدات السياسية) بالمغرب الأقصى مع نهاية القرن 9هـ/15م و مطلع القرن 10هـ/16م (سبقت الإشارة إليها في الفصل الأول) فقدآل الحكم إلى محمد الشيخ الوطاسي(الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الوطاسية عام 1472م،ورغم الاضطرابات التي عاشها المغرب آنذاك فإن الأوضاع الثقافية سادتها ظاهرة التصوف إذ انتشرت الطرق والزوايا بشكل لم يسبق له مثيل [309] ...وهكذا أصبح للصوفية في هذا العصر دور كبير إذ نسبت إلى بعضهم خوارق و تصرفات لا تكاد تصدق وبلغت ثقةالعامةبهم إلى درجة أن سلاطين الدولة الوطاسية رهبوا جانبهم ... والروايات عن كرامات الصوفية بما تحتوي عليه من مبالغات أكثر من أن تحصى[310] .

وقد تزامن نشاط هذه الطرق الصوفية،بمحاولات الغزو البرتغالي للثغور المغربية فكان حماس طوائف الصوفيين كبيرا للجهاد،وذلك لمواجهة هجمات البرتغاليين ... وتتمثل هذه الطرق في طائفتين كبيرتين،أتباع الطريقة القادرية (تنسب إلى عبد القادر الجيلالي دفين بغداد) والطريقة الجزولية تنسب إلى محمد بن سليمان الجزولي الذي أنشأ هذه الطريقة في القرن 15م[311].

ومن أبرز كبار المتصوفة في هذا العصر،عبد العزيز بن عبد الحق تباع،وهو تلميذ الإمام الجزولي* ووارث طريقته وهذه الطريقة مبنية على :

التوبة عن الذنوب و الإكثار من البر و العمل الصالح

الإقتداء بالشيخ عالم بالظاهر والباطن .

إتباع السنة النبوية .

التزام الأخلاق والآداب الفاضلة [312].

ورغم تراجع الحركة الفكرية في عهد الوطاسيين إلا أن التعليم في الكتاتيب والمدارس ظل شبيها بما كان عليه في الماضي ... فمن حفظ القرءان الكريم في ألواح خشبية، إلى حفظ رسالة أبي زيد القيرواني ثم ألفية ابن

---

[308]- ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، مرجع سابق ،ص ، 170

[309]-إبراهيم حركات، المرجع السابق ، ص ، 214

[310]- إبراهيم حركات، المرجع السابق ،ص ،214 ، 215

[311]- شوقي عطاالله الجمل ، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا- تونس – الجزائر – المغرب) ط1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1977 ص ، 46

*الجزولية : نسبة إلى مؤسسها أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي ، من قبيلة جزولة الأمازيغية في السوس من بلاد المغرب الأقصى ، حيث بدأ تعليمه هناك وانتقل إلى فاس ، و دخل مدرسة الصفارين ، حجّ إلى مكة و منهاإلى المدينة و القدس و أقام هناك نحو أربعين عاما ، عاد الى فاس وأنشأ الطريقة الجزولية ، توفي نحو سنة 1470م ، له مؤلفات في التصوف أهمها، دلائل الخيرات ، و شوارق الأنوار .أنظر : جورج كرم ، و بطرس البستاني ، المنجد في الأعلام ،ط2 ، دار الشرق ، بيروت، 1969، ص، 170

[312]- إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، مرجع سابق ، ص ، 217

مالك[313].ومع ذلك فقد تقهقرت حركة التعليم بشكل واضح إذا قارناها بما كانت عليه في العصر المريني[314] وبموازاة ذلك كان رجال الأدب في هذا العهد من الفقهاء الذين جمعوا بين العلوم الدينية وقرض الشعر،على أن الأدب الذي يصوّر بطولة الشعب وصراع الدولة مع الاحتلال قد شاع في هذا العصر[315] .

2-الحياة الثقافية في المغرب خلال فترة الدولة السعدية(النصف الثاني من قرن 10هـ/16م)

إن ظهور الدولة السعدية تزامن مع رفع لواء الجهاد الإسلامي في الجنوب (كما رأينا في الفصل الأول) إذ أن العلاقة بين بني وطاس والسعديين كانت حسنة بسبب الظروف التي كان يمر بها المغرب (العدو البرتغالي المشترك) وبسبب المساعدات التي كان بنو وطاس يمدونها لأهل السوس (المال والعتاد الحربي)[316] فإنه لما حقق السعديون تلك الانتصارات إلتفّ حولهم الشعب،ومن وراءهم الطريقة القادرية واستولوا بذلك على فاس عام 1549م[317] ومن هنا يبدأ بُعد نظر سلاطين الدولة السعدية ،وعلى رأسهم أحمد الأعرج الذي نقل رفاة الشيخ الجازولي مؤسس الطريقة الجزولية في عام 1524م ... لتأييد أنصار الجازولية له[318] ،ورغم محاولة توطيد أركان الدولة بسبب الصراعات الداخلية والأخطار الخارجية وما شابها من اضطرابات إلّا أن الملوك السعديين كانوا مولعين بفنون الأدب،فكان محمد المهدي (1544 – 1557) يحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب[319] وسمي بالمهدي لأنه بلغ في العلم درجة كان يخالف القضاة في الأحكام ويرد على فتواهم فيجدون الصواب معه ... وله حواشي على تفسير القرءان كثيرة و متعددة[320]

ومع بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر ميلادي ظهر هناك سلاطين سعديون أثروا الحياة الثقافية واهتموا بها،ومن ذلك محمد الغالب (964 – 981هـ / 1575 – 1574م) الذي كان عادلا في أحكامه محبا للصلحاء رغم أنه كان قاسيا على بعض أرباب الزوايا[321] ،وامتازت سياسته الدينية بمحاربة أصحاب البدع وعدم التحرر الفكري[322] وفي حين كان يتقرب إلى أرباب الطريقة الجازولية[323] ، على أن أكبر فترة قوة عاشها

313-إبراهيم حركات المرجع نفسه ، ص ، 253

314-إبراهيم حركات،المرجع نفسه ص ، 255

315- يوسف علي بدوي ، عصر الدويلات الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ، 228

316- عبد الفتاح مقلد غنيمي ،موسوعة تاريخ المغرب العربي ، مرجع سابق ، ج6 ، ص ،34

317- صالح عباد ، الجزائر خلال الحكم التركي ، مرجع سابق ، ص ، 76

318- عبد الفتاح مقلد غنيمي ،موسوعة تاريخ المغرب العربي ، مرجع سابق ، ج6 ، ص ، 40

319- يوسف علي بدوي ، عصر الدويلات الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ، 218

320- عبد الفتاح مقلد غنيمي ،موسوعة تاريخ المغرب العربي ، مرجع سابق ، ج6 ، ص ، 129

321-إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، مرجع سابق ، ص ، 285

322-إبراهيم حركات ، المرجع نفسه ، ص ، 287

323- إبراهيم حركات ، المرجع نفسه ، ص ، 289

المغرب في تاريخ الدولة السعدية هي فترة حكم أحمد المنصور الذهبي (1578 م –1603م)الذي كان له شعر غزير[324]،وكان واسع الثقافة،وقرّب إليه العلماء والفقهاء حتى عرف بخليفة العلماءوعالم الفقهاء[325] .

ومن شدة حبّه للعلماء فقد قام بتخليص أحمد بن القاضي من الأسر باذلا في فدائه 20.000 أوقية من الذهب (ما ينيف عن مائة كيلو ذهب)[326]،ومن أبرز إنجازات أحمد المنصور بناؤه للقصر الكبير في مراكش،الذي استخدم فيه الآلاف من البنائين و العمال ... حيث ذكر الوفرني أن الايرلنديين كانوا يبادلون الرخام في مراكش بما يوازي ثقله و وزنه من السكر وأطلق عليه قصر البديع[327] وقد امتد حكمه أكثر من ستة وعشرين سنة[328] . ومما تجدر الإشارة إليه و يحسب لأحمد المنصور إنشاؤه لمكتبة أطلق عليها المؤرخون اسم الخزانة الأحمدية أو السعدية التي تعتبر أكثر تطورا وملائمة حيث تتوفر على قاعة للمطالعة و أخرى لحفظ الكتب (القبّة) من ثلاثين متر مربع،و جهّزت برفوف خشبية توضع عليها الكتب وبها نوافذ تسمح للضوء وللهواء بالدخول[329]. وهكذا يذكر المؤرخون أنه إلى جانب الخزانة الكبرى كانت هناك زهاء ثلاثة و ثلاثين مكتبة فرعية موزعة جغرافيا بدقة شديدة،خمسة عشر خزانة غربي جامع القرويين،وسبعة شمالها،وخمسة شرقييها،وخمسة جنوبييه...وقد كانت كلها في خدمة الطلبة والمدرسين على حد سواء ،فضلا عن العموم في فترات متعددة[330]

وقبل أن نختم هذا المبحث لا بدّ لنا من الإشارة إلى بعض مشاهير المغرب في هذا العصر ،و من أبرزهم :

– **سقين** : هو أبو محمد بن سقين السفياني العاصمي القصري أحد مشاهير رجال الحديث.. تولى الخطابة بجامع الأندلس (بفاس) و كذا الفتوى ...توفي سنة 956هـ/1549م

– **القصار** : هو أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسي الفاسي ، فقيه و محدّث و نسّابة... كانت تضرب أكباد الإبل للأخذ عنه والسماع منه... ولي الفتوى على عهد أبي العباس المنصور ، و الخطابة و الإمامة ، بمسجد القرويين... وقد ضاع بفقده علم كثير لأنه لم يؤلف كتابا قط ولم يخلف بعده أثرا يذكر ما عدا فهرسته وأنظامه الكثيرة ،ومسوداته التي بيعت وزنا بالأرطال،توفي في رمضان سنة 1012هـ/1603م.[331]

---

[324]– مؤرخ مجهول،تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية ،ط1 ، 1994 ،تقديم و تحقيق عبد الرحيم بنحادة ،دار تينمل للطباعة و النشر ، ص ، 63 ، 64 ، 65 ، 66 ، أنظر كذلك : يوسف علي بدوي ، عصر الدويلات الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ، 218

[325]– شوقي عطاالله الجمل ، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، مرجع سابق .ص56 ولمزيد من التفاصيل حول اعمال هذه الشخصية الكبيرةراجع:الفشتالي :مناهل الصفا في تاريخ موالينا الشرفا–إبن القاضي،المنتقى المقصور على مآثر خلافة المنصور– التمجروتي،النفحة المسكية في السفارة التركية

[326]– مجلة دعوة الحق ، العدد 93 ، المنتقى المقصورعلى مآثر خلافة المنصور (لابن القاضي)

[327]– ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، مرجع سابق ، ص ، 197

[328]– إبراهيم حركات ، المرجع نفسه ص ، 200

[329]– نزهة بن الخياط،مكتبة جامع القرويين عبر التاريخ،المجلة المغربية للتوثيق و المعلومات ،العدد،03 مارس ،1985 ، تونس ، ص،12

[330]– نزهة بن الخياط ، المقال السابق ، ص ، 13

[331]– عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ط2 ، ص 236 ، 237

-**اليسيثني** : هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمان اليسيثني الفاسي الفقيه المتكلم النظار . نشأ حريصا على طلب العلم مجتهدا فيه ... أخذ عن أهل تلمسان وقسنطينة وتونس ومصر ومكة ... فكثر تحصيله،ثم رجع إلى فاس فتولى الفتوى ...وكان زاهدا ورعا متفانيا في النصح والإرشادوقد ألف عدة تآليف منها،رسالة في تصحيح قبلة فاس،توفي سنة 959هـ/1551م .[332]

وخلاصة القول فإنه إذا كان التعليم بمختلف مؤسساته هو حجر الزاوية،في ثقافة أمة من الأمم،فإن دول المغرب الإسلامي،في مختلف فترات حياتها،قد اهتمّت بالتعليم،سواء ببناء المدارس،أوالكتاتيب،أوالمساجد أوحتى الاهتمام بالزوايا،لأنها بمثابة الوعاء الحقيقي الذي حافظت من خلاله على مكوّنات هويتها العربية الإسلامية. ورغم مميزات الحياة الثقافية خاصة خلال القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي،من تقليد واجترار لمؤلفات الرعيل الأوّل من العلماء المسلمين،إلاّ أنّ ذلك قد خدم الثقافة المحلية بالحفاظ على تماسك المجتمع وترابط أبنائه في بوتقة العروبة والإسلام. والملفت للنظر كذلك هو ظاهرة التصوف،التي طغت على المجتمع سواء في الحواضر أوالأرياف،والتي أصبحت سمة العصر،ولوأنّ إرهاصاتها كانت قبل هذا القرن بكثير،فإنها قد ساهمت هي الأخرى في احتواء المجتمع أفرادا وجماعات ورغم ما لها من إيجابيات،فقد طبعت على سلوكيات غالبيتهم بالزهد في الدنيا والاكتفاء منها بالرضى والقناعة وهوما ساهم في ركود المجتمع وتقهقره وجعله لقمة سائغة للدخيل الأجنبي،ولو بعد حين .

[332]- عبد الله كنون ، المرجع نفسه ، ص، 250

الفصل الثالث : هجرة علماء الجزائر إلى المغرب خلال 10هـ/ 16م و نتائجها

ويتضمن :

المبحث الأول:

الهجرة الجزائرية نحو المغرب الأقصى و دوافعها

المبحث الثاني:

هجرة العلماء إلى فاس في القرن 10هـ/ 16م

المبحث الثالث :

تقارب و امتداد ثقافة البلدين(المغربين الأوسط و الأقصى) خلال القرن 10هـ/16م

المبحث الرابع :

نتائج هجرة علماء تلمسان إلى فاس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول

الهجرة الجزائرية نحو المغرب الأقصى ودوافعها

إذا كان الاستقرار يبعث في نفسية الإنسان التمتع بملذات الحياة ومن ثمة الركون إلى الخمول(في بعض الأحيان).فإن التنقل من مكان إلى آخر (رغم الصعاب التي تعترض الإنسان من خلاله) له متعته في اكتشاف أرض الله الواسعة وما تحتويه من مظاهر طبيعية و بشرية و عمرانية ... و هذا التنقل قد يكون طواعية عن طريق الرحلة وقد يكون قسريا. عن طريق الهجرة الإجبارية ،إذ عرف الإنسان الهجرة منذ القدم ، و قد كان النبي ﷺ قد حث أصحابه على الهجرة إلى الحبشة (الهجرة الأولى) التي تعتبر أول هجرة في الإسلام وقد شهدت دول المغرب الإسلامي عدة هجرات أبرزها الهجرة الهلالية ،حوالي منتصف القرن الحادي عشر ميلادي ،وقد أضحت الهجرة بذلك ظاهرة ألفتها الشعوب لما لها من أهمية في تغير الواقع المعاش للفرد و الجماعات .

ولعل ما يهمنا في هذا المقام هو تلك الهجرة التي شهدها المغرب الأوسط في العصر الحديث لنخبة من العلماء مع منتصف القرن 10هـ/16م فما هو مفهوم الهجرة ،وما هي أسبابها ؟ ولماذا شملت هذه الهجرة نخبة من العلماء ؟ وإلى أين كانت وجهتهم ؟ وما هي آثار هذه الهجرة على المغرب الأوسط من جهة و على الأماكن المهاجر إليها من جهة ثانية . هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المبحث .

تعريف الهجرة

هي الخروج من أرض إلى أخرى،والهجرة هي انتقال الأفراد من مكان إلى آخرسعيا وراء الرزق[333] ويقال هاجر أي ترك وطنه،وهاجر من مكان كذا أو عنه أي تركه و خرج منه إلى غيره ، وهاجر القوم أي هجرهم وانتقل إلى آخرين[334]،وفي التنزيل العزيز " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم "[335]

والإسلام يؤكد على وجوب الهجرة من بلاد الكفر،ومن بلاد الضلال،والتي يتعرض فيها الإنسان المسلم إلى الضغط العقيدي الذي يحوّل الإنسان إلى كافر أو إلى ضال أو منحرف بفعل القوى المضادة المعادية للإسلام والمسلمين الذين لا يملكون فيها حرية الحركة[336] لأداء شعائرهم الدينية . وعندما سُئل أبو العباس أحمد بن

---

[333] – شوقي ضيف ، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، ط4 ، مكتبة الشرق الدولية ، جمهورية مصر ، 1425هـ / 2004م ، ص ، 973

[334] – شوقي ضيف. نفس المرجع ، ص ،973

[335] – سورة الحشر ، الآيتان 8و9

[336] – عادل القاضي ، الهجرة و الاغتراب ، تأسيس فقهي لمشكلة اللجوء و الهجرة ، ط1 ، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت ، لبنان ، 1419هـ / 1999م ، ص . 45

يحي بن محمد التلمساني الونشريسي عن حكم الهجرة أجاب ((أن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أوفتنة[337] .ولما كانت الهجرة ذات أهمية في الإسلام، فقد وردت كثير من الآيات الداعية إلى وجوب الهجرة .منها قوله تعالى (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أوماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا،وأن الله لهو خير الرازقين)[338] وقوله تعالى (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما)[339] .

كما وردت كثير من الأحاديث النبوية الدالة على وجوب الهجرة ،ومنها في سنن أبي داود من حديث معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة،ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) وفي حديث ابن عباس قال،قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة (لا هجرة بعد الفتح،ولكن جهاد ونية وإن أستنفرتم فانفروا)[340]

إن حركة الهجرة والتنقل بين البلدين المغرب الأوسط،والمغرب الأقصى كانت ظاهرة قائمة قبل القرن 10هـ / 16م[341] والملفت للانتباه أن هذا التنقل شمل فئة العلماء والمثقفين خاصة – خلال القرن المذكور – إذ لم تكن ثمة عراقيل أومشاكل حدودية تمنع تنقل هؤلاء الأشخاص من وإلى البلدين ذلك أن تنقل المثقفين والدارسين بين المغرب والجزائر كتنقل سكان الجزائريين مدينتي وهران وتلمسان وسكان المغرب بين مدينتي فاس ومكناس[342]

ومن خلال ما سبق ذكره حق لنا أن نتساءل عن تلك الهجرة – موضوع البحث – التي شملت مجموعة من العلماء مع منتصف القرن 10هـ/16م من المغرب الأوسط ، إلى المغرب الأقصى ، هل كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ؟ أم أن هذه الهجرة كانت بسبب التواجد العثماني بالمغرب الأوسط؟ وما نظرة هؤلاء العلماء إلى الأتراك من جهة ،وإلى الأسرة الحاكمة في المغرب الأقصى من جهة ثانية ؟

---

[337]–أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد التلمساني الونشريسي ، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى و لم يهاجر ، و ما يترتب عليه من العقوبات و الزواجر ، تحقيق، د.حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، 1416هـ/1996م ، ص،25 . للتوسع أكثر حول موضوع الهجرة في الاسلام أنظر: حسين بن عودة العوايشة ، الفصل المبين في مسألة الهجرة و مفارقة المشركين،ط1 ، دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع،لبنان، 1423هـ/ 2002 م

[338]– سورة الحج ، الآية ،58

[339]– سورة النساء ، الآية 100

[340] – أبو العباس أحمد بن يحي من محمد التلمساني الونشريسي ، أسنى المتاجر ، مصدر سابق ، ص ، 35

[341]– عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب في القرن 10هـ/16م . الجزء الثاني ، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع ، ص ، 111

[342]– أرزقي شويتام ، العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية) ، مجلة الدراسات التاريخية ، جامعة الجزائر ، العدد :13 ، 1433هـ/2011م ، ص، 85

من خلال تتبعنا و قراءتنا لبعض المصادر والمراجع اتضح لنا أن هجرة العلماء من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى لم تكن وليدة القرن 10هـ/16م ولم تكن وليدة سبب بعينه بل لها أسباب متعددة .

أسباب الهجرة الجزائرية نحو المغرب الأقصى :

قبل التطرق إلى الأسباب والدوافع الرئيسية لحركة الهجرة الخارجية من وإلى البلدين (المغرب الأوسط والمغرب الأقصى) – موضوع البحث – تجدر الإشارة إلى أن الهجرة نوعان :

أ – هجرة قسرية(إجبارية) تكون نتيجة لاضطرابات سياسية أوعسكرية ،أوهروبا من أوضاع غير مرضية وهي ما عبّر عنها أحد مؤرخينا المعاصرين بالهجرة الدائمة[343]

ب– هجرة طوعية: وهي تلك التي تصدر بإرادة الفرد أو الجماعة ،وتكون مؤقتة تنتهي بانتهاء دوافعها [344]

ومن أبرز أسباب وعوامل الهجرة الخارجية من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى في الفترة موضوع الدراسة نذكر ما يلي :

العامل الأول: وجود فائض من العلماء (خاصة في تلمسان)التي تكونت بها طبقة كبيرة من العلماء من أُسر عدّة ، كأسرة: ابن مرزوق، والمقري،والعقباني،والسنوسي،وابن زاغوا،وابن زكري،فتخرج بذلك عدد ضخم من العلماء لم ينزح إلى ريف البلاد،وهم أبناء حواضر،فآثاروا الهجرة إلى حواضر مغربية أخرى كفاس [345]

العامل الثاني:اضطراب الوضع السياسي وكثرة الفتن بسبب النزاع حول الحكم (الأسرة الزيانية) وتدخل القبائل لمناصرة هذا الفريق أو ذاك[346]،ونفس الشيء يقال عن المغرب الأقصى خاصة في عهد الدولة السعدية إذ هاجر ثلاثة من الأمراء السعديين وهم (عبد الملك وأحمدوعبد المؤمن) والعديد من أتباعهم من المغرب إلى الجزائر بعد أن آل الحكم فيه إلى أخيهم عبد الله[347]

العامل الثالث : ولعل هذا العامل هو أكبر وأهم وأبرز ما يهمنا ، باعتباره يخدم – موضوع البحث – والذي أشارت إليه كثير من المصادر والمراجع والمتمثل في تعسف العثمانيين وطغيانهم في أوائل حكمهم،خاصة سياسة العنف التي استعملها عروج في تلمسان ... إذ أنه لما استقرأمرتلمسان و نواحيها للأتراك العثمانيين في أواسط

---

[343]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 423 أنظر كذلك : عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب في القرن 10هـ/ 16م ، الجزء الثاني ، مرجع سابق ،صص، 111 ، 112 ؛ كذلك : عبد المجيد قدور هجرة الأندلسيين الى المغرب الأوسط خلال ق 16 م- 17 م ونتائجها الحضارية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة ، 1994

[344]– عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب في القرن 10هـ/ 16م ، الجزء الثاني ، مرجع سابق ص، 113

[345] –العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني ، مجلة سرتا ، عدد، 03 ، 1400 هـ / 1980م ،ص59

[346] – قاصري محمد السعيد، المهاجرون الجزائريون و دورهم السياسي و الثقافي و الاجتماعي في المغرب الأقصى(1830 – 1930)، رسالة دكتوراه بإشراف د. عميراوي أحميدة ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2008 / 2009 ، ص ،14

[347]– عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب في القرن 10هـ/ 16م ، الجزء الثاني ، مرجع سابق ص، 112

القرن 10هـ/16م،هاجرت قبائل عرب الشراقة،الذين كانوا يستوطنون منطقة تلمسان ووجدة إلى المغرب فرارا من سلطة الأتراك عليهم،وهروبا من دفع الضرائب الباهظة إليهم،وآثروا الدخول في خدمة الأشراف السعديين[348].

كل هذه العوامل وغيرهاجعلت العلماء لايشعرون بالراحة ولابالجو الملائم والاجتهاد في الرأي والحياد السياسي[349] ومن ثمة رفض بعض رجال الدين التواجد العثماني باعتبارهم عجم ، إذ أن الوجق العثماني يظم أجناسا مختلفة اللسان والعرق والجغرافيا (يونانيين وألبان،وأرمن وبولونيين من أناضوليا ومن البلقان) [350]،وقد صدرت بذلك فتاوى ترفضهم وتصفهم بالغرباء من أمثلة ذلك صدور فتوى من مرابط جنوب الجزائر،هو سلطان بني جلاب في تقرت و قاضيها،والذي نظّم حملة مضادة للعثمانيين وأفتى بوجوب محاربتهم محتواها (من يقتل أحد الأتراك سوف ينال رضى من الله وهو في مرتبة من قتل ملحد أو كافر) [351]،وكان سيد تلمسان سيدي محمد بن يوسف السنوسي يؤكد أنه لا يوجد شيء أصعب من العيش مع مسيحي وتحت السلطة العثمانية فلا يتوقف عن ترديد عبارة الترك و النصارى الكل في زمرة واحدة[352] وقد عبر الأديب العالم أبو عثمان المنداسي بن عبد الله التلمساني عن ظلم وجور الأتراك بقصيدة سماها العقيقة بقوله :

أمـــن قادر بالله يحمي تلمسان فإن بها مــن قـوم ياجـوج إخوانا
بنى السد ذو القرنين للناس رحمـة فياليته مــن شوكـــة الترك هنانا
سمعنا حــديثا صـادق النقل ربــه بأن لجنس الترك في الأرض إخوانا
و لكــن وراء السد عــمّ فساد هم وهم أفسدوا في الغرب كفرا تلمسانا[353]

وإذا كان العاملان الثاني والثالث المشار إليهما سابقا – أساسيان – في هجرة الأفراد و الجماعات – خلال الفترة موضوع البحث- فان هناك عوامل أخرى لا تقل أهمية عنهما و المتمثلة في :

الهجرة لاستكمال الدراسة وطلب العلم،أو للعمل ،أولزيارة الأضرحةوكبار شيوخ الصوفية والمرابطين[354]

ويضيف الأستاذ سعد الله عوامل أخرى متمثلة في كثرة مراكز التعليم،ووفرة المكتبات ووجود جامع القرويين

---

[348] –محمد الصغير الوفراني ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ،مصدر سابق، ص ، 174

[349] – سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، ص ، 424

[350]-Grammont (Henri-delmas)Histoire d'Alger sous la domination turque(1515-1830), présentation de lemnouar merouche,Editions bouchene , 2002 p,202

[351]– لبصير سعاد ، دوافع الهجرة الدينية و العلمية من الجزائر في العهد العثماني ، 1516 – 1830 ، أعمال الملتقى العلمي الأول سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي و الحاضر،مايو ، 2008 ص، 59 ، نقلا عن :
(Ch) feraud , les ben-jallab, p 140

[352]–سعاد لبصير، المقال السابق ، ص، 59 ، نقلا عن : Kamel,filali, l algerie,mystique,p,64

[353] – سعاد لبصير، المقال السابق ،ص، 60 ، نقلا عن : أحمد بن سحنون الراشدي الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ص ، 54,55

[354] – عمار بن خروف العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب في القرن 10هـ/16م ، الجزء الثاني ،صص ، 113 ، 114، 115 ،116 ، وهذه العوامل التي تطرق إليها الأستاذ بن خروف في هذه الصفحات تدخل ضمن الهجرة الطوعية

وتقدير ولاّة المغرب لأهل العلم إضافة إلى وجود جذور تاريخية من أسر وأنساب وتجارة بالمغرب ،كما أن الجو العلمي في المغرب أفضل منه في الجزائر آنذاك ،رغم تقلب الأحوال السياسية [355]

ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن معظم الفئات المهاجرة كانت الطبقة المثقفة الواعية التي كانت تريد تغيير واقعها المعاش وذلك بالانتقال إلى المغرب – خاصة فاس- للعوامل والأسباب السابق ذكرها

المبحث الثاني

هجرة علماءتلمسان إلى فاس في القرن 10هـ/ 16م

شملت الهجرة التي سنتحدث عنها في الفترة – موضوع البحث- علماء أجلاء أغلبهم من الغرب الجزائري – خاصة تلمسان – فما هي دوافع وأسباب هذه الهجرة ؟ وهل كانت مقتصرة على فترة القرن 10هـ / 16م ؟ ولماذا كان السواد الأعظم من هؤلاء المهاجرين العلماء من تلمسان ؟

شهدت العلاقات بين المغربين الأوسط والأقصى اضطرابات واصطدامات متعددة،كنا قد أشرنا إليها في الفصل الأول من هذا البحث وذلك منذ نهاية دولة الموحدين(منتصف القرن الثالث عشر ميلادي) واشتدّ التنافس خاصة على تلمسان في عهد الدولة السعدية لاسيما مع منتصف القرن 10هـ/16م ومردّ ذلك إلى نظرة الحكام السعديين إلى الأتراك على اعتبار أنهم عجم ذلك أن (الأتراك هم من جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وصورا للإسلام،وإن كان أكثرهم وأكثر أتباعهم ممن يصدقوا عليهم قوله ﷺ: إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر [356] ويعلق التمجروتي، صاحب النفحة المسكية على مسألة الخلافة العثمانية – بقوله : (و إن كانوا إنما حملوا الإمارة وقلّدوا (بضم القاف وكسر اللام) الأمر في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها وهم موالينا،وسادتنا الشرفاء ملوك المغرب .. وقد أجمع المسلمون على أن الخلافة لا تنعقد إلا لمن هو من صحيح قريش) [357] .

ويتحدث التمجروتي عن أفعال وخصال الأتراك السلبية ، عندما مرّ بليبيا سنة 997هـ/1589م (بأنهم قد جاروا على أهلها،وأفسدوا فيها،وضيّقوا عليهم في أرضهم وديارهم وأموالهم،واستباحوا حريم المسلمين حتى أن بنت الإنسان من الأعيان والأكابر إذا كان لهم فيها غرض لا يقدر أحد أن يمنعها منهم – أعني النكاح – ولا أن ينكحها لغيرهم ، إلى غير ذلك من الذل والإهانة التي هم فيها معهم [358]

---

[355] – سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1، مرجع سابق، ص، 428

[356] – فهد بن محمد ، السويكت ، مواقف الإشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية ، مجلة جامعة الملك سعود للآداب ،م (19) ، 1427هـ / 2006م ، ص ،. 183

[357] – التمجروتي علي بن محمد ، النفحة المسكية في السفارة التركية ، تقديم وتحقيق ، عبد اللطيف الشاذلي ، الرباط، ص ، 135 ، 2002 م ومما تجدر الإشارة إليه هو أنه عندما تسلم السلطان سليم الأول مفاتيح الكعبة من ابن شريف مكة سنة 1517م ، قد كرّس دوره كخليفة و أميرا للمؤمنين (سلطة دينية و سياسية) على شرق المتوسط و كان يريد توسيع هذه السلطة على غرب المتوسط ، أنظر ، فهد بن محمد السويكت ، مواقف الأشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية ، مقال سابق ، ص ، 180

[358] – فهد بن محمد السويكت المقال السابق ، ص ، 184

ويرى ابن القاضي بأن السعديين أحق بالخلافة من الأتراك بسبب شرفهم[359] وبالمقابل فإن الأتراك العثمانيين في تركيا أو الجزائر —سواء بسواء–كانوا ينظرون إلى المغرب الأقصى على أنه امتداد للعالم الإسلامي،الذي تمكنت الدولة العثمانية من توحيده وجعله تابعا لإسطنبول، أي إلى الخلافة الإسلامية ولن يتأتى لها ذلك إلا بجعل المغرب الأقصى تابعا لهذه الخلافة التي تشرف عليها الدولة العثمانية . بل كان طموح سلاطين الدولة العثمانية أبعد من ذلك إذ أنه عندما ألقى السلطان العثماني سليم الأول نظرة على خارطة الأرض استصغرها وقال (وهل تتسع هذه الدنيا لأكثر من ملك واحد)[360]

ومما يشجع هذا الطرح هو أن الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي رفعت لواء الجهاد وهوما تذهب إليه الأستاذة نفيسة الذهبي بقولها :(أن العثمانيين دخلوا البحر المتوسط في البداية من خلفية دينية بدافع الجهاد لأنه واجب يلزمهم باعتبارهم حماة للإسلام.وبما أن منطقة الشمال الإفريقي مهددة من قبل النصارى فضمها للدولة أولى من تركها،وبذلك يكون حضورهم رد فعل تلقائي ،ونوع من النجدة والإغاثة لأهل هذه المنطقة وليس نوعا من الاحتلال كما ادعى البعض)[361] .

وعليه ومن خلال جدلية الخلافة بين العثمانيين والأسرة السعدية ظهر في المغرب الأوسط خاصة في تلمسان من يؤيد الأسرة السعدية ومن ثمة طلبوا ضم تلمسان إلى المغرب الأقصى بل وجّهوا نداءات استغاثة إلى الأمراء السعديين[362] لكن لماذا تلمسان ؟ ولماذا فضّل معظم هؤلاء المهاجرين من العلماء مدينة فاس ؟

---

[359]– ابن القاضي أحمد ، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ج1 ، دراسة و تحقيق : محمد رزوق ، مكتبة المعارف ص، 263، الرباط ، 1986.باستيلائه على مراكش عام 1544م ، اتخذ محمد الشيخ لقب الخلافة ... و من الغريب .أن عددا من كبار الفقهاء منهم عبد الواحد الونشريسي (سنتطرق لهذه الشخصية العلمية و الأدبية و الدينية السامية في الصفحات المقبلة) ، رفضوا بيعة السعديين ... و اعتمد السعديون في مسألة البيعة على نسبهم و تراثهم الشريف أي التمسك بالقرشية والانتماء للسلالة النبوية و بالتالي أفضليتهم على منافسيهم الوطاسيين في الغرب و العثمانيين في الشرق و بأن البيعة في قريش سادة العرب و هم منهم أنظر :

Willis,j , r, the bayca in islam, and some a spects of the bayca in morroco s relations with the western sudan

منشور باللغة الإنجليزية ضمن أعمال مؤتمر المغرب و إفريقيا ، و جنوب الصحراء في بداية العصر الحديث، معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط ، 1992،ص، 221 ،راجع فهد بن محمد السويكت،مواقف الأشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية،مقال سابق، ص ، 182

[360] – نفيسة الذهبي ، الدولة العثمانية في مجالها المتوسطي خلال القرن 16م بين إستراتيجية الجهاد و صراع الهيمنة ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم، 109،بعنوان ،العثمانيون و العالم المتوسطي ، مقاربات جديدة، تنسيق ، عبد الرحمان المؤدن ، عبد الرحيم بنحادة ص 81، ط1،،2003

[361] – نفيسة الذهبي ،المقال السابق . ص، 89.

[362] – كانت هناك ثلاث حملات من الأسرة السعدية على تلمسان فالحملة الأولى سنة (957هـ و 958هـ / 1550م و 1551م) وذلك بعد دعوة أعيان و علماء تلمسان السلطان محمد الشيخ إلى مدينتهم و كان محمد الشيخ قد وعد أعيان و قبائل تلمسان ب القدوم إليهم وإعفائهم من الضرائب لمدة سنتين .

والحملة الثانية كانت سنة (964هـ / 1557م) التي تمكن فيها محمد الشيخ من دخول تلمسان بسهولة بسبب اضطرابات حدثت في الجزائر بوفاة صالح رايس ، وكادت هذه الحملة أن تتمكن من ضم تلمسان إلى المغرب لأن السلطان السعدي كان في اتصالات حثيثة مع الأسبان الذين وعدوه بتقديم مساعدات مادية وبشرية لكنهم خذلوه ، فاضطر إلى الانسحاب من تلمسان في نفس السنة ، بعد أن جهّز حسن بن خير الدين حملة لتحرير تلمسان في نفس السنة .

أهمية تلمسان

يذهب أغلب المؤرخين إلى القول بأن تلمسان[363] قديمة النشأة ويقول عنها مارمول كاربخال أنها : ثالثة ممالك بلاد البربر ،فقد سماها القدامى موريتانيا القصرية[364] وكان يطلق عليها اسم بوماريا أي البساتين[365] وتلمسان كما جاء على لسان يحي بن خلدون (...كلمة بربرية مركبة من تلم ومعناه تجمع ،وسان معناه اثنان ، أي الصحراء والتل ... و يقال فيها أيضا(تلشان) وهو أيضا مركب من تل و معناه بال، وشان أي لها شأن عظيم)[366] ، ويضيف قائلا:هي مدينة عريقة في التمدن لذيذة في الهواء ، عذبة الماء كريمة المنبت [367] تمتد مملكة تلمسان على مسافة ثلاثة مائة و ثمانين ميلا،من الشرق إلى الغرب،لكنها تضيق جدا من الشمال إلى الجنوب إذ لا تتعدى المسافة خمسة وعشرين ميلا في بعض النقاط،من البحر إلى تخوم صحراء نوميديا[368].

أما الحملة الثالثة : كانت سنة (968هـ / 1560م) كانت هذه الحملة لأسباب أولها انتقام السلطان عبد الله الغالب بالله لمقتل أبيه ، محمد الشيخ من طرف الأتراك 29 ذي الحجة سنة 964هـ ، 23 أكتوبر 1557م . من طرف القائد صالح كاهية رفقة 12 تركي و ثانيها فشل حملة حسن بن خير الدين على المغرب و انهزامه في معركة وادي اللبن بأحواز فاس سنة 965هـ / 1552م مما زاد في قوة و شعبية السلطان السعدي عبد الله الغالب و ثالثها ثورة أهالي تلمسان ضد الحامية التركية بإيعاز من السلطان عبد الله الغالب نفسه و رابعها انشغال حسن باشا بالمشاكل الداخلية خاصة في قمعه لتمرد بني عباس ببلاد القبائل ، و خامستها استغاثة سكان تلمسان خاصة العلماء بالسلطان السعدي عبد الله الغالب بالله ، و رغم انسحاب القوات المغربية سريعا من تلمسان بعد عودة حسن بن خير الدين من بلاد القبائل و مواجهة الموقف الجديد في الغرب الجزائري إلا أن الجنود المغاربة بأمر من السلطان السعدي نقلوا الكثير من التلمسانيين إلى فاس بينهم طائفة هامة من علمائها و فقهائها ، و سوف نتطرق لأبرز هؤلاء العلماء في الصفحات اللاحقة . لمزيد من التفاصيل عن الحملات الثلاث السابق ذكرها أنظر :

ديكودي طوريس ، تاريخ الشرفاء ، ،ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر،نشر الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر ، شركة النشر و التوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب

الأفراني ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، صحح عباراته التاريخية السيد هوداس ، مطبعة أنجى 1888

عمار بن خروف ، العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب في القرن 10م/16م الجزء الأول ؛وبالفرنسيةانظر :

- August cour, l etablissements des dynadties des cherifs au maroc et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger (1509-1830) leroux editions, paris, 1904.

[363]- أنظر الخريطة ص:127 من هذه المذكرة

[364]- مارمول كاربخال،إفريقيا ،ترجمة ،محمد حجي وآخرون ، ج2 ،دارنشر المعرفة ، ص،291 ، 1989

[365]- لطيفة بشاري ، العلاقات التجارية للمغرب الأوسط ، منشورات وزارة الشؤون الدينية، 2011 ، ص ، 27 ، ، نقلا عن :

marcais (g): e.i. art ,Tlemcen. T.4 , nelle édition. P,08

[366] - أبو زكريا يحي ابن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، مطبعة ،بيير فونطانا الشرقية في الجزائر ، طبعة1331هـ/ 1903م ،ص ، 09

[367]- أبو زكريا يحي بن خلدون . نفس المصدر. ص ، 09 ، وقد وصفها لسان الدين ابن الخطيب بأنها مدينة جمعت بين الصحراء والريف ووضعت في موضع شريف ... عبادها يدها ، وكهفها كفها،وزينتها زيانها ، و عينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد و هواءها الممدود صحيح عتيد ، و ماؤها بارود صريد ... فواكهها عديدة الأنواع و متاجرها فريدة الانتفاع ... ليس بها لسع العقارب إلا فيما بين الأقارب، أنظر محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج ، مرجع سابق ، ص ، 224، نقلا عن نفح الطيب ،ج6 ، ص ، 337 و للإلمام بماضي تلمسان عبر التاريخ أنظر محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور دورها في سياسة و حضارة الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984

[368]- الحسن بن محمد الوزان الفاسي ، وصف إفريقيا ، ترجمة، محمد حجي ، ومحمد الأخضر، ج2 ، دار الغرب الإسلامي ص ، 08

ونواة مدينة تلمسان القديمة هي قرية (أقادير) التي اختطها بنو يفرن الزناتيون في عصور قديمة و كانت هي والمناطق المجاورة منطقة التوطن لقبيلة زناتة الكبيرة ذات الفروع المتعددة،وثاني القبائل القوية بالمغرب العربي بعد صنهاجة و تليها كتامة[369]

ونظرا لهذه الخصائص والمميزات استحقت أن تكون تلمسان بالفعل عاصمة للدولة الزيانية.ومميزات الحياة السياسية والثقافية خلال حكم هذه الدولة كنا قد أشرنا إليهما في الفصليين الأول والثاني من هذا البحث وقد أجمع كثير من المؤرخين على أن تلمسان كانت من أهم المراكز العلمية في الجزائر خلال عدة قرون قبل أن تضطرب الأوضاع السياسية فيها اضطرابا شديدا،طوال النصف الأول من القرن 10هـ/ 16م وبانتهاء الدولة الزيانية فقدت تلمسان الكثير من أهميتها[370]

ولما لم تعد عاصمة للدولة فقد فضل كثير من طلبتها وعلمائها الهجرة منها ولاسيما في سنة 968هـ / 1560م،إما إلى المغرب القريب منها أوإلى غيره من البلدان،بحثا عن الأمان والاستقرار والجو المناسب للأخذ و العطاءوالجاه والوظيفة[371] وعندئذ كانت حاضرة فاس مقصد السواد الأعظم من هؤلاء العلماء المهاجرين،ترى لماذا مدينة فاس بالضبط ؟

أهمية فـــاس

تبتدئ مملكة فاس[372] من نهر أم الربيع غربا لتنتهي إلى نهر ملوية شرقا وفي الشمال يحدّ قسم منها بالبحر المحيط وسائرها بالبحر المتوسط،وقد أسس مدينة فاس ثائر شيعي وظلت السلطة في يد أسرته ما يقارب مائة وخمسين سنة،ولم يظهراسم مملكة فاس إلا عندما سيطرت أسرة بني مرين واتخذوا من فاس قاعدة لملكهم وحصن دفاعهم[373] وقد كان ذلك سنة 646هـ / 1248م

ويذكر صاحب سلوة الأنفاس بأن بداية تأسيس مدينة فاس كان صبيحة يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة إثنين وتسعين ومائة،ورفع يديه عند إرادة الشروع في بناءها،ودعا لها ولأهلها وقال: (اللهم اجعلها دارعلم وفقه،يتلى بها كتابك وتقام فيها حدودك واجعل أهلها متمسكين بالكتاب والسنة ما أبقيتها[374] وتفوق مدينة

---

[369]– يحي بوعزيز، موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر والعرب ج1 ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ص، 62

[370]– عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب ، مرجع سابق ص ، 158

[371]– نفسه ، ص ، 159

[372]– أنظر الخريطة ص، 161،مملكة فاس ، حسن الوزان ، وصف افريقيا ج 1 ، مصدر سابق ،ص ، 192 ، كذلك الخريطة ص، 162 ، فاس ملتقى الطرق في المغرب ، روجيه لوتورنو ،مرجع سابق، ترجمة ، نقولا زيادة ، ص ، 6

[373]– حسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج1 مصدر سابق ، ص ، 192 ، و يقصد حسن الوزان بالثائر الشيعي ، إدريس بن عبد الله ين حسن ، بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي فر من العباسيين في موقعة فخ الشهيدة ، و جاء إلى المغرب فبايعته قبيلة أوربة وغيرها بمدينة وليلي في جبل زرهون عام 172هـ / 788م و هناك اختلاف في مؤسس مدينة فاس هل هو إدريس الأول أم ابنه إدريس الثاني ؟ والراجح هو إدريس الثاني

[374]– الكتاني محمد بن جعفر،سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، حققها ووضع فيها رسميا حفيد المؤلف الشريف محمد حزة بن علي الكتاني ج1 ، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس (04) ص ، 73

فاس سائر مدن الأرض أن بها مائين ماء العيون وماء الأنهار فمياه العيون باردة في الصيف حين يراد ذلك منها لتبرد الحر،وتقطع الظمأ،وهي أيضا سخنة في الشتاءوحين يحتاج إلى ذلك منها،ومياه الأنهار بالعكس في ذلك سخنة في الصيف باردة في الشتاء فلا يزال الماء الساخن و البارد موجودين بها في الشتاء و الصيف فهي بسبب ذلك معينة على الدين و الطهارة والصلاة و التنظيف[375] وقد اختلفت الروايات التي ذكرها الجزنائي في كتابه زهرة الآس و نختار منها ما يلي :

الرواية الأولى : هي أنه عندما عزم الإمام إدريس على بناء مدين فاس واختطها مرّ به شيخ كبير من الرهبان كان مترهبا بصومعة قريبة من تلك الجهات، فسأل الشيخ الإمام إدريس : ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين فقال: أريد أن أختطّ بينهما مدينة لسكناي وسكنى ولدي من بعدي ،فأخبره الشيخ بأن راهبا كان قبله توفي منذ مائة سنة وجد في كتب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى ساف خرّبت منذ ألف سنة و أنه يجددها و يحيي أثرها رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس و يكون لها شأن عظيم وقدر جسيم لا يزال دين الإسلام قائما فيها إلى يوم القيامة. فقال إدريس: الحمد لله أنا إدريس وأنا من آل النبوة وأنا بانيها إن شاء الله تعالى... ولما أتم البناء قيل للإمام إدريس كيف تسميها ؟ قال أسميها باسم المدينة التي كانت قبلها في موضعها الذي أخبرني الراهب ... ولكنني أقلب إسمها الأول وأسميها به فجاء منه فاس فسميت به[376]

الرواية الثانية : قيل أن الإمام إدريس لما شرع في بنائها كان يعمل فيها بيده مع الصناع والفعلة،فصنع له بعض خدمه فأسا من ذهب،فكان يمسكه بيده ويبدأ به الحفر ويختط به الأساسات للفعلة،فكثر ذكر ذلك الفأس على ألسنتهم في طول مدة البناء فكان الفعلة يقولون: هاتوا الفأس ، خذوا الفأس ، احفروا بالفأس ، فسميت مدينة فاس لأجل ذلك[377]

---

[375]– ابن أبي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة و الوراقة ، الرباط ، 1972 – ص ، 44 ، و قد وصفها ابن الخطيب بأنها أم القرى و موفد نار الوغى و نار القرى و مقر العز الذي لا يهضم و كرسي الخلافة الأعظم .

انظر كذلك ، عبد الهادي النازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور الى اليوم المجلد السابع عهد بني مرين و الوطالسين 1408هـ / 1988م ص ، 109

أنظر : بالفرنسية : A, beaumier roudh el-kartas, histoire des souverains du maghre (lespagne et maroc) et annales de la ville de fez, l imprimerie imperiale, paris–

كذلك : جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين ، 1056 – 1269 دراسة سياسية و حضارية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، الإسكندرية – مصر ، خاصة الصفحتان 45 ، 46

[376]– علي الجزنائي ، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور ، ط2 ، المطبعة الملكية . الرباط ، 1412هـ / 1991م ص ، 23 ، 24

[377]– علي الجزنائي. نفس المصدر . ص ، 23

الرواية الثالثة : أنه لما شرع في حفر أساسها من جهة القبلة و جد في الحفير فأس كبير طوله أربعة أشبار وسعته شبر ، ووزنه ستون رطلا من عمل الأوائل فسميت المدينة به[378]. ومهما كثرت و اختلفت الروايات في تاريخ و تسمية فاس ، فإن أبرز ما اشتهرت به هذه المدينة هو ذلك المعلم الحضاري والعلمي الذي كان يؤمه عشرات الطلبة و العلماء وتخرج منه الآلاف إنه جامع القرويين ، ذلك أن أقدم حاضرة إسلامية بالمغرب هي فاس ، وجامع القرويين فيها أقدم جامعة في العالم الإسلامي بل في العالم كله[379] .

وقد وصف حسن الوزان جامع القرويين بقوله (وفي المدينة جامع عظيم يدعى جامع القرويين وهو في غاية الكبر يبلغ محيط دائرته ميل ونصف ميل،وله واحد وثلاثون بابا كلها كبيرة وعالية ... والصومعة التي يؤذن عليها عالية جدا ويحمل السقف ثمانية وثلاثون قوسا طولا وعشرون عرضا ... وفي داخل الجامع يشاهد المرء كراسي مختلفة الأشكال يدر س عليها العديد من العلماء والأساتذة[380] وإذا كان الفضل في تطوير الحياة الفكرية وتمتينها وتعميق جذورها،ولو ببطء في فاس بفضل جامع القرويين،إنما يرجع إلى بني مرين ... فقد كان تشجيعهم لفاس هو الذي جعل منها عاصمة الفكر في المغرب وما جاوره من جهة الشرق،وقد استمرت على ذلك مدة طويلة[381].

وقد حافظت فاس على مكانتها كعاصمة لبني مرين لمدة قرنين من الزمن،ومع أواسط القرن 10هـ/16م سيطر السعديون على المغرب وبما أنهم من أهل الجنوب فإنهم اتخذوا مراكش عاصمة لدولتهم،وظلت فاس المدينة الثانية،فكان السلاطين السعديون يقصدونها للإقامة فيها طويلا ويعنون بزخرفتها ويختارون واحدا من أقارب السلطان الأدنيين ليتولى أمورها[382]

نماذج عن هجرة علماء المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى

بعد أن تعرضنا إلى أبرز و أهم العوامل التي دفعت بالعديد من الأفراد و الجماعات إلى الهجرة نحو المغرب الأقصى ، سنحاول إماطة اللثام عن مجموعة من الشخصيات العلمية التي هاجرت إلى المغرب الأقصى إذ أنه ومع بداية العهد العثماني ، و طيلة القرن 10هـ/16م ، جلبت فاس إليها معظم الفقهاء الباقين في تلمسان ونواحيها ومن العائلات التلمسانية الشهيرة التي اهتمت بالفقه ،عائلة الونشريسي،والمغيلي ،والمقري، والعقباني ومعظم أفراد هذه العائلات كانوا يترددون بين حاضرتي تلمسان وفاس[383] .وقد ظلت مشكلة الحدود هي

---

[378]– علي الجزنائي. نفس المصدر . ص ، 24

[379]– محمد حجي ، جولات تاريخية ،ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، 1995، ص ، 238 ، 239

[380]– حسن الوزان ، وصف إفريقيا ، مصدر سابق ص. 224 – 225

[381]– روجيه لوتورنو، فاس في عصربني مرين،ترجمة نقولا زيادة،مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر،بيروت ، 1967 ص ، 168 ،169

[382] –روجيه لوتورنو. نفس المرجع. ص ، 209

[383]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ، مرجع سابق ، ص ، 67 ، كذلك ،قاصري محمد السعيد ، المهاجرون الجزائريون ودورهم السياسي و الثقافي و الاجتماعي في المغرب الأقصى ، مرجع سابق ، ص ، 10، 11، 12

هاجس الحكام المغاربة ،غير أن ذلك لم يكن يخطر ببال شعوبهم ،خاصة العلماء والمثقفين منهم بصفة خاصة إذ أنهم لم يتقيدوا بفكرة الحدود عبر المراحل التاريخية المختلفة ... وحتى في تلك الفترات التي وصلت فيها العلاقات السياسية إلى ذروة التوتر فكانوا يعتبرون الأقطار المغاربية وحدة متكاملة ... إذ كان العلماء يشكلون مدرسة واحدة يتبادلون فيها المعارف[384]،كماأن أغلب حكام المغرب(وطاسين أوسعديين)كانوايتميزون باحترامهم للعلماءو مجالستهم ويصطحبونهم معهم،ويستشيرونهم ذلك أنهم كانوا هم آخذين من العلم بنصيب وافـــر[385]

لقدجاء ابن عسكر بذكر عدد من أسماء العلماء الذين كانوا ينتمون إلى المغرب الأوسط منهم التلمسانيون، ومنهم المليانيون والوهرانيون والقسنطينيون،لكن أغلب علماء بلاد الجزائر الذين ذكرهم ابن عسكر ينتمون إلى تلمسان بحكم الارتباطات الفكرية التي كانت تجمعهم بمدينة فاس[386] .

ويجب أن نشير قبل التطرق إلى ترجمة هؤلاء العلماء بأن أسماءهم مرتبة حسب تاريخ وفاة كل واحد منهم من جهة ،و كذا إدراج كل من ولد أو توفي خلال الفترة – موضوع البحث – أي القرن 10هـ/16م ، كما أننا حاولنا الاختصار قدر الإمكان مع الاعتماد على المصادر واللجوء إلى الإحالات بالنسبة إلى المراجع التي تطرقت لهذه الشخصيات العلمية و نبدأ ب:

1 – أحمد بن يحي الونشريسي أبو العباس التلمساني (834هـ/ 1430م – 914هـ / 1509م)

هو العالم العلامة ،حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة[387] الشيخ الإمام العالم العلامة المصنف الأبرع والفقيه الأكمل الأرفع،البحر الزاخر والكوكب الباهر،حجة المغاربة على أهل الأقاليم وفخرهم الذي لا يجحده جاهل ولا عالم[388] أخذ الفقه عن أبيه الفقيه الكبير الحافظ المحصل النوازلي،وعن شيوخه التلمسانيين ... انتقل إلى فاس سنة أربع وسبعين من التاسعة[389].له تأليف عظيم القدر في الفتاوى سماه،"المعيار المعرب والجامع

---

[384]– أرزقي شويتان ، المجتمع الجزائري و فعالياته خلال العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص ، 461

[385]– عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصاديةوالاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب خلال القرن 10هـ/16م ، مرجع سابق ، ص ، 122 ، و للتوسع أكثر في ثقافة هؤلاء السلاطين ، كمحمد الشيخ المهدي الذي كان يحفظ ديوان المتنبي ، و كذا أحمد المنصور الذهبي ، أنظر : الأفراني ، نزهة الحادي ، مصدر سابق ، ص ، 23 – 24 – 57 الفشتالي ، مناهل الصفا، مصدر سابق ، ص ، 265 / 269 / 294 .

[386]– محمد مزين ، المصادر و الوثائق المغربية المتعلقة بالجزائر في العهد العثماني الأول ، و القرنان 16م / 17م ، مجلة الدراسات التاريخية ، معهد التاريخ – جامعة الجزائر – ، العدد 09 ، 1415هـ / 1995م ، ص ، 97

[387]– محمد بن مريم التلمساني ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، منشورات السهل ص، 80 ، أنظر كذلك : التمبوكتي احمد بابا ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، الجزآن 1 / 2 ، ط1 ، إشراف و تقديم ، عبد الحميد عبد الله الهدامة ، وضع هوامشه و فهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، 1989 ، ص ، 135

[388]– محمد ابن عسكر الحسيني الشفشاوني ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق محمد حجي ، مطبوعات دار المغرب ، للتأليف و الترجمة و النشر ، الرباط ، 1397هـ / 1977م ص ، 47

[389]– أحمد المنجور، فهرس أحمد المنجور،تحقيق محمد حجي،مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة ،الرباط 1396هـ / 1976م ،ص، 50

المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب"[390]،و"الفائق في الوثائق"و"قواعد المذهب" وغير ذلك[391] ثم حصلت له كائنة من جهة السلطان في أول محرم عام أربع وسبعين فانتهبت داره[392]

وفرّ إلى مدينة فاس،فاستوطنها[393]،تخرج على يد الشيخ أبي العباس جماعة من الفقهاء ممن لازمه[394] .توفي رحمه الله[395] سنة 914هـ/ 1509 م، وهي السنة التي أخذ النصارى دمّرهم الله وهران...وكان عمره نحو ثمانين سنة)[396]

2- الوهراني أحمد بن أبي جمعة شقرون أبو العباس(ت: 920هـ/1514م)

الشيخ الفقيه العالم العلامة ، الأستاذ المقرئ المتكلم الحافظ الضابط المطلع ، المحقق المشارك أبو عبد الله سيدي محمد المدعو شقرون ابن أحمد بن أبي جمعة المغراوي ثم الوهراني[397] و هو المعروف بالسيد شقرون، لأنه كان أشقر اللون أحمر العينين ، جهير الصوت [398] رحل إلى فاس حيث جلس إلى التدريس فطارت شهرته وأقبل عليه جمع غفير من طلبة العلم ، فأعجبوا بعلمه و سعة اطلاعه و سرعة استحضاره[399] . له العديد من

---

[390]- تتناول هذه الفتاوى مجموعة من الأجوبة في مختلف المسائل الشرعية ، فيورد الونشريسي السؤال ثم يردفه بإجابة الفقيه الفلاني مستشهدا بالأحاديث و الآيات القرآنية، أنظر : أبو العباس احمد بن يحي الونشريسي ، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا و الأندلس و المغرب ، خرجه ، جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، 12 جزءا ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المملكة، المغرب، 1401هـ / 1981م

[391]- احمد ابن القاضي المكناسي ، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس ، دار المنصور للطباعة و الوراقة ، الرباط ، 1973م ، ص ، 156 . و كذلك ابن عسكر ، الدوحة ، مصدر سابق، ص ، 47 ، كذلك : يحي ولد سيدي أحمد ، ببليوغرافيا – تلمسان ، 1400 ، عنوان ، دار المعرفة ، 2011 ، ص ، 100 ، مخطوط إيضاح المسالك إلى قواعد مالك لأحمد بن يحي الونشريسي ، عدد الصفحات من ، 420 – 468 ، الرقم ، 115 / ك / 12 – الخزانة الحسينية (الملكية) الرباط ،

[392]- تتعلق هذه الحادثة بفتواه المتعلقة ببناء جدار و حصن على أحد المقابر المجاورة للمدينة و قد عارض الونشريسي ذلك ، فنهب السلطان الزياني المتوكل داره ، انظر : حساني مختار، موسوعة المدن الجزائرية ج4 ، مدن الغرب ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2007 ، ص 97/96 ، كما تطرق الدكتور حساني لهذه القضية في عنصر الهجرة إلى فاس و أبرز العلماء المهاجرين في كتابة : تاريخ الدولة الزيانية ، ج2 – الأحوال الاقتصادية و الثقافية منشورات الحضارة ، طبعة 2009م ص ، 218 الى 228 ،

[393]- أحمد بابا التمبوكتي ، نيل الإبتهاج ، مصدر سابق ص ، 135

[394]- أحمد المنجور ، فهرسة أحمد المنجور ، مصدر سابق ص ، 50

[395]- ابن عسكر ، الدوحة ، مصدر سابق ص ، 48

[396]- ابن مريم ، البستان ، مصدر سابق ، 81 ، كذلك أبو القاسم الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ج1 ، ط1 ، دراسة و تحقيق : خير الدين شترة ، دار كردادة ، للنشر و التوزيع . 1433هـ/ 2012م ، ص ، 554 / 555 . أنظر كذلك : كمال السيد أبو مصطفى ، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي – مركز الإسكندرية للكتاب ، 1996 صص .، 06/05 ، كذلك سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ، مرجع سابق ص ، 123 و ما بعدها .

[397]- محمد بن جعفر الكتاني ، سلوة الأنفاس و محادثة الأكياس بمن اقبر من العلماءو الصلحاء بفاس ج3 حققها و وضع فيهارسها ، د. الشريف محمد حزة بن علي الكتاني ضمن الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس، ، ص ، 353

[398]- ابن عسكر ،دوحة الناشر ، مصدر سابق ص ، 126

[399]- عمار هلال ، العلماء الجزائريون في البلدان العربية و الإسلامية فيها بين القرنيين التاسع و العشرين الميلاديين (3 / 14هـ) ديوان المطبوعات الجامعية ، مرجع سابق ،ص ،118

المؤلفات منها الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين[400] م بالإضافة إلى كتاب جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان [401] بالإضافة إلى مؤلفات أخرى منها تقريب النافع في الطرق العشر لنافع[402] وكذا تقييد على مورد الظمآن[403] وكذلك فتوى محمد شقرون لمسلمي الأندلس [404] توفي رحمة الله بمدينة فاس سنة ثلاثين و تسعمائة[405]

3- أحمد بن محمد العبادي التلمساني (توفي حوالي 940هـ/1533 م)

هو الشيخ الإمام العالم المحقق النحرير أبو العباس أحمد بن محمد العبادي كان من العلماء الأعلام ... ورد على فاس في الدولة الوطاسية الناصرية،وقدّمه الناصر بن الشيخ الوطاسي للتدريس في جامع القرويين... فانتفع الناس بعلومه وأخذ عنه الفقه سيدي أبي محمد الهبطي ...ولقي منافسه من فقهاء فاس في ذلك الوقت لأمور يطول شرحها،لتقدمه عليهم،وتوجه أرباب الدولة الى جهته،توفي في أوائل العشرة الرابعة،ودفن بتلمسان رحمه الله [406]

4- ابن جيدة الوهراني أحمد بن محمد بن يحي (ت 951هـ / 1544م) هو الشيخ الفاضل

العالم أبو العباس أحمد بن جيدة ... كان يدرّس علم الكلام بفاس وكان من أهل الفضل والدين والعلم المتين[407] أخذ عن الإمام السنوسي مقدمته الصغرى ... وأخذ التصوف عن ابن تاغزوت[408] ويقول عنه أحمد

---

[400] – أنظر دراسة ، مخطوط الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين ، لمحمد شقرون بن أبي جمعة الغراوي ، مذكرة ماجستير ، للطالب عبد القادر فكاير ، إشراف د. جمال قنان ، جامعة الجزائر ، معهد التاريخ ، م1995 / 1996 م

[401] – توجد منه نسختان مخطوطتان الأولى : بالمكتبة العامة بتيطوان رقم : 710 ، انظر كذلك : نفس المخطوط – دراسة و تحقيق و تعليق – أحمد جلولي البدوي ، و رابح بو نار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، كذلك ، ص،158 من هذه الرسالة

[402] – هو عبارة عن عمل في القراءات نظمها في أبيات شعرية انتهى من تأليفها سنة 899هـ وهذا العمل ما يزال مخطوطا في باريس تحت رقم 4532 ، و نسخة أخرى بالمكتبة الملكية بالرباط رقم 4497، سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، ص ، 22

[403] – هو عمل في القراءات في جزء واحد ، مازال مخطوطا في كتاب اللآلي الفريدة في الخزانة المصرية التيمورية بمصر تحت ، رقم : 213

[404] – و هي فتوى وجهها الى مسلمي الأندلس للقيام بأحكام الإسلام سرا (خفية) ، و أفتى لهم بالتظاهر بالنصرانية و تاريخ هذه الرسالة فاتح رجب 910هـ / 28 نوفمبر 1504م ، أنظر ، ليلى الصباغ ، ثورة مسلمي غرناطة ، مجلة الأصالة ، عدد ، 27، سبتمبر،أكتوبر ، سنة 1976

[405] – أحمد ابن القاضي المكناسي ، جذوة الاقتباس .. مصدر سابق ص ، 321 ، و قد اختلف في سنة وفاته ، فصاحب الدوحة يقول انه توفي في العشرة الثالثة ص126 و الأستاذ عمار هلال ، يحدد تاريخ و فاته ما بين 1514 م أو 1524م ، المرجع السابق ص ، 118

[406] – ابن عسكر ، دوحة الناشر، مصدر سابق ، ص119

[407] – ابن عسكر ، المصدرنفسه ، ص، 136

[408] – ابن مريم البستان ، مصدر سابق ، ص ، 80

المنجور في فهرسته (الشيخ الفقيه الموحّد الصالح أبي العباس أحمد بن جيدة)[409] توفي سنة 951هـ[410] الموافق ل 1544ميلادي وقيل أنه توفى في العشرة الرابعة بفاس رحمة الله[411]

5- علي بن موسى بن علي بن هارون أبو الحسن (871هـ – 1466م /951هـ – 1545م)

هو الشيخ الفقيه الأستاذ العددي الفرضي المؤقت العروضي المتفنن المفتي الخطيب أبي الحسن علي بن موسى ابن هارون المطغري[412] ،وبه اشتهر المطغري بالطاء مطغرة تلمسان[413] وأخذ عنه عبد الواحد الونشريسي واليسيتني والزقاق و غيرهم[414] له مشاركة في علوم التفسير والعربية والحساب و الفرائض ... انتقل إلى فاس سنة 891هـ/1486م ،فلازم العلامة ابن غازي 29 سنة في البحث و التحقيق [415] توفي في ذي القعدة سنة إحدى و خمسين . وقد ناف عن ثمانين [416]

6- الونشريسي عبد الواحد بن أحمد الونشريسي (ت955هـ / 1549م)

هو الفقيه العالم العلامة،البحر الفهامة،صاحب القلم الفصيح واللسان الصريح ،فريد دهره وأعجوبة عصره[417] الإمام الفقيه الأستاذ النحوي الأديب الناظم الناثر الخطيب المفتي[418] صاحب العلم الصحيح واللسان الفصيح ... قاضي فاس ومفتيها،وعدل قضاة زمانه ... عارفا بالأصول والفروع مشاركا في الفنون،محققا لجميعها مع طلاقة اللسان،وحسن التعبير وسرعته ،وجودة الفهم والخط والشعر،شاعرا مجيدا،لايقارعه أحد من أهل عصره ...وقد جمع له بين الخطط الثلاثة ، الفتيا و القضاء و التدريس[419] ولد بفاس بعد الثمانيين و ثمانمائة،أخذ (العلم) عن أبيه أبي العباس و الشيخ ابن غازي و الهبطي ... تولى القضاء ثمانية عشر عاما[420] . من تآليفه ، نظم قواعد المذهب المسمى بالنور المقتبس من قواعد مذهب مالك بن أنس ، لخّص فيه كتاب : إيضاح

409- أحمد المنجور ، فهرس أحمد المنجور ، تحقيق . محمد حجي ، مصدر سابق ، ص ، 17

410- ابن مريم البستان ، المصدر السابق ص ، 80

411- ابن عسكر ، دوحة الناشر مصدر سابق ص ، 136 ، أنظر كذلك الحفناوي تعريف الخلف برجال السلف ج2 ، مرجع سابق ص، 44 ، 45 ، كذلك. عمار هلال ، العلماء الجزائريون في فاس في ما بين القرنيين 10 ، 20 م مجلة الدارسات التاريخية ، عدد 09 سنة 1995 ، جامعة الجزائر ، معهد التاريخ ، ص ، 30

412- أحمد المنجور ، فهرس أحمد المنجور ، مصدر سابق ص ، 11/ 12

413- أحمد بابا التمبوكتي، نيل الابتهاج ، مصدر سابق ، ص ، 345

414- أحمد بابا التمبوكتي ،مصدر سابق ، ص ، 346

415- عادل نويهض ، أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر ، ط2 ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة و النشر ، بيروت ، لبنان 1400هـ / 1980م ، ص ، 305 ، 306

416- أحمد بابا التمبوكتي ، نيل الابتهاج ، مصدر سابق ، صص ، 26 / 27

417- ابن عسكر ، الدوحة ، مصدر سابق ص، 52

418- أحمد المنجور ، فهرس المنجور ، مصدر سابق ، ص ، 12

419- محمد بن جعفر الكتاني ، سلوة الأنفاس و محادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ج2 ، مرجع سابق ، ص ، 162،163

420- احمد بابا التمبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، مصدر سابق صص ، 288-289

المسالك لوالده،وزاد عليه زيادات رائقة... وتعليق حسن على البخاري لم يكمل، وله أزجال وموشحات[421] وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم خرج يوم عيد ليصلي بالناس صلاة العيد فانتظر السلطان أبو العباس أحمد المريني فبطأ عليهم ولم يأت إلى أن خرج وقت الصلاة ولما وصل السلطان إلى المصلى نظر الشيخ عبد الواحد إلى الوقت ، فرآه قد فات فرقي المنبر و قال :يا معشر المسلمين عظم الله أجركم في صلاة العيد ، فقد عادت ظهرا ، ثم أمر المؤذن فأذن وأقام الصلاة و صلى بالناس الظهر و انصرف ولم يراع تغيير السلطان ولا فضيحته [422] ومما عرف به عبد الواحد الونشريسي أنه عقد صلحا بين الوطاسيين والسعديين سنة 940هـ / 1534م ،تم بموجبة تقسيم المغرب كما يلي:يكون مُلك السعديين من تادلا إلى السوس،ولبني وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط[423] وبسبب تدخله في الشؤون السياسية في المغرب مات مقتولا سنة 955هـ /1549 م[424]

7- العقباني أحمد بن محمد أبو العباس (**ت 980هـ / 1572 م**) هو سيدي أحمد بن محمد بن قاسم العقباني أبو العباس الفقيه [425] من فقهاء المالكية مهتم بعدة علوم من علوم عصره،ولد بتلمسان،وبها تعلم و نشأ ، انتقل إلى فاس حيث جلس للتدريس بجامع القرويين [426]كان له حصة مباركة من الفقه ،قدم مع الشيخ أبي العباس أحمد العبادي ، والشيخ أبي عبد الله محمد شقرون وتصدر للتدريس بالقرويين ، وكان دونهما في إدراك العلوم[427] توفي في آخر العشرة الثامنة من القرن العاشر(980هـ / 1572 م) بفاس وسلسلة سلفه، سلسلة العلم و الفضل [428]

8- أحمد بن يعقوب العبادي أبو العباس التلمساني (**ت 980هـ/ 1572 م**)هو أحمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب العبادي التلمساني،أبو العباس،عالم كبير من فقهاء المالكية من أهل تلمسان وبها نشأ و تعلم [429] هذا الرجل من فحول العلماء كبير الهمّة غزير العلم ، كريم السجية ... قدم على فاس عام ثمانية وستين في جملة فقهاء تلمسان لما رحّلهم السلطان الغالب من تلمسان حين وقعت الفتنة بينهم وبين الأتراك و استغاثوا به فأمدهم بالأجناد ونقلهم إلى فاس ... ووصله بألف مثقال ذهبا وأمر له بكساء وإقامة

---

[421]- محمد بن جعفر الكتاني ، سلوة الأنفاس ج2 ، مرجع سابق ص ، 163

[422]- ابن عسكر ، الدوحة و مصدر سابق ص ، 52

[423]- حساني مختار، موسوعة المدن المغربية ، ج4 ، مرجع سابق ص ، 99

[424]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، ص ، 69 . و هذا التاريخ خاطئ ، أو ربما هو خطأ مطبعي و الأصح هو أنه قتل سنة 955هـ/ 1549م و هو ما أشار إليه ابن عسكر في دوحة الناشر، المصدر السابق ، ص، 54 ، و كذلك : أحمد بابا التمبكتي ، في نيل الابتهاج ، مصدر سابق ص ، 289

[425]- الحفناوي أبو القاسم محمد ، تعريف الخلف برجال السلف ،ج 2 ، مرجع سابق ،ص ، 79

[426]- عمار هلال ، العلماء الجزائريون في فاس ، مجلة الدراسات التاريخية ، مقال سابق ص ، 30

[427]- ابن عسكر، الدوحة ، مصدر سابق ، ص ، 23

[428]- ابن عسكر المصدر نفسه ، ص 23، كذلك : الحفناوي ، المرجع السابق ص ، 79

[429]- عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر ، مرجع سابق ص ، 65

جليلة ،وقال لا تسووه بأحد من الفقهاء فإن همته كبيرة [430] وقد أجاز صاحب دوحة الناشر في جميع مروياتـه [431] واشتغل بالتدريس ثم رجع إلى تلمسان واستقر بمليانة حتى وافته المنية بها [432] .

9- ابن جلال الوعزاني المغراوي التلمساني محمد بن عبد الرحمان (908هـ- 1502 م/981 هـ -1573م) وهو الشيخ الفقيه الخطيب المدرّس المفتي . أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان ابن جلال التلمساني [433] كان مولده سنة 908هـ / ثمان و تسعمائة [434] كان إماما في علم الكلام ، قدم على فاس في صدر أيام السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف فقلده الفتوى بمدينة فاس و تولى التدريس، و كان يخطب بجامع الأندلس ... ثم صار يؤم ويخطب بجامع القرويين [435] .وقد كان ابن جلال الوعزاني عارفا بالمنطق و العقائد و البيان ... وقد أخذ عن محمد بن موسى فقيه تلمسان وعن جماعة من أصحاب محمد بن يوسف السنوسي ، و أحمد بن يوسف الملياني [436] تكوينه هذا جعل الكثيرين يصفونه بأنه (إمام الأئمة و حبرا من أخبار الأمة ، فقد تضلع من أفانين العلوم ، وشرب من صفو رحيقها المختوم ، فتنافس الناس في علومه والاقتباس من مفهومه [437] توفي سنة واحد و ثمانين و تسعمائة (و طالت أيام رياسته العلمية بفاس حتى أسن و أثقله الهرم و انتفع الناس به) [438]

10- محمد شقرون الوجديجي بن هبة الله التجيني التلمساني (ت 983هـ / 1575م)

هو الشيخ الفقيه الفهّامة العالم العلم،العلاّمة ،شيخ الفتيا و إمامها الأكبر أبو عبد الله محمد بن هبة الله المعروف بالسيد شقرون بن هبة الله [439] ووصفه أحمد المنجور بقوله (الفقيه الموحد المشارك المفتي الخطيب ... استفدت منه في العقائد والفقه والحديث والأدب وغير ذلك ...وقال لي بأنه ولد سنة ثمان وتسعمائة [440]

---

[430]- ابن عسكر ، دوحة الناشر ، مرجع سابق ص ، 118

[431]- أبو العباس بن إبراهيم ، الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام ، ج2 ، مصدر سابق ص ، 244

[432]- عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر ، مرجع سابق ص ، 65

[433]- ابن عسكر، دوحة الناشر مصدر سابق ص. 123

[434]- ابن مريم ، البستان ، مصدر سابق ص ، 279

[435]- ابن عسكر ، دوحة الناشر . مصدر سابق ص، 123 ، نلاحظ من خلال مهامه الثلاث التدريس والخطابة والفتوى مكانة هذا العالم الجليل بفاس و هذه المكانة لا يحض بها إلا من كان واسع العلم و مشهود له بذلك .

[436]- أحمد بن القاضي المكناسي ، جذوة الإقتباس في ذكر من جل من الأعلام بمدينة فاس ، مصدر سابق صص ، 324، 325

[437]- أبو القاسم محمد الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ج2 ، مرجع سابق . ص ، 410/409

أنظر كذلك، سعاد لبصير ، هجرة و نفي أهل العلم و الدين من الجزائر في العهد العثماني (1516- 1830) . رسالة ماجستير إشراف كمال فيلالي ، جامعة منتوري ، قسنطينة 2007 ، ص ، 203

كذلك : بوشنافي محمد ، هجرة العلماء الجزائريين الى المغرب و بلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني (1520- 1830) مجلة المواقف للبحوث و الدراسات في المجتمع الجزائري ، عدد 04 . ديسمبر ، 2009 ، ص ، 101

[438]- عادل نويهض ، أعلام الجزائر ، مرجع سابق ص ، 77 ، 78

[439]- ابن عسكر ، دوحة الناشر ، مصدر سابق ، ص، 117

[440]- أحمد المنجور ، فهرس أحمد المنجور ، تحقيق محمد حجي ، مصدر سابق ، ص ، 78

استوطن فاسا بعد أن قدم إليها من تلمسان سنة سبع وستين وتسعمائة (967هـ/1559م) فعظّمه سلطان المغرب يومئذ (الغالب بالله) وولاه الفتوى،بحضرة مراكش وسائر أقطار المغرب،وكان يحضر مجلسه أعيان الفقهاء والسلطان بنفسه وانتفع الناس بعلومه[441]. وبسبب تمكنه من مذهب الإمام مالك فقد عرف بمالك الصغير[442] له شرح على رجز أبي إسحاق التلمساني في الفرائض وكان فقيها نوازليا يقوم على ابن الحاجب أتم قيام، وكان عارفا بالأصليين والبيان والمنطق [443] ، توفي آخر سنة ثلاث و ثمانين وتسعمائة ،عن خمس وسبعين سنة رحمه الله[444]

11- محمد الحاج بن أحمد المري التلمساني (ت: 989هـ / 1581 م)

هو محمد(فتحا) المدعو الحاج بن أحمد بن محمد بن علي بن عبد الرحمان بن مسعود بن عبيد الله بن محمد الشريف التلمساني[445] ولد و نشأ بتلمسان ، كان فقيها عالما بمختلف العلوم ... عرف عنه شدة التدين والزهد و الصلاح .... دخل فاس مع جملة الفقهاء الذين رافقوا الحملة السعدية على غرار أحمد العبادي التلمساني ، الذي كان رفيقه في الرحلة في . فأحسن استقباله و مقامه إذ ولي الخطابة في الجامع و منح له بيتا جميلا للإقامة[446] ظل محمد بن الحاج بن احمد بن الشريف التلمساني في فاس خمس سنوات ثم رحل الى مراكش قصد التزود بالعلم ، فدرّس بها الى أن توفي سنة 989هـ[447]

12- محمد بن أحمد التلمساني (ابن الوقاد التلمساني) : (ت : 1001هـ/ 1592 م)

هو الشيخ الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني و يعرف بابن الوقاد [448] وهو تلميذ ابن هبة الله شقرون [449] كان أديبا و فقيها وعارفا بالتفسير والحديث،ولد وتعلم بتلمسان[450] هاجر إلى المغرب رفقة السلطان السعدي الذي فشل في حملته ضد العثمانيين في تلمسان وكان ذلك سنة 968هـ/1560 م[451] حلّ بتارودانت وولي به قضاء الجماعة حوالي ستة أشهر ثم استعفى لكونه لا يعرف البربرية التي هي لسان

---

[441]- محمد بن جعفر الكتاني ، سلوة الأنفاس ، مرجع سابق ج3 ، ص، 357

[442]- عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر ، مرجع سابق ، ص ، 188 . أنظر كذلك، بوشنافي محمد هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى و بلدان المشرق العربي ، مقال سابق ، ص ، 102

[443]- أحمد بن القاضي ، جذوة الاقتباس ، مصدر سابق ، ص ، 325

[444]- ابن مريم ، البستان ، مصدر سابق ، ص ، 279

[445]- السملالي ، الإعلام بمن حل بمراكش و أغمات من الأعلام ، ج5 ، مصدر سابق ، ص ، 217

[446]- سعاد لبصير ، هجرة و نفي أهل العلم و الدين من الجزائر في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص، 239. نقلا عن : أبو العباس بن إبراهيم السملالي ، الإعلام لمن حل مراكش و أغمات من الأعلام ،ج5 . ص ، 357

[447]-كمال فيلالي،هجرة علماءغريس وتلمسان الى فاس في العهد العثماني،مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع و التاريخ ، عدد خاص ، آبريل 2008 ص، 376

[448]- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلق برجال السلف ، ج2 ، مرجع سابق ، ص ، 348

[449]- إبراهيم حركات ، الصلات الفكرية بين تلمسان و المغرب ، مجلة الأصالة . العدد 25 جويلية – أوت 1975. ص، 190

[450]- عمار هلال ، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنيين 9- 20 م / 3- 14 هـ ، مرجع سابق ، ص، 120

[451]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ، مرجع سابق ص، 425

أهلها ... ظل يتنقل بين فاس ومكناسه ثم عاد إلى تارودانت فتولى الفتوى والخطابة ... وهو أول من أقرأ البخاري قراءة ضبط وإتقان ومن شعره في تحبيب كتاب البخاري وضرورة قراءته قوله :

كتاب البخاري واضب على قــراءته واروه في الشدائد

فهــو المجرّب ترياقــه لدفع سموم الأفاعي الأساود[452]

وكان زاهدا في الدنيا و يحذر من مخالطة الملوك و الاقتراب منهم قائلا :

كل التراب و لا تعمل لهم عملا فالشر أجمعه في ذلك العمل[453]

توفي سنة إحدى وألف (1001هـ) بمدينة تارودانت وخلفه ولده الخطيب أبو زيد عبد الرحمان في علمه وهديه المتقدم[454]

13- محمد بن أحمد التلمساني (ت: 1018هـ/ 1609 م)

هو الإمام الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد المري الشريف التلمساني [455] خرج إلى فاس مع جملة الفقهاء وعلماء تلمسان الذين رجعوا إليها مع الحملة السعدية ، فلما حل بفاس أحسن استقباله (فأحسن مقامه واستقباله لحسن علمه و فصاحة لسانه)[456] . كان فقيها صالحا يقوم على الرسالة بنقل سائر شراحها وولي الفتوى بالقرويين[457] . عرف بالتفاف الناس من حوله و إيمانهم بتصرفاته ... إذ طلب الناس منه يخرج للاستسقاء ، فأخذ جميع ما عنده من الزرع و فرقه على المساكين ، و قال : الآن أخرج للاستسقاء ، حين صرت من جملة الفقراء ، فخرج فلما كان قريبا من باب الفتوح أحد أبواب فاس والناس معه قال لهم : انتظروني حتى أرجع إليكم فلما رجع سئل عن الخبر فقال تفقدت خميرة العجين ، لم أفرقها فرجعت لذلك[458] توفي عام ثمانية عشر وألف 1018هـ[459]

14- المقري أحمد بن محمد بن يحي أبو العباس (ت: 1041هـ /1631م)

جاء في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الثاني للأستاذ سعد الله حول شخصية أحمد المقري قوله ،لوحاولنا أن نترجم للمقري ترجمة تقليدية ، لضاق عنه مجال هذا الكتاب[460] ، فكيف لي أن أترجم له (أناالعبد الضعيف) في جزء من رسالتي ؟؟؟ ذلك أن علمه غزير وحياته خصبة بالعطاء والتأليف وما كتب عنه سواء في الجزائر أو

---

[452]- سعاد لبصير ، هجرة و نفي أهل العلم و الدين ،مرجع سابق ،ص، 241

[453]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، مرجع سابق ، ص، 425

[454]- أبو القاسم الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، ج2 ، مرجع سابق ص ، 349و للتعرف على شخصية ابنه أبو زيد عبد الرحمان، أنظر نفس المرجع ،صص ، 198 ، 199

[455]- أبو القاسم الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، ج2 ، مرجع سابق ص ، 352

[456]- سعاد لبصير ، هجرة ونفي أهل العلم و الدين ، مرجع سابق ص ، 243.

[457]- أبو القاسم الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ج2 ، مرجع سابق ص ، 352

[458]- العباس بن إبراهيم السملالي ، الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام ، ج4 ، مصدر سابق ،ص ، 254

[459]- أبو القاسم الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ج2 ، مرجع سابق ، ص ، 352

[460]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، مرجع سابق ، ص ، 212

المغرب أو في المشرق لا يعدّ ولا يحصى،فهو الإمام الحبر،البحر العلامة ،ذو الفنون،أبو العباس التلمساني المالكي [461] ولد بتلمسان[462]،ونشأ بها وحفظ القرآن ومنها انتقل إلى فاس سنة 1009هـ / 1600م فأخذ عن شيوخها ثم انتقل إلى مراكش فاستدعاه الخليفة المنصور السعدي وقرّبه إليه و أكرمه [463]. له العديد من المؤلفات التاريخية و الأدبية و الدينية[464] تعرض لفتنة [465] بالمغرب الأقصى فهاجر على إثرها إلى المشرق العربي،مصرثم مكة التي أدى بها فريضة الحج ... وكان ينتقل ما بين مصرومكة وبيت المقدس ودمشق إذ كان يلقى الدروس الدينية والتاريخية وعندئذ ألف كتابه الشهير (بمصر) الذي سمّاه في البداية عرف الطيب بالتعريف بالوزير ابن الخطيب [466] ، ثم عدل عن هذه الشخصية إلى تسمية أخرى هي "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" [467] وقد بلغت مؤلفات المقري ثمانية وعشرين تأليفا في سنة 1037هـ / 1628م [468]، توفي بمصر في جمادى الأخيرة 1041هـ /1631م فدفن في قرافة المجاورين قرب جامع الأزهر) [469]

إن المتتبع لمصادر تراجم الشخصيات العلمية خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ،يجد عشرات العلماء الجزائريين،الذين كان لهم باع طويل في مختلف العلوم العقلية والنقلية،والذين لم تكن وجهتهم المغرب الأقصى فقط ، بل اتجهوا الى مختلف مناطق العالم الإسلامي ، ونحن إذا اقتصرنا عملنا هذا على علماء تلمسان وضواحيها ،خلال فترة القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،فإننا قد قمنا بذلك إلتزاما بفترة البحث أولا ،وبسبب الظرفية التاريخية التي ميّزت المرحلة ثانيا .

ومما تجدر الإشارة إليه (من باب التذكير ليس إلاّ) هو أن عددا آخر من علماء الجزائر خلال هذه الفترة فضّل البقاء في الجزائر (رغم الاضطرابات و الهزّات السياسية التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك) بفعل السياسة العثمانية من جهة ،والظروف الدولية (التحرشات الإسبانية على الجزائر) من جهة ثانية ومن أبرز هؤلاء العلماء

---

[461]– عبد الحق حميش و محفوظ بو كراع بن ساعد ، موسوعة تراجم علماء الجزائر ،علماء تلمسان وتوات ،طبعة خاصة ، دار زمورة للنشر والتوزيع ، الجزائر . 2011 ، ص ، 247

[462]– معظم من كتب عن المقري ، يرى بأنه ولد بتلمسان ، لكن مراجع و دراسات أخرى تقول بأنه و لد بمقرة –التي تقع بين مدينتي المسيلة وبريكة ، في منطقة الزاب و بالجنوب الجزائري أنظر :

أبو عمران الشيخ و ناصر الدين سعيدوني ، معجم مشاهير المغاربة ، جامعة الجزائر ، 1995 . ص ، 507؛كذلك :

أسماءالقاسمي الحسني ، رسائل المقري ، دراسة و تحقيق ، دار المعرفة الدولية ، للنشر و التوزيع ، الجزائر ، طبعة خاصة ،2011 ص 96 ، 97

[463]– عمار هلال ، العلماء الجزائريون بفاس ، مقال سابق ، مجلة الدراسات التاريخية ، عدد 09 ، 1995 ، ص ، 33

[464]– عن هذه المؤلفات انظر : أسماء القاسمي الحسني ، المرجع السابق ، ص ، 199، 200 ، 201 ، 202، 203 ، 204 ، 205 ، 206 ، 207 ، 208 ، 209 . 2010 كذلك ،أبو القاسم الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ،ج1 ، ص ، 541

[465]– تفاصيل الفتنة أنظر : عبد الحق حميش ، محفوظ بو كراع بن سعد ، موسوعة تراجم ..، مرجع سابق ص، 248 ، 249

[466]– أبو عمران الشيخ و ناصر الدين سعيدوني ، معجم مشاهير المغاربة ، مرجع سابق ، صص ، 508– 509

[467]– أسماء القاسمي ، رسائل المقري ، مرجع سابق ص ، 200

[468]–أسماء القاسمي، نفس المرجع ، ص ، 210

[469]– أبو عمران الشيخ و ناصر الدين سعيدوني ،معجم مشاهير المغاربة ، مرجع سابق ، ص ، 509

على سبيل المثال لا الحصر الشيخ محمد بن سعيد المناوي ، والشيخ عبد الرحمان الأخضري ، والشيخ أحمد بن يوسف الملياني وغيرهم وقد يعود إصرارهم على البقاء داخل الجزائر إلى عاملين أساسيين،أولهما هو كون هؤلاء الشيوخ من المتصوفة الذين لا يخشون في الله لومة لائم خاصة وأنهم أصحاب كرامات،وثانيهما هو السياسة العثمانية ،كانت تساير شيوخ التصوف وتطلب مهادنتهم،لأن كلمتهم مسموعة لدى عامة الناس ومن ثمة توظيفهم لكسب ثقة الشعب وجعلهم لا يعارضون التواجد العثماني بالجزائر، وقد نجح بعض حكام الجزائر من الأتراك في ذلك إلى أبعد الحدود ،كما رأينا في الفصل الأول

المبحث الثالث

عوامل تقارب و امتداد ثقافة البلدين (المغربين الأوسط و الأقصى) خلال القرن 10هـ/16م

من خلال استعراضنا لمسارهؤلاء النخبةمن العلماء في المبحث الثاني و الذين يمكن اعتبارهم بحق خزائن متنقلة من العلوم والمعارف،لكن الملفت للانتباه هو أن هؤلاء العلماء الذين فضلوا مدينة فاس وهاجروا إليها كانوا كلهم "حسب علمي" علماء دين فضّلوا الاهتمام بعلوم الآخرة حسب تعبير الثعالبي[470] و مردّ ذلك – حسب رأينا– إلى تكوينهم الديني متأثرين في ذلك بالمذهب المالكي الذي كان سائدا في بلدان المغرب الإسلامي آنذاك .كما أن عددا آخر منهم إن لم نقل جلّهم بسبب ظروف العصر ،قد كان متأثرا بالطرق الصوفية التي تحث أتباعها على التمسك بالدين والزهد في الدنيا والاستعداد للآخرة و عندئذ حقّ لنا أن نتساءل عن سر انتشار المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي و مدى تأثيره في سلوكات المجتمع المغاربي،وعن أهم الطرق الصوفية باعتبار أن التصوف هو أبرز ظاهرة عاشتهابلدان المغرب الإسلامي آنذاك،هذان العاملان– في نظرنا — هما اللذان أثرا في تقارب وامتداد ثقافة البلدين(المغرب الأوسط و المغرب الأقصى) في الفترة –موضوع البحث –رغم التقلبات و الاضطرابات السياسة التي ميّزت تلك الفترة القرن (10هـ / 16م)

العامل الأول :المذهب المالكي

إن المذهب المالكي يعد امتدادا طبيعيا للفقه المدني ذلك أن المدينه هي مهبط الوحي وعاصمة الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء ومأوى الفقهاء ومجمع العلماء وملاذ المستفتين والطالبين ... وكان المجتمع العلمي فيها أكثر صفاء و نقاء و بعدا عن التأثيرات العقدية والنزاعات الخارجية الفاسدة والاتجاهات السياسة التي سادت أنحاء أخرى من المجتمع الإسلامي [471]،من خلال هذه الفترة تتضح لنا أهمية ووزن هذا المذهب الذي يعتبرمنهجاوطريقا لكل مسلم نظرا لخصائص المدينة المنورة (خاصة وأنها تحوي قبر أفضل خلق الله محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم) لكن السؤال الذي يطرح هو : من هو صاحب هذا المذهب ؟ وكيف نشأ؟ وما هي خصوصياته و مميزاته ؟ و كيف انتقل هذا المذهب إلى المغرب الإسلامي ؟

---

[470]– أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ، مرجع سابق ، ص، 44

[471]– نذير حمادو ، المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ، دار الفجر للطباعة و النشر ، قسنطينة . 2008 ، ص ، 5

1 -ترجمة الإمام مالك : هو عبد الله بن مالك بن أبي عامر بن الحارث بن عيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث ولد سنة 93 هـ /712م . وهي السنة التي توفي فيها والده أنس بن مالك [472] ومن الطبيعي أن ينشأ الإمام مالك بين العلم والمعرفة ومجالسة العلماء والفقهاء والمحدثين إذ أن جده لأبيه مالك كان من كبار التابعين روى عن كثير من الصحابة ... وقد كان لدار الهجرة (المدينة المنورة) الأثر الكبير في صقل شخصية الإمام مالك العلمية و الدينية ...

وهكذا جمعت شخصية الإمام مالك بين المحدث البارع ،والفقيه المبدع ،حتى قيل عنه (إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، ولم يبلغ أحد مبلغ مالك ، لحفظه وإتقانه وصيانته، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك)[473] .

وقد كان الإمام مالك لا يتسرع في الإجابة، ويستعمل كلمة أستحسن أوأكره في القضايا الاجتهادية،كما كان يكره الجدل خوفا من التعصب، ولا يحب كثرة الأسئلة كما خالف العراقيين في التدريس .وقد تعرّض الإمام مالك إلى محنة كبرى مع الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ،عرفت بمحنة الإمام مالك [474] وأشهر مؤلف له هو الموطأ [475] الذي يعتبر أول كتاب مدون جمعت فيه روايات من السنة [476] توفي الإمام مالك سنة 179هـ/ 795 م (ناهز السبعين سنة) [477]

2-نشأة المذهب المالكي و انتشاره : ظهر المذهب المالكي في المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثاني هجري ، أين كان المجتمع لا يزال قريبا بالعهد النبوي ، بعيدا عما كان ساد في غيرها من الأمصار من فلسفة و منطق و جدل و كثرة الآراء و تطبيقها على الدين الإسلامي ،و قدّر للإمام مالك أن يكون إمام مذهب أهل المدينة من خلال ما درسه عن شيوخ و أئمة المدينة [478] أخذ مالك العلم عن تسعمائة شيخ ، ثلاثمائة من التابعين ، وستمائة من تابعي التابعين[479] ومن هنا نستنتج أن مذهب الإمام مالك هو خلاصة فقه أشهر شيوخ وأئمة المدينة الذين سبقوه من صحابة و تابعين،ومن خلال جمع الإمام مالك للحديث والفقه

---

[472]- سحنون بن سعيد التنوخي ، المدونة الكبرى ، ج1، مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . 2004م ، ص ، 04

[473]- سحنون بن سعيد التنوخي ،مصدر سابق ، صص ، 5 ، 6

[474]- تفاصيل أكثر حول هذه المحنة ، أنظر : سحنون بن سعيد التنوخي ، المدونة الكبرى ، ج1 ، مصدر سابق ، ص ، 10

[475]- الموطأ يعني المسهل أو الممهد أو المعبد ، و قد استغرق تأليفه أربعين سنة ، عرضه الإمام مالك على سبعين فقيها من فقهاء المدينة المنورة ... و قد قال عبد الرحمان السيوطي في (تنوير الحوالك) نقلا عن : أبي بكر محمد بن العربي قوله ، أن الموطأ هو الأصل ، و صحيح البخاري هو الأصل الثاني و أن مالك روى مائة الف حديث ، اختار منها في الموطأ عشرة آلاف حديث ثم لم يزل يعرضها على الكتاب و السنة (العملية) حتى رجعت إلى خمس مائة حديث مسند ، أنظر : محمد بن عبد الكريم الجزائري ، رسالة الإمام مالك بن انس في آداب الدنيا و الدين إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد ، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . العدد : 05 مارس . 1994 ص، 359 ، 360

[476]- محمد أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة و العقائد ، و تاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربي ، ص ، 403

[477]- محمد أبو زهرة ، المرجع نفسه ، ص ، 392

[478]- محمد الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغربيات ، مجلة الثقافة،ع 1 ، ش. الجزائرية ن. .ت ، الجزائر، 2005 ص ،74

[479]- محمد بن عبد الكريم الجزائري،رسالة الإمام مالك بن أنس في آداب الدنيا والدين إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد،مقال سابق،ص 354

فقد كان له منهاج خاص في الاستنباط يعتمد على الكتاب والسنة،كركيزتين أساسيتين في الفتوى والاجتهاد،ومن بعدها يأتي العمل على القياس[480]

3-خصائص المذهب المالكي

من خلال إطلاعنا على عدة مؤلفات، و دراسات عديدة خاصة بالمذهب المالكي[481] أمكننا استنتاج مجموعة من خصائص هذا المذهب أهمها :

-كثرة أصول المذهب المالكي : القرآن ، السنة ، الإجماع ، عمل أهل المدينة ، العرف ... الخ

- واقعية المذهب المالكي ، مثال : صرف الصدقات في باب واحد (المؤلفة قلوبهم)

- جمعه بين الأثر و الرأي و هو ذكر الحديث و ذكر عمل أهل المدينة ، ثم رأي من التقى بهم من التابعيين فإن لم يجد أبدى رأيه على كل ما جمعه من علم

- اعتبار المذهب المالكي،المقصد الشرعي في الاجتهاد الفقهي،وهو الاجتهاد في فهم النصوص ومقصد الشرع

4-المذهب المالكي ببلاد المغرب الإسلامي

كان دخول الصحابة لبلاد إفريقية كقادة على الجيش أو جنود ضمن الجيوش الإسلامية حيث لم يقتصر دورهم على عملية الفتح بل تعداه إلى دور أكبر ، و المتمثل في نشر تعاليم الدين الإسلامي و بما أن أهالي إفريقية حديثي العهد بالإسلام فإنهم تأثروا كثيرا بهؤلاء الصحابة ، خاصة القادمين من المدينة المنورة ، و قد اشتدت حركة الدعوة الإسلامية في عصر عمر بن عبد العزيز ووالية إسماعيل بن عبد الله بن أبي مهاجر حيث أرسل عشرة من التابعيين يفقّهون أهل إفريقيا[482] بواسطة هؤلاء الفقهاء انتقلت التيارات الثقافية من المشرق إلى المغرب[483]

وقد كانت منطقة المغرب الإسلامي،مكانا لمذاهب عديدة ومنها المذهب المالكي الذي اعتنقه المغاربة فآمنوا وتمسكوا به وأصبحت بذلك المالكية مذهبا له وزنه وتأثيره في مسار المنطقة التاريخي،خلال العصور الوسطى وقد دخل المنطقة بواسطة الحجاج و طالبي العلم من الإفريقيين القادمين من مركز العلم في الحجاز ومصر

---

[480]- محمد الفاضل بن عاشور ، المحاضرات المغربيات ، مقال سابق ، صص ، 74 ، 75

[481]- من بين هذه الدراسات :

- الحبيب بن طاهر ، الفقه المالكي و أدلته 3. أجزاء (العبادات، المعاملات ، الأحوال الشخصية) دار ابن حزم للطباعة و النشر والتوزيع ، بيروت ،1998؛ نجم الدين الهنتاني ، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس هجري ، الحادي عشر ميلادي ، منشورات تبر الزمان ، تونس ، 2004 ؛- محمد إبراهيم علي ، اصطلاح المذهب عند المالكية ، ط 1 ، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث ، الإمارات العربية ، 1421هـ / 2000 م

- عمر الجيدي ، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب ، ط1 ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1993

[482]- موسى لقبال،المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج،سياسة و نظم ،ط2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص ، 132 . أنظر كذلك، أبو العرب محمد بن احمد بن تميم القيرواني ، طبقات علماء أفريقيا و تونس ، تحقيق و تقديم ، علي الشابي و نعيم حسن اليافي ، الدار التونسي للنشر ، تونس ، 1968 ، صص ، 73 ، 74

[483]- موسى القبال ، المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج ، سياسة ونظم ، مرجع سابق ، ص ، 132

الذين تتلمذوا على يد الإمام مالك[484]،فأول عالم مالكي قيرواني على مستوى إفريقيا و المغربين الأوسط والأقصى تشير إليه كتب التراجم ، هو عبد الله بن فروخ الذي شهد له الإمام مالك بعلم الفقه و قال في شأنه (هذا فقيه أهل المغرب)[485] . وقد ساهمت شخصيات أخرى في دخول المذهب المالكي إلى إفريقيامنهم الفقيه عبد الله بن غانم،وعلي بن زيادوعبد الرحمان بن أشرس و البهلول بن راشد و أسد بن الفرات [486] ويضيف ابن خلدون عبد الرحمان (أنه عندما كان قد ارتحل سحنون بن سعيد إلى المشرق ، كان قد التقى ببعض علمائها ، و بعد عودته ألف كتابا سماه المدونة (مدونة سحنون) [487]

وعكف أهل القيروان على هذه المدونة واعتمد المشيخة من أهل إفريقيا أخذوا به وتركوا ما سواه [488] ويضيف الباحث سامعي إسماعيل بأنه (في عهد الإمام سحنون قد ظهر المذهب المالكي ظهورا كبيرا بإفريقيا والمغرب خاصة عندما شغل الإمام سحنون منصب قاضي إفريقية و قرر اعتماد المذهب المالكي و منع الإفتاء بمذاهب أخرى) [489] . و يعتبر ابن زيد القيرواني الناشر الحقيقي لأفكار الإمام مالك ، في الوسط الشعبي من خلال تكوينه للعديد من طلاب العلم و تأليفه " كالرسالة " و " النوادر والزيادات " اللتان قامتا بدور كبير في مواجهة جماعة التشيع[490] ، و قد واجه المذهب المالكي مشاكل عديدة من الدولة الفاطمية[491]. أما في عهد الدولة الحمادية فقد استقر المذهب المالكي إذ حصل تقارب كبير بين سلاطين بني حماد و بين فقهاء المذهب المالكي [492] ،ويصف شوقي ضيف الاستقرار الذي شهده المذهب المالكي في العهد الحمادي بقوله (ومن حينئذ أصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهي السني الذي تتبعه البلدان المغربية لا في الإقليم التونسي

---

[484]– حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس ط1 ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1980، ص ، 463

[485]– قادة سبع،المذهب المالكي بالمغرب الأوسط حتى منتصف القرن 5 هـ/ 11م ، رسالة ماجستير غير منشورة،كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران ، 2003 / 2004 ، ص ، 26

[486]– حول هذه الشخصيات و غيرها أنظر :

علاوة عمارة ، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي ، د. م. الجامعية ، الجزائر . 2008 ، ص ، 130 و ما بعدها

كذلك : زدك إبراهيم ، الفتوى عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني 1518 – 1830 ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث ، كلية الآداب و اللغات و العلوم الاجتماعية و الإنسانية ، جامعة معسكر . 2011 / 2012 ، ص ، 54

[487]– المدونة الكبرى هي مجموعة من الأسئلة والأجوبة عن مسائل الفقه وردت للإمام مالك، ورواها عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسحنون (240هـ / 854م) الذي جمعها وصنفها، ورواها عن عبد الرحمن بن القاسم العتقي (191هـ / 806م) عن الإمام مالك بن أنس، وتنسب أحيانا إلى سحنون، لأنه رواها، فيقال مدونة سحنون.نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة : 24 / 08 / 2013 الساعة 14:53 سا

[488]– عبد الرحمان بن خلدون ، المقدمة ط1 ، دار الفكر ، بيروت . 2006 ، ص ، 457

[489]– إسماعيل سامعي،دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن 8م / 11م – (2هـ / 5هـ) ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر . 2005 ، ص ، 25

[490]– زدك إبراهيم ، الفتوى عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص ، 55

[491]– المرجع نفسه ، ص ، 55 . ذلك أنه عندما دخل الفاطميون إلى منطقة المغرب دخلوا القيروان و أسقطوا الأغالبة سنة 908م و أسقطوا كذلك الإباضية في تهرت و الأدارسة في تلمسان و صارت الجزائر من مشرقها و وسطها و غربها تحت سلطة الشيعة الفاطميين ، نقلا عن، محمد السيد ، تاريخ دول المغرب العربي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية . 2006 ، ص ، 151

[492]– علاوة عمارة ، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و الغرب الإسلامي ، مرجع سابق ص ، 134

وشرقي الجزائر فحسب بل في جميع بلدان الجزائر والمغرب الأقصى،وأيضا في طرابلس وبرقة،وأخذ يدرّس في كل بلد مغربي وكثر فقهاؤها كثرة مفرطة[493] .

أما في العهد الموحدي (دولة الموحديـــن) فقد بذل الموحدون أقصى ما يمكن من الجهود وتفننوا في الوسائل المختلفة للقضاء على المذهب المالكي وعلى فقهاء المذهب المالكي وعلى أنصاره ، فقاموا بحملة كبرى تعسفية ضد من كان يعتنقه أحرقوا كتب الفقهاء على مرأى ومسمع من أفراد الشعب للقضاء على المذهب [494] ، غير أنه وبمجيء المرينيين واستيلائهم على الحكم سنة 668هـ / 1269م ، أعادوا للشعب مذهبه الرسمي [495] أما في المغرب الأوسط فإن مدارس تلمسان قد وجدت من أجل المذهب المالكي واطراح بدعة الموحدين ومذهبهم في الاعتقاد... وكان كل مدرسي هذه المدارس من المالكية [496].ولما كان سلاطين بني زيان مالكيين فقد كانوا يؤكدون على تدريس الفقه والأصول المستمدة من أفكار المذهب المالكي وآرائه [497] .

5-عوامل انتشار المذهب المالكي

ثمة مجموعة من الأسباب والعوامل ساهمت في انتشار المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي،وتعلق معظم المغاربة به ، خاصة بعد نهاية دولة الموحدين الأم وظهور الدويلات الثلاث (المرينية و الزيانية والحفصية) ناهيك عن فترة تواجد الأتراك بالشمال الإفريقي(رغم وجود المذهب الإباضي وكذا المذهب الحنفي) ومن أبرز تلك العوامل :

العامل الأول : شخصية صاحب هذا المذهب ، و تمسكه بالسنة و محاربة البدعة و انتمائه إلى مدينة الرسول ﷺ هذه المدينة التي كانت عاصمة الإسلام و مركزه و هو بذلك أعلم القوم[498]

العامل الثاني:يتمثل في تشابه البيئتين (الحجازية و المغربية) في البداوة و مذهب الإمام مالك يميل إلى الشدة والقساوة ، والبعد عن مظاهر الترف و ملذات الحياة و هذه المظاهر و جدت ضالتها في نفسية المغاربة والذين عادة ما يميلون إلى الشدة و الغلظة ، فأحبوا بذلك الإمام مالك، و تعصبوا له و حاربوا من أراد إزاحته[499] .

العامل الثالث : دور السلاطين في إجبار الرعية على اعتناق هذا المذهب و العمل به ، ومن أمثلة ذلك دولة الأدارسة بزعامة إدريس بن إدريس (إذ حقّق المذهب المالكي انتشارا واسعا)[500].

---

[493]– شوقي ضيف ، عصر الدولة و الإمارات ط1 ، دار المعارف ،القاهرة . 1995 ص ، 70

[494]– محمد بن احمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية ، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1406 هـ / 1985م ، ص ، 50 ، 51

[495]– المرجع نفسه ، ص ، 51 ، أنظر كذلك : سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 51

[496]– ألفريد بيل ، الفرق و المذاهب الإسلامية في الشمال الإفريقي ، من الفتح العربي الى اليوم ، ترجمة عبد الرحمان بدوي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ص، 353 و ما بعدها

[497]– عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج2 ، ص، 326

[498]– نذير حمادو ، المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ، 14

[499]–زدك إبراهيم ، الفتوى عند علماء الجزائر في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص، 58

[500]– يوسف علي بدوي ، عصر الدويلات الإسلامية في المغرب و المشرق من الميلاد إلى السقوط، مرجع سابق ، ص،63

العامل الرابع : يتمثل في كثرة أصوله التشريعية، المتمثلة في القرآن و السنة و الإجماع و القياس و قول الصحابةوالعرف وسد الذرائع ...مما يتيح للمفتي اختيار أصلحها و أقربها للحق و العدل لتتماشى وبيئة المجتمع المغربي[501].ويضيف الباحث عمر الجيدي(بأن الفقه المالكي،فقه عملي ، يعتدّ بالواقع و يأخذ بأعراف الناس و عاداتهم ...و قد وجد المغاربة فيه ما يشبع رغبتهم و يلبي حاجتهم،و ينسجم مع عقليتهم)[502]كما أن الباحث زدك إبراهيم يضيف إلى أن (الدعم الجماهيري كان أقوى تأثيرا من الدعم السياسي فبفضله تمكن المذهب المالكي من الحيازة على مركز متقدم و مهم في المنطقة – منطقة المغرب الإسلامي – والتي مكّنته من مواجهة مختلف العقبات ، و اكتسح معاقل المذهبين الحنفي و الإباضي)[503]

العامل الثاني :الطرق الصوفية

سبق وأن تعرضنا في الفصل الثاني إلى الزوايا و المرابطين و الإشارة إلى بعض الطرق الصوفية،والتي كان لها تأثير كبير على ثقافة المجتمع المغاربي بصفة عامة . لكننا نود هنا أن نركز على أكبر الطرق الصوفية انتشارا في المغربين الأوسط و الأقصى – في الفترة موضوع البحث – على اعتبار أن عددا كبيرا من علماء هذه الفترة قد تأثر بهذه الطرق تأثيرا مباشرا ، فأثّر ذلك في علاقته بالناس و علاقته بربه من خلال تآليف كانت تحث الناس على ضرورة الالتزام بأمور الدين في الدنيا و الاستعداد للآخرة . فما هي أبرز الطرق الصوفية في المغرب الأوسط و المغرب الأقصى خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ؟ و هل كانت تمثل تقاطعا أم اختلافا لثقافة البلدين ؟

كان لظهور الطريقة مبررا في تقسيم العقيدة الإسلامية إلى شريعة وحقيقة ، فالشريعة هي الباب الذي يدخل منه الجميع ،والحقيقة هي التي لا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار ، فهي بذلك طريق خاص بنوع من الناس يتميزون عن غيرهم برؤية معينة في المنهج اللازم إتباعه للوصول إلى الحقيقة المطلقة عبر مراحل ومقامات محددة ، تجتهد كل طريقة في استقائها من منابع ، ومصادر،تعتقد أنها يقينية[504] .

ويعتبر شيخ الطريقة هو حامل البركة التي عرّفها بعضهم بأنها الكثرة و العندية والقناعة المعنوية وقد يكون الشيخ وليا صالحا أوعالما شهيرا ،كالشيخ عبد الرحمان الثعالبي في الجزائر وأبي مدين في تلمسان ... ويعتبر(

---

[501]– زدك إبراهيم ، الفتوى عند علماء الجزائر في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص، 59

[502]–عمر الجيدي ، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب ، مرجع سابق ،صص، 05 ، 06 . و مما تجدر الإشارة إليه هو أن هناك فرق بين الفقه و أصول الفقه ، فالفقه: هو الذي يعرف المسلم به حكم الله تعالى في جميع تصرفاته، في مجالات الحياة . أما أصول الفقه: (هو علم قائم بذاته له ضوابط و شروط) إذ أنه المدخل لفهم نصوص الشرع ، و هو الأداة لكسب القدرة على استنباط الأحكام الشرعية العملية . لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع أنظر : الحبيب بن طاهر ، الفقه المالكي و أدلته ، مرجع سابق ص،05 و ما بعدها

[503]– زدك إبراهيم ، الفتوى عند علماء الجزائر في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص، 87

[504]– التليلي العجيلي ، الطرق الصوفية و الاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية ، 1881 / 1939 . منشورات كلية الآداب بمنونة . تونس . 1992 ، ص ، 35

الشيخ) هو ظل الله في الأرض والنائب عنه في نظر البعض،وعلى الإخوان (الأتباع) الطاعة ، لأن الله يحكم بطريق الشيخ[505] .

ويبدوأن محاولة وضع جرد للطرق الدينية في الجزائر مهمة صعبة جدا ، إن لم نقل أنها مستحيلة بسبب تشعبها وتفرعها ، حيث نجد العديد من الطرق متفرعة عن طريقة واحدة ، لكن الأصعب هو وجود طرق متفرعة عن طريقتين أصيلتين أو أكثر[506] ، ونفس الشيء يقال عن المغرب الأقصى، إذ يؤكد الباحث المغربي محمد حجي تكاثر الزوايا (التي تعتبر وعاءا للطرقية) خلال القرن 10 - 11 هـ/ 16 -17م . حتى كاد عددها يفوق عدد المساجد[507] .

لقد تعددت الطرق الصوفية في الجزائر [508] ومثلما سبقت الإشارة إليه فان عددها كبير لأنها متفرعة عن أصول موجودة خارج الجزائر أوأخرى أصلية ظهرت في الجزائر ثم تفرعت،وتأتي أهمية هذه الطريقة أوتلك في عدد أتباعها فبعضها له آلاف الأتباع وهم منتشرون على كامل البلاد والبعض الآخر محدود الأتباع وفي مناطق معينة،وتشير الدراسات الى أن الطرق الصوفية،التي كانت منتشرة في المغرب هي ذاتها التي كانت منتشرة في الجزائر[509]ومن أبرز الطرق الصوفية في الفترة موضوع البحث،القادرية بالمغرب الأوسط والشاذلية بالمغرب الأقصى

أ- الطريقة القادرية :

تعتبر الطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية على الإطلاق تأسيسا و أقدمها ظهورا على مستوى العالم الإسلامي ، و هي تنسب لمؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني (أو الكيلاني) المتوفي ببغداد سنة 561هـ / 1166م إذ هو يعتبر عند المتصوفين سلطان الأولياء ، و قطب الأقطاب ، و الغوث ، وعضد الإسلام ، و أتباعه يحلفون بجاهه ، و يلقبونه أيضا (بمولى بغداد)[510] ، و بهذا يعد أعظم الأولياء شهرة في الإسلام [511] ، ولهذه الطريقة أوراد منها حزب الوسيلة وورد الجلالة [512] .

---

[505]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ج4 ، مرجع سابق ، ص ، 11

[506]- صباح بعارسية ،حركة التصوف في الجزائر خلال القرن 10هـ / 16م ، مرجع سابق ص .89 .تطرقت الأستاذة صباح بعارسية لمجموعة من الطرق الصوفية سواء في العالم الإسلامي ،كالخلواتية بمصر و تركيا . أو السهرورية بفارس أوفي إفريقيا كالجنيدية،والنورية والنقشبندية و التجانية أو في المغرب الكبير ، كالقادرية و الشاذلية ، و هما الطريقتان اللتان سوف نتطرق لهما خلال هذه الدراسة باعتبارهما أوسع الطرق انتشارا .

[507]- محمد حجي ، الزاوية الدلانية ، و دورها الديني و العلمي و السياسي ، المطبعة الوطنية بالرباط ، 1964 ، ص ، 56

[508]- مختار جبار، عن التصوف و الصوفية في الجزائر . انظر : الموقع الإلكتروني : http//www.almahdy.net

[509]- عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية الاجتماعية الثقافية بين الجزائر و المغرب ج2 ، مرجع سابق ، ص ، 137

[510]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج4 ، مرجع سابق ، ص ، 42

[511]- محمد بن بريكة البوزيدي الحسيني ، موسوعة الطرق الصوفية – الطريقة القادرية – ج3 . دار الحكمة ، الجزائر، 200 ،ص14

[512]- لمزيد من المعلومات حول هذه الأوراد أنظر : سعيد مراد ، الفرق و الجماعات الدينية في الوطن العربي قديما و حديثا . عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية .مصر . 1997 ، صص، 533 / 534 ؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج4،مرجع سابق، ص 43

أمادخول الطريقة القادرية إلى الجزائر فقد كان على يد الشيخ أبو مدين شعيب بن حسين [513] الذي التقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني في عرفات،وتتلمذ ودرس على يده في مكة ثم عاد إلى الجزائرواستقر ببجاية حيث تصدى للتعليم و التدريس،ونشر طريقته الصوفية القادرية ... فأقبل عليه الطلاب من الأندلس وفاس ومراكش و تلمسان ، ومن أبرزهم : عبد السلام بن مشيش الذي يعد شيخ شيوخ الطريقة الشاذلية القادرية ومنه انتقلت إلى أبي الحسن الشاذلي [514] وعنه انتقلت إلى الشيخ مصطفى بن المخطار الغريسي والشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر [515] .

ب- الطريقة الشاذلية :

ترجع الشاذلية إلى المشيشية [516] ، التي ترجع إلى المدينة التي هي فرع من القادرية ،وتنسب الشاذلية إلى الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المولود سنة 593هـ/1196 م [517] ،وقد تلقى علوم الطريقة عن الشيخ عبد السلام بن مشيش . و لما بلغ الثانية و العشرين من عمره انتقل إلى قرية شاذلة خارج عاصمة تونس، و اختلى بها ،ولما اشتهر أمره تصدت له السلطة السياسية آنذاك ، فخاف على نفسه، وانتقل إلى مصر أين أظهر كراماته، لكن أعداءه اتهموه بالإلحاد... إلى أن انتصر له مجموعة من العلماء واعترفوا بعلمه وورعه ومن بينهم العزّ بن عبد السلام المعروف بسلطان العلماء ، ومن ثمة كثر أتباعه ... ومن أبرز تلاميذه أبو العباس أحمد المرسي (ت 668هـ/ 1269 م) [518] .

وقد امتدت تعاليم أبو الحسن الشاذلي إلى ابن عطاء الله الإسكندري (ت 709هـ) وأحمد زروق وأحمد بن يوسف الملياني [519] ثم العربي بن أحمد الدرقاوي (صاحب الطريقة الدرقاوية) ، التي تعتبر إحدى الطرق المتفرعة

---

[513]- ولد باشبيلية سنة 500هـ ، و قد عاش 94 سنة ، بعضها في الأندلس و بعضها الآخر في فاس و تلمسان و بجاية ، توفي سنة 594هـ/ 1197 م ، بتلمسان و فن بها . أنظر : سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج4 ، ص ، 64 ، 65

[514]- يحي بو عزيز. موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، ج1 دار الهدي للنشر والطباعة و التوزيع . الجزائر .2004 ،ص، 440

[515]- يحي بو عزيز ، المرجع السابق، ص ، 440

[516]- نسبة إلى عبد السلام المشيشي المتوفي سنة 628هـ و هو أحد تلامذة أبي مدين شعيب ، و قد ظهرت المشيشة في الغرب الأقصى ، أيام الدولة الموحدية ، و قد أوصى أبو محمد بن عبد السلام بن مشيش بما يعرف بعبادة الصديقين و مضمونها مايلي : كلوا و اشربوا والبسوا وانكحوا ، واسكنوا و ضعوا كل شيء حيث أمركم الله ولا تسرفوا واعبدوا الله و اشكروه و لا تشركوا به و عليكم بكف الأذى و بذل الندى ، فإنها نصف العقل ونصفه الثاني أداء الفرائض واجتناب المحارم وأن عبادة الله التفكر في أمر الله والتفقه في دين الله

أنظر : الطاهر بوناني ،الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرن (6 ، 7 هـ / 12 ، 13 م) ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي بإشراف د . عبد العزيز فيلالي – جامعة الجزائر . 2000 م، ص ، 119 ، نقلا عن عبد المجيد الصغير ، إشكاليةإصلاح الفكر الصوفي في القرن 18 / 19 م ، دار الآفاق الجديدة . المعرب ص ، 34

[517]- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي ج4 ، مرجع سابق ، ص ، 66 . انظر كذلك : الطاهر بوناني ، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرن 6 ، 7 هـ / 12 ، 13 م ، المرجع السابق ، ص ، 118

[518]- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي ج4 ، مرجع سابق ، صص ، 66 ، 67

[519]- سبقت الإشارة إليه في الفصل الثاني

عن الشاذلية والتي قد ظهرت في آخر القرن 18م في المغرب ،ثم انتشرت في الجزائر [520] . توفي أبو الحسن الشاذلي أثناء إحدى حجاته سنة 656 هـ / 1258م .[521] ومن المؤكد أن التراث الشاذلي هو أحد الروافد الكبرى للثقافة المغربية الإسلامية في منطقة المغرب العربي كلها، وقد حقّق المغرب أكبر انتصار على الصليبية في معركة وادي المخازن 1578م الشهيرة ، إنما كان بفضل شيوخ الشاذلية الذين أذكوا همم الشعب في الوقت الذي كانت فيه السلطة منقسمة على نفسها [522] ويضيف الباحث عبد السلام شقور بأن للطريقة الشاذلية فضلا كبيرا على شعوب المغرب العربي في المجال العلمي (كالتربية والتعليم) والمجال السياسي(كانت في طليعة المجاهدين ضد الصليبين) والمجال الاجتماعي(كانت ملاذا للفقراء ولمن ذاقت به الأرض) [523].

ومهما يكن من أمر فإن أتباع الطريقتين القادريةوالشاذلية،كانوا يعدون بالآلاف وهنا نذكر بعض الإحصائيات على سبيل المثال لا الحصر إذ يذكر الدكتور سعد الله أبو القاسم نقلا عن رين أنه قد بلغ عدد أتباع الطريقة القادرية بالجزائر سنة 1882(14574إخوانيا) منهم 268 مقدما و بمجموع 29 زاوية ليرتفع هذا العدد سنة 1897 إلى :(2457 إخوانيا) منهم 558 مقدما و بمجموع 33 زاوية[524]. أما عن الطريقة الشاذلية فقد قدر عدد أتباعها في الجزائر عام 1897م ب: (14206إخوانيا) و 11 زاوية و 99 مقدما[525] و قد تفرعت عن الزاويتين السابقتي الذكر عشرات الزوايا الأخرى سواء في الجزائر أو المغرب و منها القادرية العمارية و الزروقيةواليوسفية و العيسوية والحنصاليةوالدرقوية والهبريةو الرحمانية و التجانية و السنوسية ... الخ [526]. و الشيء المهم في نظرنا ، من خلال الحديث عن الزاويتين القادرية والشاذلية هو ما خلّفه زعماء هاتين الزاويتين والذي كان محل دراسةوعناية من طرف المشرفين و المنتمين إلى هاتين الزاويتين و فروعهما سواء في الجزائر أو في المغرب ومن ذلك ما خلّفه الشيخ عبد القادر الجيلالي من كتب ورسائل نذكر منها : الفتح الرباني ، و الغنيمة لطالب الحق ، والفيضات الربانية [527]كما كان لأبي الحسن الشاذلي مؤلفات عدة أبرزها :

---

[520]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج4 ، مرجع سابق ، صص . 67 ، 68

[521]– مزيدا من المعلومات عن الشاذلية . أنظر: محمد مصطفى عبد القادر ، الطريقة الشاذلية ، الموقع الإلكتروني :
http://www.alsoufia.com

[522]– عبد السلام شقور – التواصل العلمي بين بلدان المغرب العربي من خلال التراث الصوفي للشيخين أبي العباس زروق و أبي عبد الله الخروبي ، الطرابلسي ، أعمال ندوة التواصل الثقافي بين اقطار المغرب العربي ، تنقلات العلماء و الكتب ، مراجعة و تقديم ، د . عبد الحميد عبد الله الهرامة ، كلية الدعوة الإسلامية ، ليبيا ط1 . 1998 ، ص ، 155

[523]– عبد السلام شقور .نفس المرجع ، ص ،156

[524]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج4 ، مرجع سابق ، ص ، 58

[525]– أبو القاسم سعد الله نفس المرجع ، ص ، 77

[526]– لمعرفة تفاصيل أكثر عن هذه الزوايا عد إلى : أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الرابع ، مرجع سابق ، صفحات ، 33 إلى 281 و كذا الصفحات ، 291 إلى 300 ، التي تشمل إحصاءات عددية عن هذه الطرق السابقة الذكر .

[527]– صلاح مؤيد العقبي ، الطرق الصوفية و الزوايا بالجزائر . تاريخها و نشاطها ، دار البرق ، بيروت . 2002 ، ص ، 143

الحزب المشهور (حزب الشاذلي) و رسالة الأمين في آداب التصوف ، و السر الجليل في خواص حسبنا الله و نعم الوكيل [528]

لقد كان للطرق الصوفية – خاصة القادرية و الشاذلية – في الجزائروالمغرب مكانة هامة لا يستهان بها والهدف من الحديث عن هذه الطرق الصوفية ،كما يبرزه الباحث عميراوي احميدة ، ليس إبراز مكانتها كعقيدة فلسفية دينية بقدر ما هو إبراز دورها الثقافي و الديني [529] و للدلالة على مدى تأثر الشعبين الجزائري و المغربي بالطريقة الصوفية الشاذلية نورد. مثالا حيا كان له أكبر الأثر في تهديد المصالح السياسية للدولتين الزيانية (بالمغرب الأوسط) الدولة السعدية بالمغرب الأقصى ، ذلك أن انتشار الطريقة اليوسفية التي تنسب إلى الشيخ أحمد يوسف الملياني [530]، أثناء حياته (توفي سنة 931هـ / 1525م)قد هزّت حركته الدولة الزيانية بتجمعاته في رأس الماء بتلمسان و وهران ...كما هزّ أتباعه الدولة السعدية ، حتى حاربهم عبد الله بن محمد السعدي (965هـ 981هـ/ 1557م– 1574م) متهما إياهم بالانحراف عن الدين وربما لأنهم أنصار العثمانيين [531] وعلى العموم فإن الطريقة القادرية في الجزائر كانت مؤيدة للأتراك العثمانيين و أتباعها بالمغرب الأقصى كانوا مناصرين للوطاسيين ثم للعثمانيين ، أما أتباع الطريقة الجازولية الشاذلية فكانوا مؤيدين للأشراف السعديين في المغرب و تلمسان ، إذ أنه بعد سيطرة العثمانيين على تلمسان خرج العديد من المرابطين الشاذليين إلى المغرب الأقصى [532] .

ومن هنانستنتج أن هجرة العلماء الجزائريين الذين هاجروا من تلمسان إلى المغرب الأقصى مع منتصف القرن 10هـ/ 16م ، كانوا (في معظمهم)شاذلي الطريقة .

العامل الثالث : التعليم

كنا قد أشرنا في الفصل الثاني من هذا العمل إلى أهمية التعليم،واهتمام بعض السلاطين به سواء سلاطين الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط،أوالسعديين بالمغرب الأقصى،وقد كان ذلك في فترات متقطعة وليس في حياة كلا الدولتين نظرا لتذبذب الأوضاع السياسية والتي عادة ما تؤثر سلبا على الأوضاع الثقافية خاصة التعليم وفي هذه الجزئية من البحث سوف نتساءل عن طرق التدريس في البلدين .هل كان امتدادا لثقافة البلدين رغم

---

[528]– صلاح مؤيد العقبي ، المرجع السابق ، ص ، 154.

[529]– عميراوي احميدة ، علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس ، أواخر العهد العثماني و بداية الإحتلال الفرنسي ، دار البعث ، قسنطينة ، ص ، 29

[530]– سبق التطرق إليه في الفصل الثاني

[531]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، صص ، 496 ، 497

[532]– صباح بعارسية ، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن 10هـ / 16م ،مرجع سابق ، صص ، 186 / 187 نقلا عن :

– Boyer, la politique religieuse des turcs, in revue de l occident musulman et de la méditerranée, n 11, semestre 1er 1966 archives d outre mer, Aix en Provence; p p,24, 25

الخلافات السياسية بينهما ؟ أم كان ثمة اختلاف في المناهج وطرق التدريس ؟ . وما أثر ذلك على الأوضاع الثقافية ؟؟

من خلال إطلاعنا على بعض المصادر و المراجع التي تناولت الحياة الفكرية و الأدبية و الثقافية –للفترة موضوع البحث – تأكد لنا بأنها صورة تكاد تكون نمطية في طرق التدريس و المواد التي يدرسها الطلبة وحتى أماكن التدريس ، باستثناء المراكز العلمية التي كانت تشدّ إليها الرحال – خاصة جامع القرويين – الذي كان بمثابة منارة علمية وثقافية ،جعلت المغرب الأقصى يتفوق (إن صح التعبير) على المغرب الأوسط علميا وثقافيا وقد إمتاز التعليم في هذه الفترة بما يلي :

العلوم التي كان يدرسها الطلبة : كانت معظم العلوم و المعارف التي يتلقاها الطلبة علوما دينية بالدرجة الأولى، إذ (يبدأ الأطفال بحفظ الحروف الهجائية قبل التعرف على أشكالها في الألواح ثم يحفظون فاتحة الكتاب، فسورة الناس ، فالفلق ، فالإخلاص ... حتى يحفظونه عن ظهر قلب)[533] .

وفي المغرب الأوسط (فقد كان الأطفال يجلسون على الأرض ، فوق الحصير في شكل دائري ثم يقوم الشيخ بالإملاء على التلاميذ، أجزاء من القرآن الكريم ، آيات أو ثمن أو ربع من القرءان الكريم يكتبونها على ألواح مصنوعة من الخشب مطلية بطين الصلصال و مكتوبة بأقلام مصنوعة من القصب و سمغ (حبر) ... وبعد الكتابة و التصحيح في فترة الصباح يتمرّن الأطفال على القراءة الأولية ثم يتلونه في المساء ، ويقرؤونه بأصوات جهورة إلى أن يتم حفظ الجزء المكتوب ، ثم يمحونه في صباح اليوم الموالي و هكذا تتم عملية الحفظ بصورة دورية و دائمة ، إلى أن يتم ختم القرآن الكريم كله[534] .

وفي المرحلة الثانية و التي توازي في وقتها الحاضر (التعليم المتوسط) يكون على المراهق أن يحفظ الأمهات مثل ألفية ابن مالك ، و مختصر خليل في الفقه .[535] و يستمر الحفظ في المرحلة النهائية من الدراسة ، فنجد بعضهم يحفظ : تسهيل ابن مالك ، و ديوان المتنبي ... بل نجد من المدرّسين من يستظهر صحيحي البخاري ومسلم ، وموطأ مالك ، ومدونة سحنون ، وغيرها من المؤلفات الطوال[536]

---

[533]– محمد حجي ، جولات تاريخية ، الجمعية المغربية ، تأليف و الترجمة و النشر ، دار الغرب الإسلامي ،مرجع سابق ، ص ، 221

[534]– أحمد مريوش ، و آخرون ، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص ، 18

[535]– يشمل هذا المختصر فقه المذهب المالكي في الطهارة و الصلاة و الزكاة و الصيام ... و مختلف العبادات . أنظر الملحق رقم : (الملاحق) ، وقد وصل مختصر خليل إلى الجزائر (المغرب الوسط) قبل وصوله إلى المغرب (المغرب الأوسط) ، و قد نقله عالم جزائري ، انتقل إلى المغرب فعكف الناس على دراسته هناك ، كما عكفوا عن دراسته في الجزائر ، أنظر: عمار بن خروف العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر والمغرب ، ج2 ، مرجع سابق ، ص ، 140 . نقلا عن البستان ، ص ، 99 – 264 .

[536]– محمد حجي ، جولات تاريخية ، مرجع سابق ، ص ، 221 .

ولعل أبرز من كتب في التعليم بالمغرب الأوسط هو العالم محمد بن أبي جمعة الوهراني (سبق التطرق إليه في المبحث الثاني من هذا الفصل) و ذلك في كتابه الموسوم ب : " جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما بين المعلمين و آباء الصبيان "[537] ، وذلك في أوائل القرن 10 هـ / 16 م

العامل الرابع:المختصرات

بدأت مختصرات الفقه المالكي أوائل القرن الثالث و انتشرت في القرن الرابع هجري ، ثم تضخّم حجمها بشكل لفت انتباه الناس في القرن السابع هجري ... وظاهرة الاختصار كانت نتيجة تقاعس الهمم ، وقصور الفقهاء على الابتكار و الإبداع ... والاختصار معناه ضم بعض الشيء إلى بعض بقصد الإيجاز والغرض منه،إيراد المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة... وقيل هو إيجاز اللفظ مع استيفاء المعنى وهو ما دلّ قليله على كثيره[538] وقد استطاع مختصر خليل من أن يسيطر على مختلف الدراسات الفقهية المالكية،ومن خلال الشروح والحواشي التي وضعت له بأنه يأتي في المرتبة الثالثة بعد القرآن وصحيح البخاري[539] ،ويسميه العوام (كتاب سيدي خليل)[540] . وقد أجمع أهل المذهب على عظيم فائدته[541] .

وبالإضافة إلى مختصر خليل كانت تدرّس في كلا البلدين (المغرب الأوسط و المغرب الأقصى) مجموعة من العلوم الأخرى أبرزها علم الحديث اعتمادا على صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك[542] .ومن خلال الدراسة التي قام بها الباحث المغربي محمد حجي حول الزاوية الدلائية التي تأسست سنة 974هـ / 1566م على يد أبو بكر بن محمد سعيد الدلائي أمكننا الاطلاع على مجموعة من العلوم التي كانت تدرسها هذه الزاوية،وهذه العلوم هي مماثلة لما كان يدرّس في المغرب الأوسط ومنها علم القراءات وعلم التفسير ،وعلم التوحيد،والفقه

---

[537]– يعطي هذا الكتاب صورة حية عن واقع تاريخي للتعليم الابتدائي في المكاتب القرآنية لحفظ القرءان ، و تعلم القراءة و الكتابة بتلمسان والمغرب ، بالإضافة إلى الأحكام الفقهية التي تتصل بالمعلمين وأجورهم وبالتلاميذ وما يدفعونه مقابل تعليمهم.ويغلب على الكتاب الطابع الفقهي انظر :أحمد بن أبي جمعة المغراوي " جامع جوامع الاختصار و التبيان فيما يعرض للمعلمين و آباء الصبيان " ، تحقيق و تعليق أحمد جلولي البدوي و رابح بونار،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . أنظر : الملحقات رقم 1 ،2 ،ص، 125 من هذه المذكرة(صورة طبق الأصل للمخطوط)

[538]– عمر الجيدي ، مباحث في المذهب المالكي ، مرجع سابق ، ص ، 87 .

[539]– زدك إبراهيم ، الفتوى عند علماء الجزائر في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص، 75

[540]– بوجلال قدور، العلم و العلماء في بايلك الغرب (1711 – 1830) معسكر و مازونة نموذجا ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث ، المركز الجامعي ، مصطفى اسطنبولي، معسكر ، 2008 ، ص ، 195

[541]– بوجلال قدور . المرجع السابق ، ص، 194

[542]– بوجلال قدور.المرجع السابق ، ص، 198 .

والأصول ،ومن أبرز الكتب التي كانت تدرّس عقائد الإمام السنوسي(الكبرى والوسطى والصغرى)[543] بالإضافة إلى كتب التصوف كرسالة القشيري ، وحكم ابن عطاء الله [544] .

وبسبب ما ذكرناه سابقا عن مكانة " جامع القرويين "فقد قصدته وفود العلماء من الأندلس والجزائر وتونس...(ومن الجزائر دخلت مجموعة من العلماء بسبب السياسة العثمانية التي كانت تضيّق الخناق على من يعارض سياستهم خاصة من تلمسان ووهران والجزائر وقسنطينة وعنابة،واستقر معظمهم في فاس.. فاستقبلتهم جميعا برحابة صدر وكرم العشرة ، وعناية الملوك الشرفاء بهم وسخي عطاياهم ما سلاّهم عن الاغتراب ودفع بهم إلى الإنكباب على التدريس و التأليف [545] .

العامل الخامس: الإجازات العلمية

تعتبر الإجازة بمثابة (شهادة كفاءة) أوتأهيل يستحق بها المجاز لقب الشيخ أو الأستاذ في العلوم المجاز بها[546] ومن خلال الإجازات التي يقدمها هؤلاء الشيوخ لطلبتهم ، يمكننا معرفة مختلف العلوم التي كانت تدرس ،وعليه ومن خلال إطلاعنا على بعض المصادر والمراجع تبين لنا أن الفقه وأصول الفقه والحديث والنحووالبلاغة والعروض،والمنطق،والتوحيد ،والقرءان...الخ ، هي المواد التي كان يعكف على دراستها الطالب في المغرب ونظيره في الجزائر،وذلك من خلال صحيح البخاري ،مختصر خليل ،عقائد السنوسي في التوحيد، حكم ابن عطاء الله في التصوف، ألفية ابن مالك والآجرومية في النحو ... الخ ونذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض الإجازات ، فقد راسل أبو العباس أحمد بن القاضي(صاحب جذوة الإقتباس و درة الحجال)،راسل سعيد المقري(عم أحمد المقري صاحب نفح الطيب) عالم تلمسان الشهير و طلب منه الإجازة العامة فيما له من مروي ومقروء ومجاز ومسموع مع ذكر مشايخه الأعلام و ذلك سنة 1009هـ/ 1600م ، وقد لبّ سعيد المقري طلبه في نفس السنة [547] ،وقد حصل ابن عسكر الشفشاوني على إجازات كل من العلماء الجزائريين أبو العباس أحمد بن محمد العبادي التلمساني ، وأبو عبد الله محمد بن هبة الله الوجديجي [548] .

---

[543]– محمد السنوسي ، هو صاحب (العقائد) المشهورة التي تبارى العلماء في شرحها و درسها و تقريرها و حفظها و هي في علم الكلام ، الذي عرّف به السنوسي و جعله العلم المؤدي الى معرف الله . أنظر : ابن مريم – البستان – مصدر سابق ، ص ، 257 الى ص 267 ، كذلك : ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 95 ، 96 ، 97 ، 98

[544]– محمد حجي ، جولات تاريخية ، مرجع سابق ، ص ، 72 ، 73 ، 74 . أنظر كذلك : عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، مرجع سابق ، ص ، 307 ، نقلا عن : الفشتالي ، مناهل الصفا ، ص ، 265

[545]– محمد حجي ، جولات تاريخية ، مرجع سابق ، صص ، 207 ، 208

[546]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ، مرجع سابق ، ص ، 39

[547]– عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب ، ج2 ، مرجع سابق ، ص ، 135 ، 136

[548]– ابن عسكر ، الدوحة ، مصدر سابق ، ص ، 117 ، 118 ، 119

كما حصل أحمد المقري (صاحب نفح الطيب) على إجازات وهو في المغرب من بعض العلماء منهم : أبو العباس أحمد بن القاضي،وأبو العباس أحمد بن أبي القاسم التالي[549]بالإضافة إلى إجازات أحمد المنجور التي دونها في فهرسته[550] من طرف العديد من علماء الجزائر الذين كانوا قد هاجروا إلى المغرب الأقصى.ويكون نص الإجازة كما جاء في بعض الوثائق المعاصرة (الحمد لله وحده و الصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد فقد أجزت لك أن تروي عني جميع ما يجوز لي متلفظا بها بشرطه المعتبر عند أهلها وكتبه محمد بن أحمد بابا بن أحمد... بإذن والده) [551]كما أن الكثير من الرحلات التي كان يقوم بها بعض العلماء بين البلدين، كانت تتخللها مناقشات ومناظرات فكرية و دينية ، تكاد تكون متطابقة إلى حد كبير بحكم التكوين المتشابه في مواد الدراسة والكتب، وطرق التدريس، السائدة في البلديين [552]

المبحث الرابع :نتائج هجرة علماء تلمسان إلى فاس

تطرقنا في المبحث الأول من هذا الفصل إلى أن الهجرة أنواع منها ما هو إرادي ظرفي وهو ما كان سببه طلب العلم من طرف مجموعة من العلماء الجزائريين- خاصة إلى فاس- ولا أدلّ على ذلك من هجرة أحمد المقري. ومنها ما هو إجباري ،قسري ، كهجرة نخبة من العلماء الجزائريين إلى فاس على إثر الحملات السعدية الثلاث على تلمسان سنوات (1550-1557-1560)[553] .

ومهما يكن من أمر فإن هجرة الأوطان ومفارقة الأحباب شيء صعب ، ذلك أن الوطن عزيز و مفارقة الديار عسيرة ، رغم أن العالم الإسلامي في – الفترة موضوع البحث – لم يكن عبارة عن كيانات سياسية تفصل بينها حدود . و مادامت الهجرة مهما كان نوعها فيها مشقة من جهة ، و فوائد جمّة من جهة أخرى حقّ لنا أن نتساءل عن نتائج هجرة هؤلاء العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى خلال فترة القرن 10هـ/ 16م على الجزائر (المغرب الأوسط) وعلى المغرب الأقصى بعد حلولهم بها ؟

1- نتائج هجرة العلماء على الجزائر

إن معاملة الأتراك و الحروب الداخلية التي عرفتها الدولة الزيانية في أواخر أيامها وعلاقتها بالإسبان في وهران وضغط بني وطاس عليها من الغرب و العثمانيين من الشرق كل هذه العوامل وغيرها ، قد جعلت (العلماء لا يشعرون بالراحة ولا بالجو الملائم والاجتهاد في الرأي و الحياد السياسي) فما كان من العديد منهم إلا أن

---

[549]- المقري احمد ، روضة الأس العاطرة الأنفاس ، ص ، 283 ، 300

[550]- عد إلى ، أحمد المنجور ،فهرس أحمد المنجور ، تحقيق محمد حجي ، مصدر سابق

[551]- عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، مرجع سابق ، ص 308 . نقلا عن : التامنارتي ، الفوائد الجمة ، ص 45

[552]- حول موضوع الرحلات في العهد العثماني و كذا المناقشات و المناظرات بين علماء البلديين . أنظر الدراسة القيّمة للطالبة : ليلى غويني الموسومة ب : التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية الجزائرية ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث ،معهد التاريخ، جامعة الجزائر، اشراف د،عائشة غطاس، 2011/2010 م

[553]- أنظر الهامش ،رقم ، 362 ، ص،88،89 من هذه المذكرة

حمل أمتعته وأهله وترك البلاد جملة حتى يهدأ غبار الفتن و المعارك [554]وهذه الظروف الحرجة المليئة بالاضطرابات لم تكن لتشجّع العلماء الجزائريين (خاصة علماء تلمسان) على البقاء في وطنهم لأن من طبيعة العالم هو البحث عن جو يسوده الهدوء والاستقرار لأداء رسالته العلمية على أحسن وجه[555] ولعل من بين الأسباب الأخرى التي دفعت بهؤلاء العلماء إلى الهجرة هو ذلك الجمود الفكري الذي عرفه المغرب الأوسط لأن العثمانيين ركزوا اهتمامهم على الجهاد البحري منذ مجيئهم إلى الجزائر مع مطلع القرن 10هـ / 16م،وذلك لصد هجمات (الأوربيين الكفار) المتتالية على السواحل الجزائرية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هو أن الأتراك كانوا أعاجم لا يتقنون لغة أهل البلد وهو ما جعلهم لا يولون الثقافة الاهتمام الذي تستحقه [556] ، ويضيف الباحث أبو القاسم سعد الله عن الأتراك (حكام الجزائر آنذاك) أنهم في معظم الأحيان جهلة لا يعرفون حتى القراءة والكتابة ،كما كانوا مغامرين لا فائدة لهم من الحكم إلا جمع المال والتسلط [557] .

إن من يبحث في نشاط الحياة الثقافية في المغرب طوال القرن 10هـ / 16م ، يجد أنه كان قائما في جزء كبير منه على جهود عديدة من العلماء الجزائريين (خاصة علماء تلمسان) الذين استوطنوا المغرب إذ كانت المراكز الثقافية فيه – خاصة فاس – لا تخلوا من أحد منهم [558] ، وهو ما يجعلنا نستنتج شيئا أساسيا هو تدهور الحياة الثقافية بتلمسان بسبب مغادرة هؤلاء العلماء لها،و لأن معظم العلماء و الطلبة الذين هاجروا إلى فاس آثروا الاستقرار فيها بصفة نهائية فإن هجرتهم تلك كانت تترك فراغا كبيرا في المراكز التي هاجروا منها مثل تلمسان التي هاجرت منها مجموعة كبيرة ، فضعف نشاطها الثقافي[559]

ومن خلال حديثنا عن تلك الشخصيات العلمية التي هاجرت من تلمسان إلى المغرب في الفترة موضوع البحث، فإن كتب التراجم المعاصرة لتلك الفترة ، ككتاب الدوحة ، وكتاب الإعلام ،وجذوة الاقتباس وغيرهم كانت تصف أولائك العلماء بأوصاف منها، العالم العلاّمة،الشيخ الفقيه ، الإمام العالم المحقّق صاحب العلم الصحيح و اللسان الفصيح ... إلى غير ذلك من الألقاب التي لم يوصفوا بها من قبيل المدح أو الإطراء (بل نالوها عن جدارة واستحقاق بسبب شهرتهم العلمية الذائعة الصيت التي تجاوزت الآفاق،وأثبتوا مكانتهم حتى

---

[554]– سعد الله ابو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 424

[555]– أرزقي شويتام ، العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية) ، مجلة الدراسات التاريخية . جامعة الجزائر ، معهد التاريخ. العدد ، 13 . 2011 ، ص ، 85

[556]– بوشنافي محمد ، هجرة العلماء الجزائريين، مرجع سابق ، ص ، 99

[557]– سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 14 ، إن من يقرأ كلام سعد الله ، هذا يقول بانه قد نظر نظرة قاتمة السواد إلى التواجد العثماني بالجزائر و لكي نكون موضوعيين في عملنا ندرج ما ذكره الأستاذ سعد الله من إيجابيات للتواجد العثماني بالجزائر بقوله : أما الجانب المضيء (فهو أن العثمانيين أنقذوا بتدخلهم المغرب الإسلامي من الاحتلال الأجنبي المؤكد و كانوا غزاة مجاهدين ... و كانوا شوكة في حلق العدو و قذى في عينه و صخرة تحطمت عليها كل محاولات الغزو الخارجي ... المرجع نفسه ، ص ، 15

[558]– عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب ، ج2 مرجع سابق . صص ، 131 ، 132

[559]– عمار بن خروف .نفس المرجع ، ص، 150 .

بين أقرانهم علماء المغرب الأقصى، إذ وجد بعضهم منافسة شديدة (إن لم تكن حسدا) من طرف فقهاء فاس [560]. وعندئذ يمكننا القول بأن كل عالم من هؤلاء العلماء كان بمثابة خزانة علم،ودائرة معارف.فقدت البلاد بهجرتهم ركنا أساسيا من أركان الحياة العلمية[561].

2- نتائج هجرة العلماء على المغرب الأقصى

إذا كانت الهجرة من تلمسان إلى فاس وبالا على ثقافة المغرب الأوسط وتدني مستواها،فإنه بالمقابل كانت خيرا وبركة على المغرب الأقصى،لأسباب قد تبدوا للوهلة الأولى سياسية إذ يتمثل ظاهرها في إعجاب سلاطين المغرب الأقصى(وطاسيين وسعديين)بالعلماء،بينما يتمثل باطنها في كسب هؤلاء السلاطين مؤيدين لهم،خاصة من تلمسان(التي كانت تعتبر جزءا من المغرب الأقصى منذ العهد المريني)[562] إذ رحّب السلطان محمد الشيخ السعدي بوفادة محمد بن عبد الرحمان بن جلال التلمساني فقلّده الفتوى و الإمامة و التدريس بجامع الأندلس ثم بجامع القرويين بفاس ... كما رحّب السلطان عبد الله السعدي بنداء علماء تلمسان الذين استغاثوا به في أعقاب فتنة 968هـ/1560م[563] و نقلهم إلى فاس ... وأمر للعالم أحمد بن أحمد العبادي بألف مثقال ذهبا وبكساء و إقامة جليلة ، وقال لأعوانه لا تسووه بأحد من الفقهاء فإن همّته كبيرة [564]

إن عناية الملوك الشرفاء بهؤلاء العلماء (ليس من تلمسان فقط) بل كذلك من تونس والأندلس ساهم كثيرا في تنشيط الحركة الثقافية بالمغرب،إذ أن (البلاط المغربي) وظّف العلماء الجزائريين لصالحه كما حدث في عهد الدولة السعدية حيث استفاد المغرب من هؤلاء العلماء في إزدهار الدراسات الإسلامية بمراكزه الحضارية مثل فاس [565] وقد ساهم العلماء الجزائريون في نشر العلم والمعرفة في المجتمع المغربي ، وعملوا على تقوية روابط المودة بين الشعبين... فقد كانت العلاقات الثقافية بمثابة جسور متينة تربط بين الشعبين بواسطة علماء البلدين[566] .

---

[560]- أنظر : ترجمة هؤلاء العلماء في المبحث الثاني من هذا الفصل ، خاصة العالم الفقيه : أحمد بن محمد العبادي .

[561]- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، مرجع سابق ، ص ، 424 . يشير سعد الله بقوله هذا إلى هجرة أحمد الونشريسي ، (صاحب المعيار) و نحن نعتقد جازمين أن هذا الوصف ينطبق على كل العلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى المغرب الأقصى في الفترة – موضوع البحث – فخسرت البلاد على إثرها موردا هاما من موارد الثقافة الجزائرية ، فلو استقرت الأوضاع في الجزائر آنذاك ، و لو اهتم الأتراك بالناحية الثقافية ، و عاملوا الفئة المثقفة و على رأسهم العلماء معاملة حسنة تليق بمقامهم و بعلمهم و بنوا جامعة أو جامعات ،كجامعة القرويين مثلا في تلمسان ، ألم يكن ليتغير الوضع ؟ و تصبح بذلك تلمسان رائدة في المجال العلمي – الديني بالدرجة الأولى – و تشدّ إليها الرحال كما كانت تشدّ إلى جامعة القرويين والقيروان ؟؟؟؟

[562]- عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب ، ج2 مرجع سابق ، ص، 122

[563]- سبقت الإشارة إليها

[564]- ابن عسكر ، الدوحة ، مصدر سابق ، ص ، 119

[565]- حساني مختار، موسوعة المدن الجزائرية ، مدن المغرب ، ج4 ، مرجع سابق ، ص ، 226

[566]- أرزقي شويتام ، العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية) ، مرجع سابق ، صص ، 86 ، 87

وهنا لابد من الإشارة الى أن انتقال العلماء لم يكن من جانب واحد فقط ، أي من الجزائر الى المغرب الأقصى ، بل كذلك انتقل مجموعة من العلماء المغاربة الى الجزائر – في الفترة موضوع البحث – نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد التواتي وأحمد الفاسي ومحمد الفاسي ، وعلي

وبحديثنا عن نتائج هجرة علماء تلمسان إلى المغرب لابد لنا أن نعطي نتائج ملموسة عن آثار هذه الهجرة، وعن أمثلة ذلك ما قام به الشيخ العلامة محمد بن أحمد التلمساني المعروف بإبن الوقاد (إذ كان فضله كبيرا في تحبيب العربية لأهل تارودانت البربرية التي كان قد قصدها بعد هجرته من تلمسان سنة 968هـ / 1561م،ونشرها العلوم الدينيةوالعلوم اللغوية المختلفة من حديث وتفسيروفقه وقواعد اللغة ... فتخرج بذلك على يده خلق كثير[567].

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن علماء المغرب الأوسط الذين هاجرو إلى المغرب الأقصى لم تكن وجهتهم فقط مدينة فاس بل هناك من قصد فاس ثم توجه إلى مدن مغربية أخرى و من أمثلة ذلك مدينة مراكش التي ذاع صيتها ، خاصة في النصف الثاني من القرن 10هـ/ 16م ، بعدما أصبحت مقرا لخلافة السعديين فقصدها بعض علماء تلمسان ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ، محمد بن هبة الله المعروف بشقرون والذي سبقت الإشارة إليه (فانتفع الناس بعلومه الغزيرة وكثر الآخذون عنه من الملوك والأمراء السعديين و العلماءومن بينهم السلطان الغالب بالله،والسلطان أحمد المنصور ،والعالم ابن القاضي،والعالم و المؤرخ ابن عسكر،والعالم أحمد المنجور...وكانوا يحضرون دروسه الشائعة في الفقه والمنطق،والتفسير والبلاغة و الفرائض والحساب [568]،وهذه العلوم التي كان يدرسها تدل دلالة قطعية على أنه كان بالفعل مكتبة متنقلة، ذات مخزون علمي وفير، أثرى به الحياة الثقافية أيما إثراء بالمغرب الأقصى خاصة مدينة مراكش

ولو أنني أطلقت العنان لقلمي للحديث عن مآثر كل عالم من هؤلاء العلماء الذين رحلوا أو هاجروا إلى المغرب الأقصى خلال القرن 10هـ/16م ، لما استوعبت صفحات هذه الرسالة مآثرهم ، ذلك أن عطاءهم جزيل و إمكانياتهم و قدراتهم العلمية لا حدّ لها ... و لعلنا نختم حديثنا عن هؤلاء العلماء بأحمد المقري الذي كان معجبا بالمغرب متوليا فيه الوظائف السياسية كالإمامة والخطابة و الفتوى و هي وظائف العلماء البارزين في عهده في الجزائر أيضا إذ كان بعض سلاطين المغرب يقدمون علماء الجزائر خاصة علماء تلمسان منهم — المقري– لأسباب سياسية تتعلق بسياستهم من الدولة العثمانية [569]

ومعلوم أن عددا كبيرا من المغاربة تعلّق بالمقري ولم يستطيعوا مفارقته ذلك أنه عندما غادر مدينة فاس سنة 1027هـ / 1617م ، تاركا وراءه زوجته و ابنته وخزانة كتبه متوجها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج [570] ، ترجاه عدد منهم بعدم المغادرة ، و البقاء بينهم ، وأنشد أحدهم وهو الفقيه الكاتب أبو الحسن علي الخزرجي الفاسي الشهير بالشامي قائلا :

بن عبد الواحد السجلماسي ... الذين استقروا في الجزائر أو في قسنطينة أو في تلمسان ، و تصدروا للتدريس فيها لمزيد من التفاصيل أنظر : عمار بن خروف العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية ج2 و مرجع سابق ، ص ، 120 و ما بعدها

[567]– عمار بن خروف ، العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر و المغرب ، ج2 مرجع سابق ، ص، 115

[568]– عمار بن خروف. نفس المرجع ، ص ، 153

[569]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 و صص ، 213 ، 214

[570]– ليلى غويني ، التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني ، مرجع سابق ، ص ، 28

أشمس الغـرب حقا ما سمعنا بأنك قد سئمت من الإقامة

و أنك قد عزمت على طلـوع إلى شرق سموت به علامـة

لقـــــد زلزلت منّا كل قلب بحق الله لا تقـم القيـامـــــة [571]

وعلى العموم فقد كانت العلاقات بين البلدين المغرب الأوسط و المغرب الأقصى مقصورة على المستوى الشعبي و لا دخل للدوائر الرسمية فيها فهي كانت تتميز بالعفوية التلقائية ، و الملفت فيها للانتباه أن هناك تكاملا بين علماء البلدين فكانوا يشكلون بحق مدرسة واحدة (فالتلميذ في الجزائر أصبح أستاذا في الحواضر المغربية،والأستاذ في المغرب أصبح تلميذا بالجزائر و العكس صحيح،و هذا يدل على تواضع علماء المغرب عامة)[572]

إنه ومن خلال استعراضنا لهذه الوضعية الثقافية التي ميّزت البلدين،خلال هذه الفترة الزمنية ، نستنتج أن مسألة التأثيروالتأثر بين ثقافة البلدين والشعبين الجزائري والمغربي لم تكن وليدة القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،بل تمتد جذورها إلى فترات زمنية قديمة،وقد كان طلبة العلم هم وسيلة الاتصال بالدرجة الأولى، لم تمنعهم الاضطرابات السياسية الحاصلة في هذا البلد أو ذاك من التواصل مع بعضهم البعض

وخلاصة القول:أن الهجرة لم تكن بمعزل عما حدث من تطورات واضطرابات عاشها المغرب الأوسط (الجزائر) خلال القرن ال 10 هـ/ 16 م ذلك أنها كانت بدوافع تكاد تكون موضوعية ، و لم تكن وجهة هؤلاء العلماء المهاجرين إلى فاس من قبيل الصدفة ، بل كانت اختيارا مدروسا لأسباب متعددة أبرزها وجود تلك المنارة الحضارية التي ملأ شعاعها الحضاري و الديني الآفاق بما تحتويه من مدارس و مجالس علم خاصة بجامع القرويين الذي لم يكن مقصدا للجزائريين فحسب بل من مختلف أصقاع العالم الإسلامي ممّن تتوق أنفسهم الى طلب العلم ، أو التبرك بالأولياء و الصالحين ، و رجال التصوف إنّ هذه الهجرة من طرف علماء تلمسان وإن تركت فراغا،ساهمت فيه السياسة العثمانية في الجزائر بشكل مباشر، فإنها بمقابل ذلك كانت نعمة على المغرب الأقصى، بما ساهم به هؤلاء العلماء– ذوي السمات الفاضلة ، و الحاملين لمختلف العلوم الدينية – بحظ وافر في تطور و ازدهار الثقافة بالمغرب الأقصى عموما ،وبجامع القرويين بفاس خصوصا ، طيلة فترة القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،وربما كانت اللبنات التي وضعها هؤلاء العلماء نبراسا تهتدي به الأجيال اللاحقة،ليس في المغرب الأقصى فقط،بل في العالم الإسلامي كذلك،لأن ثقافة هؤلاء العلماء هي بالدرجة الأولى ثقافة دينية إسلامية بحتة .

---

[571]– أبو القاسم الحفناوي تعريف الخلف برجال السلف ، ج1 ، المرجع السابق ، ص ، 542 . و الحقيقة ان مغادرة احمد المقري للمغرب لم تكن تلقائية بل كانت لأسباب متعددة منها : الاضطرابات السياسية في المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي خاصة ، النزاع على السلطة بين أبنائه ، كما أتهم المقري بالميل لجماعة شراكة وأضرابهم على ما كانوا عليه من الفساد بفاس ، أثناء فترة حكم السلطان الشيخ ، فلما رأى ذلك خاف على نفسه من أهل فاس و قال عند خروجه من فاس (دخلت كمائها و خرجت كمائها) المرجع نفسه ص ، 550 .

[572]– أرزقي شويتام ، العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية) ،مقال سابق ، ص ، 93

خاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سعت هذه الدراسة الى إلقاء الضوء على هجرة مجموعة من علماء تلمسان الى فاس في ظل ظروف سياسية متميزة ، وقد استخلصنا من بحثنا هذاجملة من الاستنتاجات نوجزها فيما يلي :

-أن ظهور الإخوة بربروس،قد غيّرمن مجرى التاريخ،ليس في الجزائر فحسب،بل في المغرب الإسلامي ككل،ومن ثمة دخلت المنطقة في صراع وجود أكثر منه صراع حدود،خاصة مع الإسبان الذين كانوا يمثلون الزعامة الأوربية المسيحية آنذاك (القرن 10 هـ/ 16 م)

-أنّه مهما كانت التفسيرات والتأويلات في كون الأتراك قد استولوا على المنطقة (المغرب الإسلامي) بالقوة فإن الجزائر ككيان قائم بذاته قد ارتسمت ملامحه الجغرافية والسياسية بوجود هؤلاء الأتراك،فأصبحت الجزائر بذلك قلعة تهابها جلّ الدول الأوربية،على اعتبار أنها حصنا منيعا للإسلام،وأنها تهدّد مصالحها في حوض البحر المتوسط(ظاهرة القرصنة) أوما يعرف بالجهاد البحري عند المسلمين

-أن الأتراك في الجزائر لم يواجهوا خطر التهديدات الأوربية المسيحية على المناطق الساحلة في حوض البحر المتوسط فحسب،بل كذلك تمردات بعض زعماء القبائل الجزائرية في الشرق وفي الجنوب،والأكثر من ذلك هو تدخلات بعض سلاطين الأسر الحاكمة بالمغرب الأقصى في الجهة الغربية خاصة تلمسان ونواحيها،وهوما جعل العلاقة تتوتر بين الحين والآخر بين (الجزائر العثمانية) والمغرب الأقصى(الوطاسي،السعدي) بل تحوّل ذلك إلى حروب دامية خلال فترة منتصف القرن (10 هـ / 16 م)

-أن المغرب الأقصى كان في وضع لا يحسد عليه هو الآخر في فترات تعاقب حكم الدول الثلاث عليه فخلال فترة حكم الدولة المرينية التي أرادت إحياء (مجد دولة الموحدين) وذلك بتوحيد دول المغرب الإسلامي من جديد ، فعوض أن تنشأ وحدة بين الدول الثلاث ،استنزفت الصراعات والحروب قوى هذه الدولة،بل قوى كل الدول الثلاث،وهوماعجّل بظهور الأطماع الخارجية،الإسبانيةوالبرتغاليةأماالدولةالوطاسيةفقدكان هدفهاإنقاذ المغرب الأقصى من الفوضى التي كانت تسوده،من جهة وتوحيد أجزائه التي كانت تخضع لزعامات دينيةأوعشائرية على شكل فسيفساء سياسية من جهة أخرى لكنها فشلت في تحقيق الوحدة المنشودة،وممازادفي تحقيق أهدافها هو تحرشات الإسبان والبرتغال بسواحلها الشمالية والغربية،التي تحولت مع نهاية القرن التاسع هجري / الخامس عشر ميلادي ، وبداية القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي إلى هيمنة فعلية على العديد من المناطق،كل هذا وذاك أضعف من عزيمة سلاطين الدولة الوطاسية ومن ثمة زاد الضعف والهوان على كيان هذه الدولة المغلوبة على أمرهاوبظهور الدولة السعدية في النصف الأوّل من القرن العاشرهجري/السادس عشر ميلادي،لاح في الأفق بريق أمل من شأنه توحيد المغرب الأقصى أولا والوقوف في وجه الدخيل الأجنبي(الأسبان و البرتغال) ثانيا .

- لقد أثبت السعديون أنهم جديرون بحكم المغرب الأقصى ، فازدادت شعبيتهم خاصة بعد تحريرهم لعدة مناطق ساحلية من يد البرتغاليين ، على يد أبناء مؤسس هذه الدولة ، وما إن تمكنت هذه الدولة من إعادة الاستقرار للمغرب الأقصى في أجزاء عدة من أراضيه،حتى تاقت نفوس بعض سلاطينه،الى إعادة ولو جزء من

مجد دولة الموحدين،ومن ذلك محاولة الاستيلاء والسيطرة على الجزء الغربي للجزائر(خاصة تلمسان وضواحيها) مستغلة في ذلك ضعف الدولة الزيانية،فاصطدمت بالقوة العثمانية،التي حرمتها من تحقيق هذا الحلم،وهوما نجم عنه ثلاث مواجهات(حملات) عسكرية مع منتصف القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي التي استنزفت قوة (الإخوة الأعداء) التي كان يفترض أن توجه إلى العدو المشترك الجاثم على بالمناطق الساحلة(الأسبان)

-إن ظاهرة الصراع على السلطة (الحكم) لم تقتصر على سلاطين دولة دون أخرى بل تكاد تكون متجذرة في دول المغرب الإسلامي،غير أنها تكتسي طابعا متميزا في المغرب الأقصى وذلك بدعوى الانتماء الى النسب الشريف (السلالة الهاشمية)وذاك(ماادّعته)الأسرة السعدية وهوما جعلها تدخل في صراع ليس مع القوى المحلية في المغرب الأقصى أومع أتراك الجزائر،بل مع سلاطين الدولة العثمانية أنفسهم خاصة في النصف الثاني من القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي.ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل أصبح الصراع على السلطة داخل الأسرة الحاكمة،وهو ما حدث بعد خلفاء محمد الشيخ السعدي،شأنه في ذلك شأن الأسرة الزيانية بتلمسان

-إنه على اعتبار أن القرن 10 هـ / 16 م هو قرن تحولات سياسية هامة في المغرب الاسلامي فإن الحياة الثقافية في المغرب الأوسط،كانت تمتاز في عمومها بالركود والجمود،واجترار ما فات بالرغم من وجود العديد من المؤسسات الثقافية كالمدارس والمساجد والكتاتيب،ومن جهتها امتاز المشهد الثقافي في هذه الفترة بتأثر المجتمع في غالبيته بظاهرة التصوف،وانتشار الزوايا على نطاق واسع،والتي أصبح مؤسسوها يوجّهون الأفراد في الأرياف كما في المدن إلى حياة التقشف،والبساطة،والزهد،وعدم إعطاء قيمة للحياة الدنيا،والاستعداد للرحيل (ويااليت هذا الاستعداد كان حقيقيا،مبنيا على الكتاب والسنة ؟؟؟، بل كان في معظمه بؤس وحرمان من ملذات ما منحه الله من حلال لعباده،وقد غذى هذه الفكرة أولائك الذين وصفوا بأدعياء التصوف من مشعوذين ودجالين،تركوا بصماتهم في المجتمع آنذاك) فظهرت بذلك اللامبالاة في كل شيءوهوما زاد في تقهقر المجتمع بمختلف طوائفه (المثقفين وغير المثقفين) ومما زاد الطين بلّة هو عدم اكتراث حكام الجزائر من الأتراك العثمانيين بالجانب الثقافي (في الفترة موضوع البحث) ذلك أنهم لم يكونوا أعاجم فقط بل كانوا رجال حرب وسياسة،هدفهم جعل الجزائر جزءا لا يتجزأ من الدولة العثمانية،والدفاع عنها ضدّ المتربص بها من الدول المسيحية خاصة الأسبان

-وبالمقابل تكاد تكون الحياة الثقافية في المغرب الأقصى مختلفة نوعا ما،ذلك أنه بالرغم من التقلبات والاضطرابات السياسية التي شهدها المغرب الأقصى في ظل الدول الثلاث (المرينية والوطاسية والسعدية) فإن الحياة الثقافية تصل الى مستوى أرقى منه في المغرب الأوسط بسبب عوامل متعددة أبرزها هجرة الأندلسيين (خاصة العلماء والطلبة) وتأثيرهم في الحياة الثقافية ،ناهيك عن وجود عدة حواضر ثقافية خاصة بفاس ومراكش وغيرهما بالإضافة إلى اهتمام سلاطين المغرب الأقصى بالعلم و العلماء،فلا غرابة في ذلك إن كانوا هم كذلك علماء،ولا أدل على ذلك من شخصية،شدّت انتباه كل من سمع بها أواقترب من مجلسها.إنه أحمد المنصور الذهبي (أبرز سلاطين الدولة السعدية)

-أن هناك تواصلا ثقافيا من خلال هجرة هؤلاء العلماءلأنهم نقلوا علومهم وأفكارهم الى المغرب ، وأنهم علماء دين بالدرجة الأولى من خلال مؤلفاتهم أولا ومن خلال المناصب التي أسندت اليهم كالخطابة والقضاء والافتاء ثانيا

-أنهم لم ينظروا الى الأحداث نظرة اللامبالاة بل أخذ بعضهم مواقف صارمة مكّنتهم من البقاء في كنف الدولة السعدية مؤيدين لها ومعتبرين سلاطينهاذوي شرعية سياسية ودينية وأنهم أحقّ بها من أتراك الجزائر

-أن المغاربة شعبا وسلطة لم يبخلوا من تقديم يد المساعدة لهؤلاء المهاجرين بل وصل بالبعض من سلاطينهم الى تفضيلهم عن العلماء المغاربة ،وذلك لأهداف وغايات سياسية أكثر منها دينية

-إن هجرة علماء الجزائر (خاصة من تلمسان)الى المغرب الأقصى،في الفترة المدروسة، لم تكن إعتباطية بل كانت انعكاسا لأوضاع متردية عاشها العلماء منذ نهاية القرن 09 هـ / 15 م وطيلة القرن الموالي فكانت وجهتهم مدينة فاس حاضرة المغرب الأقصى آنذاك ومنارة العلم و العلماء

-إن متتبع قوائم أسماء أولائك العلماء الذين هاجروا من تلمسان وضواحيها إلى المغرب الأقصى خاصة مع منتصف القرن ال 10 هـ/ 16 م يدرك يقينا بأن كنوزا ثقافية قد هاجرت أو هجّرت،لسبب أو لآخر، وهو ما نتج عنه استفادة المغرب الأقصى من تواجد هؤلاء العلماء استفادة علمية وسياسية معا،وبالمقابل تراجعت الثقافة الجزائرية وتدنى مستواها بسبب ما تركه هؤلاء العلماء من فراغ كبير .

وأخيرا وليس آخرا فإنني رغم ما قدّمته من خلال هذا العرض فإنني لن أوفي الموضوع حقّه وحسبي أنني حاولت محاولة متواضعة لإماطة اللثام عن فترة زمنية من حياة بعض العلماء الذين تركوا بصماتهم في وطن غير وطنهم ، وإنّه ليعزّ علي أن أذكرهم ولم يسعفني الحظ للسفر إلى حيث سافروا هم (المغرب الأقصى) لأقتفي أثرهم وأبحث هناوهناك في مكتبات القرويين أوالمكتبة الملكية بالرباط أوغيرهما،للإلمام بما تركوه من مؤلفات،ذلك أنني عزمت على السفر إلى المغرب الأقصى لكن الظروف (العائلية و المادية) حالت دون ذلك،ولعل هذه الدراسة التي قمت بها ستتبعها دراسات أخرى تعطي للموضوع حقّه ،وللعلماء مكانتهم،وهومشروع مستقبلي سأعمل على تجسيده متى سمحت الظروف بذلك – إن شاء الله – فإن وفّقت فمن الله عز وجل،وإن كان غير ذلك فحسبي أنني قد اجتهدت،ولكل مجتهد نصيب ..... وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

مـــلاحـــــق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

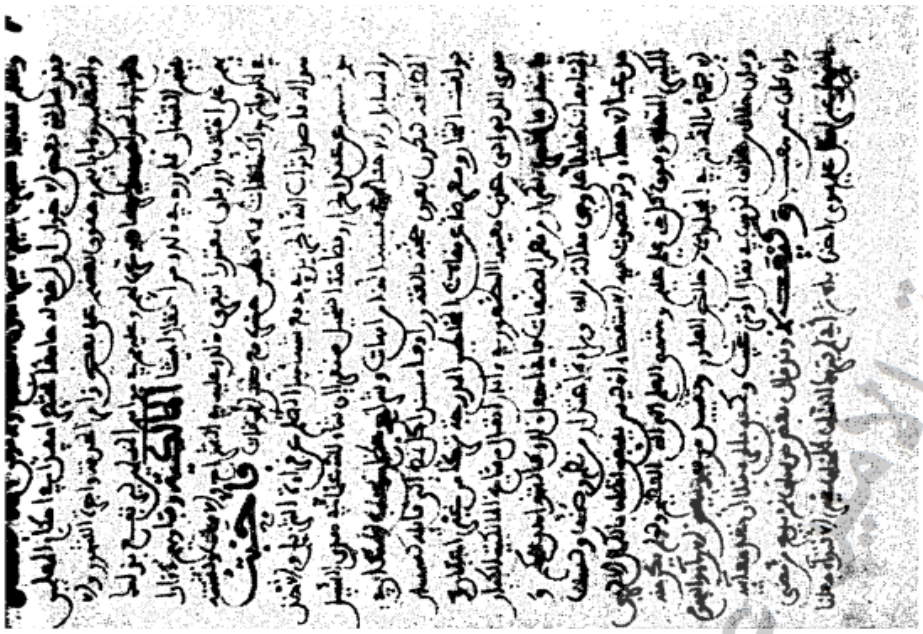

أحمد بن أبي جمعة المغراوي،جامع جوامع الاختصار و التبيان، مصدر سابق ، ص/ ١٢

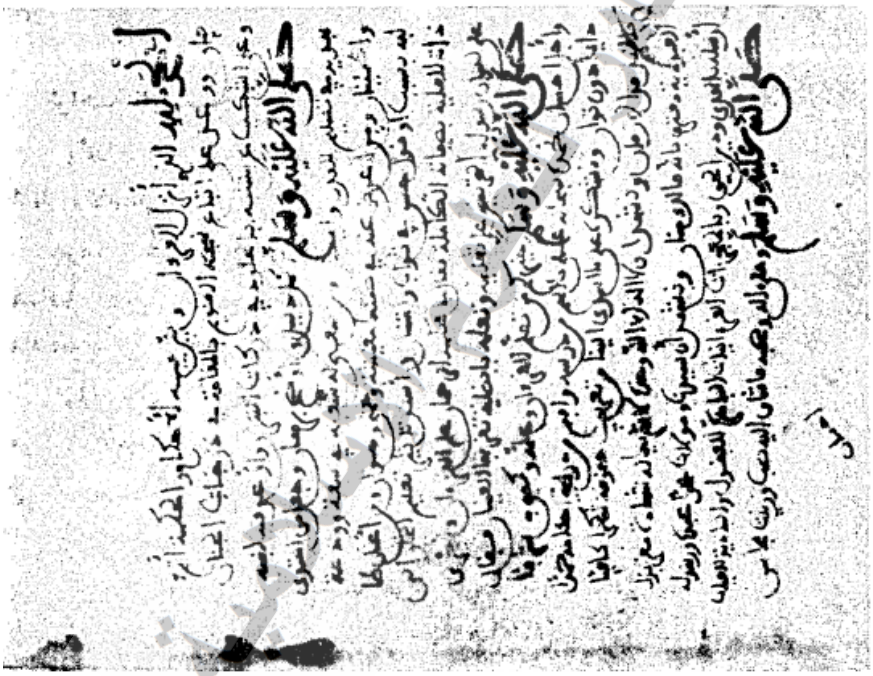

أحمد بن أبي جمعة المغراوب، جامع جوامع الاختصار و التبيان ،مصدر سابق . ص١٣

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

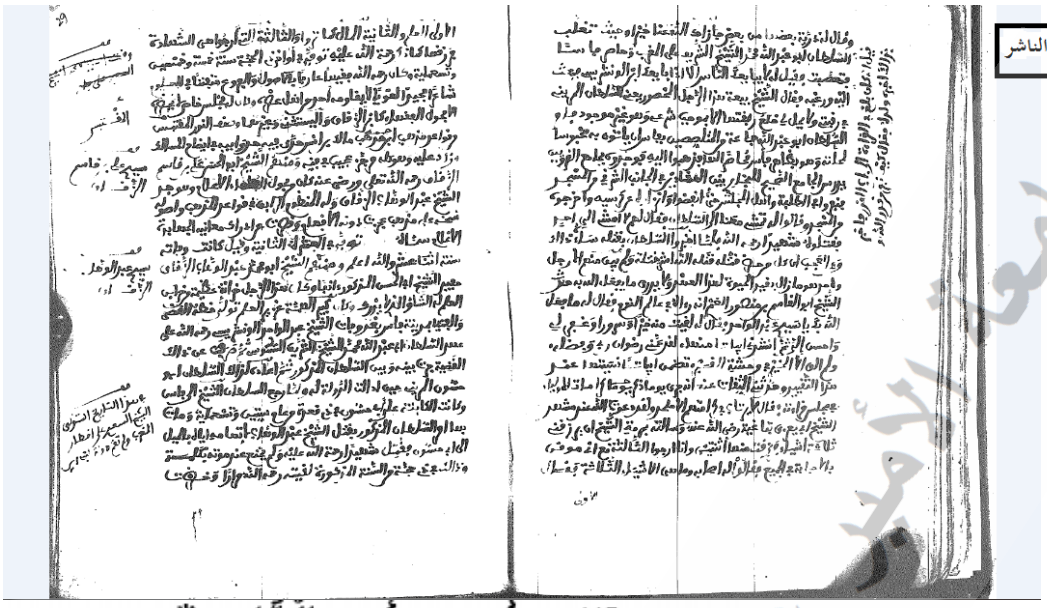

مخطوط دوحة الناشر

115 — أحمد بن أحمد العَبَّادِي *

ومنهم الشيخ الفقيه العالم العلم العلامة أبو العباس أحمد ابن أحمد العَبَّادِي التِّلِمْسَاني . هذا الرجل من فحول العلماء ، كبير الهمة غزير العلم كريم السجية ، له نفس أبية وهمة عالية ، مع شجاعة واقدام . لقي المشايخ واخذ عنهم ، وتفقه على والده . ولما قدم على فاس عام ثمانية وستين في جملة فقهاء تلمسان لما رحلهم السلطان الغالب من تلمسان حين وقعت الفتنة بينهم وبين الترك واستغاثوا به فامدهم بالاجناد ونقلهم الى فاس ووصل كلا منهم على قدر حاله ، ووصله بالف مثقال ذهبا ، وامر له بكساء واقامة جلبة، وقال لا تسووه بأحد من الفقهاء وغيرهم فان همته كبيرة . ولما اشتغل بالدريس انثالت عليه الناس من كل ناحية ، وعجب الناس من حسن عبارته وتحقيقه ونقله . ثم انتقل الى مراكش جبرا لامور يطول شرحها ، ورجع منها الى تلمسان واستقر آخيرا بملبانة ، واظنه الان في قيد الحياة . لقيته واخذت عنه مروياته ، واجازني في سلسلة مشايخ الصوفية حسبما تقدم الكلام عنه في ترجمة شيخنا ابي الحجاج يوسف الشريف من صدر هذا لكتاب ، واجازني ايضا في **الحاجبين الاصلي والفرعي**، وكتب لي بما نصه : اجازني والدي رحمه الله **الحاجبين** عن شيخه سيدي محمد بن عيسى البطوئي ، وعن علامة الوقت سيدي احمد بن زكري ، عن انعام سيدي محمد بن العباس **العبادي** ، عن مولانا انجد أي ابي ام سيدي محمد بن مرزوق **شارح البردة** رحمهم الله ، عن شيخه الامام ابن عرفة ، عن الامام القرفي ، عن الامام ابن الحاجب نفع الله بهم . قيدت هذه الاجازة هنا مع سلسلة هذا الشيخ لأن أمره لي لازم

ترجمة لأحد علماء تلمسان، مأخوذ من كتاب، دوحة الناشر لإبن عسكر، تحقيق محمد حجي، مصدر سابق، ص، ١١٨

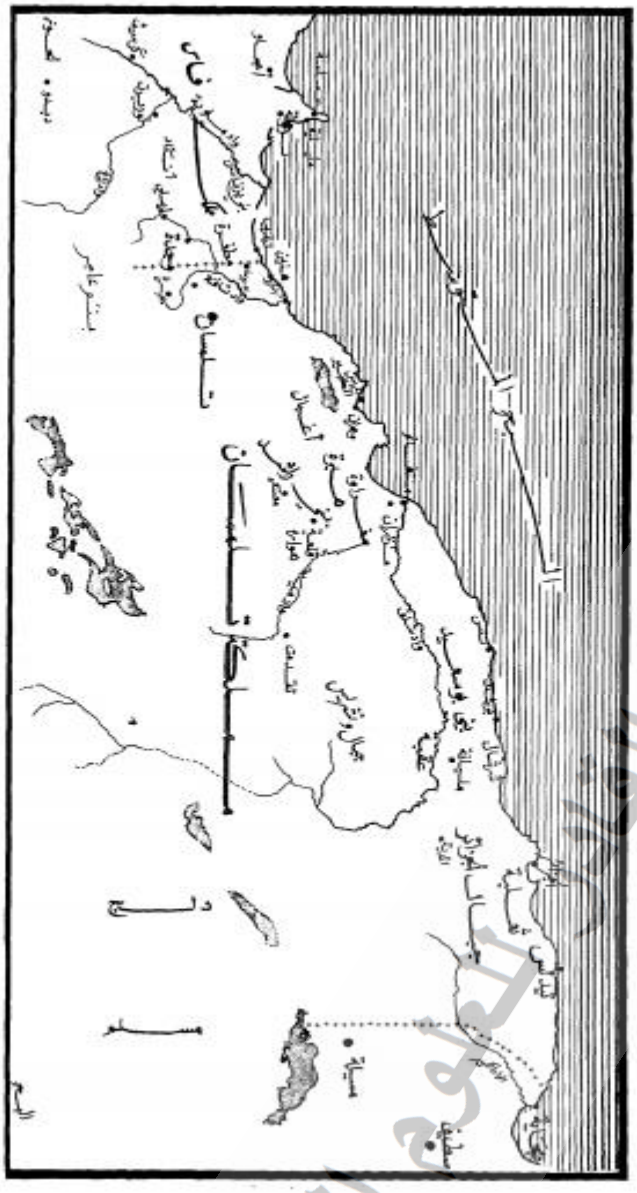

مملكة تلمسان

حسن الوزان،وصف افريقيا، ج،٢ ،مصدر سابق ، ص، ٠٦

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

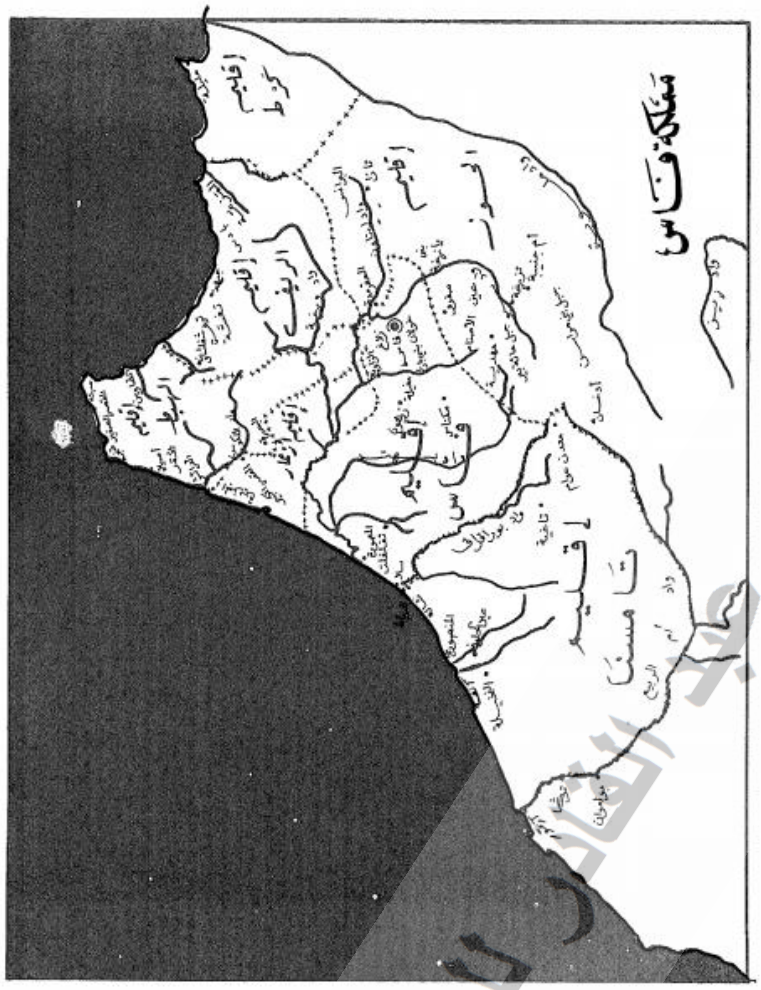

حسن الوزان،وصف افريقيا ، ج١،مصدر سابق ،ص،١٩٢

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

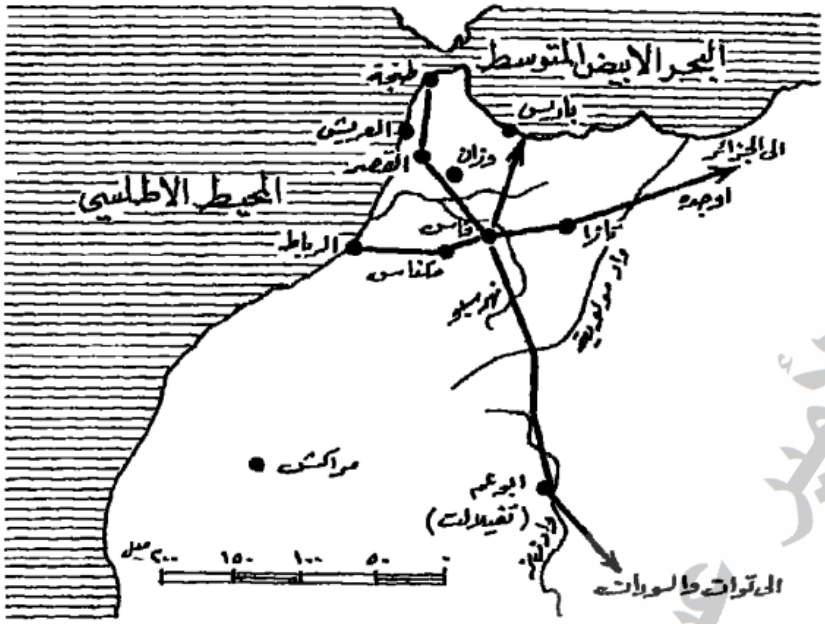

فاس : ملتقى طرق في المغرب

روجيه لوتورنو،فاس في عصر بني مرين . مرجع سابق ص؟، ٣٦

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

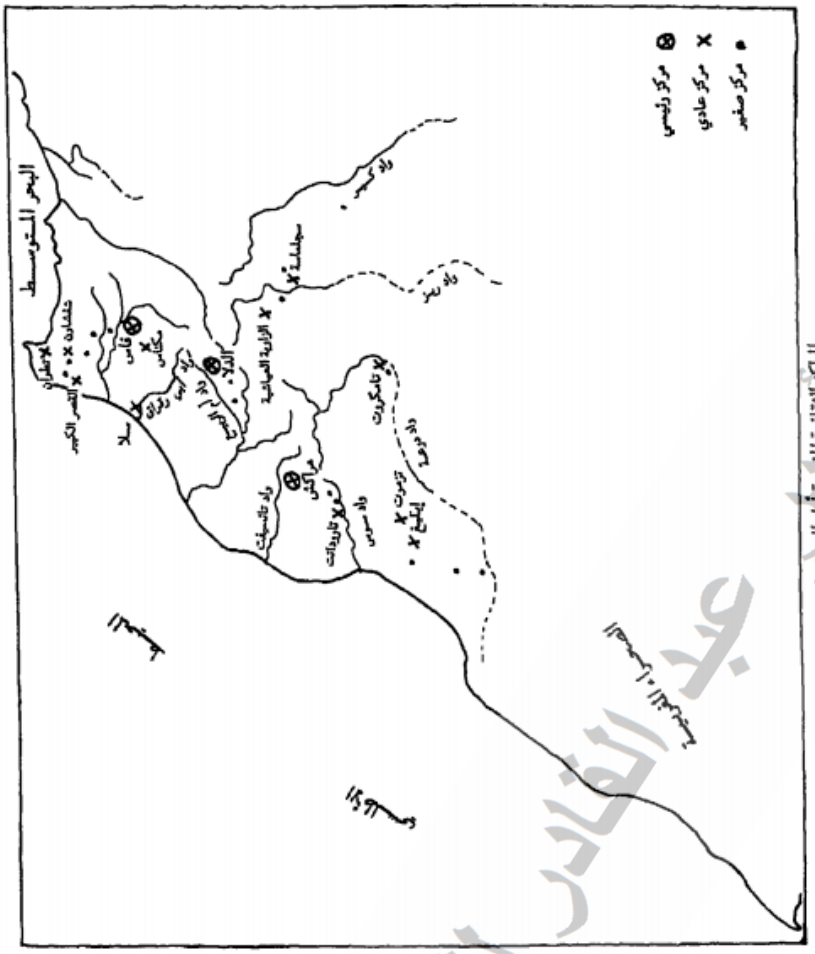

نقلا عن : محمد حجي ، جولات تاريخية، مرجع سابق ، ص، ٢٩٥

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجع

المصادر العربية :

-(إبن الأحمر،تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ،تقديم وتحقيق ،هاني سلامة ،ط1 مكتبة الثقافية الدينية للنشر والتوزيع ببور سعيد ، مصر، 2001 .

-ابن خلدون عبد الرحمان ، كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، طبعة مصححة،إعتنى بإخراجهاوألحق بها فهارس للأحاديث و الآيات و للموضوعات ، أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية، الرياض ، السعودية

= = = كتاب المقدمة، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1 ،1413هـ/1992م

-ابن القاضي أحمد ، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ، دراسة و تحقيق : محمد رزوق ، مكتبة المعارف ،الرباط ، 1986

-ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني ،السنن،تحقيق ،محمد فؤاد عبد الباقي ،ج1دار الفكر د.ذ.ت.ط، بيروت

-أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد التلمساني الونشريسي ، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ،وما يترتب عليه من العقوبات و الزواجر ، تحقيق، د.حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية 1416هـ/1996م

-أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن القنفذ القسنطيني ،أنس الفقيروعز الحقير،نشر وتحقيق محمد الفاسي،أدولف فور،منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي،جامعة محمد الخامس كلية الآداب ،1965 ، الرباط ، المغرب

-أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي ، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا و الأندلس و المغرب ،أخرجه،جماعة من الفقهاء بإشراف د.محمد حجي،في12 جزءا،نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ، 1401هـ / 1981م

-أبو زكريا يحي ابن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، مطبعة ،بيرفونطانا الشرقية ، الجزائر ، طبعة1331هـ/ 1903م

-أبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي (المعروف بابن الزيّات ، 617هـ/ 1220م) التشوف الى رجال التصوف و أخبار العباس السبتي ، تحقيق أحمد التوفيق ،ط2، 1997م

-أحمد بن أبي جمعة المغراوي ، جامع جوامع الاختصار و التبيان فيما يعرض للمعلمين و آباء الصبيان ، تحقيق و تعليق أحمد جلولي البدوي و رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع .د.ذ.ت.ط، الجزائر

-أحمد ابن القاضي المكناسي ، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس ، دار المنصور للطباعة و الوراقة ، الرباط ، 1973م

-أحمد بن محمد المقري ، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش و فاس ، ط2 ، تقديم ، عبد الوهاب بن منصور ، المكتبة الملكية، د.ذ.ت.ط ،الرباط

-أحمد المنجور، فهرس أحمد المنجور، تحقيق محمد حجي ، مطبوعات دار المغرب للتأليف و الترجمة ، الرباط 1396هـ / 1976م

-الأغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة: د.يحي بوعزيز ط 1، دار البصائر للنشر والتوزيع ، 2007

-التمبوكتي أحمد بابا ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، الجزآن 1 / 2 ، ط1 ، إشراف و تقديم ، عبد الحميد عبد الله الهدامة ، وضع هوامشه و فهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، 1989

-التمجروتي علي بن محمد ، النفحة المسكية في السفارة التركية ، تقديم و تحقيق ، عبد اللطيف الشاذلي ، الرباط،2002 م

-الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي) ،وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، و محمد الأخضر ،ط 2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983

-ديكودي طوريس،تاريخ الشرفاء ،ترجمة محمد حجي،محمد الأخضر،نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،شركة النشر و التوزيع ،الدار البيضاء ،المغرب

-سحنون بن سعيد التنوخي ، المدونة الكبرى ، ج1، مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . 2004م

-عبد العزيز الفشتالي،مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ،دراسة وتحقيق د، عبد الكريم كريم،مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية ،المملكة المغربية

-علي الجزنائي ، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور ، ط2 ، المطبعة الملكية . الرباط ، 1412هـ / 1991م

-الغبريني أحمد بن عبد الله أبو العباس ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق عادل نويهض ، منشورات لجنة التأليف و الترجمة و النشر ببيروت ، ط1 ، 1969

-مارمول كاربخال، إفريقيا ، ج1 ، ترجمة محمد حجي وآخرون،مكتبة المعارف للنشروالتوزيع ،المغرب،1984

-محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي ،ط2 ،مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ، 1977

-محمد بن مريم التلمساني ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، منشورات السهل

-محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تقديم و تحقيق ، محمد بن عبد الكريم ،ط1 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1972

-محمد الصغير الوفراني ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي صحّح عباراته التاريخية السيد هوداس، تم طبعه على يد بردين صاحب المطبعة بمدينة أنجي، 1888

-مؤرخ مجهول ، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية ، ط1 ، تقديم وتحقيق ، عبد الرحيم بن حادة . دار تينمل للطباعة والنشر 1994

-مؤرخ مجهول ، غزوات عروج وخير الدين،الطبعة الأولى، ترجمة د. محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1431هـ/ 2010م

-مؤرخ مجهول،سيرة المجاهد خير الدين بربروس في الجزائر، تحقيق وتقديم وتعليق ، عبد الله حمادي،دار القصبة للنشر،الجزائر، 2009

المراجع العربية :

- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، الجزء الرابع ،الدولة المرينية، تحقيق و تعليق ولدي المؤلف ، جعفر الناصري و محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1955

- أبو زهرة محمد ، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة و العقائد ، و تاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربي، القاهرة،د.ذ.ت.ط

- أحمد سالم علي ، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16م ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، مصر . 2011

-بشاري لطيفة ، العلاقات التجارية للمغرب الأوسط ، منشورات وزارة الشؤون الدينية، 2011

- بن بريكة محمد ، التصوف الاسلامي من الرمز الى العرفان ، ط1 ، دار المتون للنشر و الترجمة و الطباعة و التوزيع ، الجزائر ، 2006

- بن خروف عمار ، العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ج1 ، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ، 1427 هـ ، 2006

== العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ج2 دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع الجزائر ، 1427 هـ ، 2006

- بن شقرون محمد بن أحمد، مظاهر الثقافة المغربية ، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1406 هـ / 1985م

- بوعزيز يحي ، موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر والعرب ج1، دار الهدى،عين مليلة ، د.ذ.ت.ط ،الجزائر

- بوعياد محمود آغا ،جوانب من الحياة في المغرب الأوسط ق 9 هـ / 15م ، ط2 منشورات ثالة، الأبيار ، الجزائر ، 2011

- بوزياني الدراجي ، عبد الرحمان الأخضري العالم الصوفي الذي تفوق في عصره ، ط 2 ، مؤسسة بلاد النشر ، 2009
- بوحوش عمار،التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962 ط3،دار البصائرللنشر والتوزيع
-التازي عبد الهادي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور الى اليوم ، المجلد السابع عهد بني مرين و الوطالسين ، 1408هـ / 1988م
- توفيق المدني ، حرب 300 سنة بين الجزائر و اسبانيا (1492 – 1792) ط1 ، دار البصائر للتوزيع و النشر ، 2007
- الترغي عبد الله المرابط ،فهارس علماء المغرب منذ النشأة الى نهاية القرن12هـ ، منهجيتها تطورها قيمتها العلمية ، ط1 1420هـ/ 1999م ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان
- التليلي العجيلي ، الطرق الصوفية و الاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية ، 1881 / 1939 ، منشورات كلية الآداب بمنونة . تونس ، 1992
- التميمي عبد الجليل ، دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن 16م ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، ماي 2009
- الجمل شوقي عطاالله ، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا- تونس – الجزائر – المغرب) ط1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1977
-الجيدي عمر ، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب ، ط1 ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1993
-الجيلالي عبد الرحمان ، تاريخ الجزائر العام ، الجزء الثالث ،شركة دار الأمة، الجزائر ، طبعة ، 2009
- الحبيب بن طاهر ، الفقه المالكي و أدلته في ثلاثة أجزاء (العبادات، المعاملات ، الأحوال الشخصية) دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1998
- حجي محمد ، جولات تاريخية ،ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، 1995
الزاوية الدلانية ، و دورها الديني و العلمي و السياسي ، المطبعة الوطنية بالرباط ، 1964
- حساني مختار ، تاريخ الدولة الزيانية ج2 . الأحوال الاقتصادية والثقافية ، منشورات دار الحضارة ، 2009
- حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس ط1 ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1980
- حركات إبراهيم ، المغرب عبر التاريخ من بداية المرينيين الى نهاية السعديين ، المجلد الثاني ، الطبعة الأولى ،دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1978
- الحسني أسماء القاسمي ، رسائل المقري ، دراسة و تحقيق ، دار المعرفة الدولية ، للنشر و التوزيع ، الجزائر ، طبعة خاصة ،2011
- الحفناوي أبو القاسم ، تعريف الخلف برجال السلف ج1 +ج2، ط1 ، دراسة و تحقيق : خير الدين شترة ، دار كردادة ، للنشر و التوزيع . 1433هـ/ 2012م

- حميش عبد الحق و محفوظ بو كراع بن ساعد ، موسوعة تراجم علماء الجزائر ،علماء تلمسان و توات ، طبعة خاصة ، دار زمورة للنشر و التوزيع ، الجزائر . 2011
- حمادي عبد الله ، الموريسكيون و محاكم التفتيش في الأندلس،المؤسسة الوطنيةللكتاب بالجزائر ،و الدار التونسية للنشر 1994
- حمادي عبد الله ،سيرة المجاهد خير الدين بربروس ، دار القصبة للنشر ، 2009
- حمادو نذير ، المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ، دار الفجر للطباعة و النشر ، قسنطينة ، 2008
- الراقد محمد عبد المنعم ، الغزو العثماني لمصر و نتائجه على الوطن العربي ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر ،د.ذ.ت.ط. القاهرة
- سامعي إسماعيل ، دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية و الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن 8م / 11م – (2هـ / 5هـ) ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر . 2005
شريط عبد الله ، المليلي محمد مبارك ،مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ، 1985
- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الأول 1500م/ 30 18م عالم المعرفة الجزائر ،طبعة خاصة ، 2011 م
= = = تاريخ الجزائر الثقافي ،الجزء الثاني 1500 م/ 1830 م، عالم المعرفة،طبعة خاصة الجزائر 2011
= = = تاريخ الجزائر الثقافي،الجزءالثالث ،1500 م/ 1830 معالم المعرفة ،طبعة خاصة ، الجزائر 2011
= = = تاريخ الجزائر الثقافي،الجزء الرابع ،1500 م/ 30 18معالم المعرفة ، طبعة خاصة ، الجزائر 2011
- سعيد مراد ، الفرق و الجماعات الدينية في الوطن العربي قديما و حديثا . عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية .مصر . 1997
-الشيخ أبو عمران ، و ناصر الدين سعيدوني ، معجم مشاهير المغاربة ، جامعة الجزائر ، 1995
-شريط عبد الله ، المليلي محمد مبارك ،مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ، 1985
- شوقي أبو خليل ، وادي المخازن ، معركة الملوك الثلاث . القصر الكبير، ط1 دار الفكر دمشق ، سوريا ، 1988
- شويتام أرزقي ، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519م/ 1830م . ط1 . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، الجزائر، 2009
- صالح فركوس ، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى الاستقلال- المراحل الكبرى ، دار العلوم للنشر و التوزيع
- صادوق محمد الحاج ، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف ، د.م الجامعية ، الجزائر ، 1964

- صلاح مؤيد العقبي،الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر. تاريخها ونشاطها،دار البرق،بيروت .2002
- الطمار محمد بن عمرو ، تلمسان عبر العصور دورها في سياسة و حضارة الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،1984
- الطمار محمد بن عمرو ، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1983
- طه جمال أحمد ، مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحديين ، 1056 – 1269 دراسة سياسية و حضارية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، الإسكندرية ، مصر (د. ت. ط)
- عباد صالح ، الجزائر خلال الحكم التركي 1514م – 1830م . ط 3 ، دار هومة للطباعة والنشر و التوزيع . الجزائر 2011
- عبد الرحمان عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب و السنة ،ط 4 ، دار الحرمين للطاعة القاهرة ، 1993
- عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني ، حياته وآثاره ط1 ، ش. و. ن. ت.،
- عبد القادر فكاير ، الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910 هـ – 1206 م / 1505 هـ – 1792 م) دراسة تتناول الآثار السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية على الجزائر ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر
- عبدالكريم كريم،المغرب في عهدالدولة السعدية،دراسةتحليليةلأهم التطورات السياسية و مختلف المظاهر الحضارية ،ط3 ، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، المملكة المغربية
- عثمان سعدي ، الجزائر في التاريخ ، شركة دار الأمة ط. ن. ت. ، الجزائر ، طبعة ، 2012
- العزاوي قسي جواد، الدولة العثمانية .قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ،الدار العربية للعلوم ، بيروت 1994
- علي محمد إبراهيم ، إصطلاح المذهب عند المالكية ، ط 1 ، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث ، الإمارات العربية ، 1421هـ / 2000 م
- عمارةعلاوة،دراسات فيالتاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي،د.م.الجامعية،الجزائر.2008
- عميراوي أحميدة ، رسالة الطريقة القادرية في الجزائر، دار الهدى ط.ن. ت. ، عين مليلة ، الجزائر
= علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس ، أواخر العهد العثماني و بداية الإحتلال الفرنسي ، دار البعث ، قسنطينة (د. ت. ط)
- العوايشة حسين بن عودة ، الفصل المبين في مسألة الهجرة و مفارقة المشركين،ط1 ، دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع،لبنان، 1423هـ/ 2002 م
- الغالي الغربي ، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي (1288م – 1916م) . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر . 2007

- الغنيمي عبد الفتاح مقلد ، موسوعة تاريخ المغرب العربي (بني حفص، بني زيان، بني مرين، بني وطاس والسعديين،وظهورالأشراف العلويين)،دراسة في التاريخ الإسلامي، ج5-6 مكتبة مدبولي.1994م)
- فارس محمد خير ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، ط2 مكتبة الشرق ، بيروت ، 1979
- الفاسي ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة و الوراقة ، الرباط ، 1972
- فيلالي عبد العزيز ، تلمسان في العهد الزياني ،ج2،موفم للنشر، الجزائر، 2007
- القاضي عادل ، الهجرة و الاغتراب ، تأسيس فقهي لمشكلة اللجوء و الهجرة ، ط1 ، مؤسسة العارف للمطبوعات بيروت ، لبنان ، 1419هـ / 1999م
- قسوم عبد الرزاق ، عبد الرحمان الثعالبي و التصوف، ش.و.ن. ت. ، الجزائر ، 1978
- الكتاني محمد بن جعفر، سلوة الأنفاس و محادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس، حققها، حفيد المؤلف الشريف محمد حزة بن علي الكتاني ج1 ، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس (04)
- كمال السيد أبو مصطفى ، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي ، مركز الإسكندرية للكتاب ، 1996
- كنون عبد الله ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ط2 ،الأجزاء ، 1 / 3 ، (د. ت. ط)
-لطفي عيسى، مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن 17 م .سراس للنشر.تونس . 1994
- لقبال موسى ، المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج ، سياسة ونظم ، ط2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984
- محمد بن عبد الكريم الجزائري ، التصوف في ميزان الاسلام ، مطبعة النهضة ، و هران (د.ذ.ط
- محمود علي عامر،محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي والحديث، المغرب الأقصى، ليبية،منشورات جامعة دمشق 1999 .2000
- محمد سي يوسف . أمير أمراء الجزائر علج علي باشا ، الأمل للطباعة والنشر و التوزيع الجزائر ، 2009
- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، إحسان حقي محقق ، دار النفائس، 1981
- مصطفى أحمد عبد الرحيم ، في أصول التاريخ العثماني . دار الشروق ، بيروت ، 1982
- مريوش أحمد ، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية ، الجزائر ، 2007
- المنور مروش ، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني القرصنة الأساطير و الواقع ، ج2 ، دار القصبة للنشر الجزائر،2009 م
- الميلي مبارك بن محمد الهلالي ، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث ج3.مكتبة النهضة الجزائرية.

- الميلي مبارك بن محمد ، رسالة الشرك و مظاهره ، تحقيق و تعليق ،أبي عبد الرحمان محمود ، دار الراية للنشر و التوزيع (د. ت. ط)
- نويهض عادل ، أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر ، ط2 ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة و النشر ، بيروت ، لبنان 1400هـ / 1980م
- هلال عمار ، العلماء الجزائريون في البلدان العربية و الإسلامية فيها بين القرنيين التاسع و العشرين الميلاديين (3 / 14هـ)ط2 ديوان المطبوعات الجامعية ، 2010
- هلايلي حنيفي ،أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي،دار الهدى، عين مليلة ، 2010
= أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، ط1،دار الهدى ،للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر، 2008
- الهنتاني نجم الدين ، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس هجري ، الحادي عشر ميلادي ، منشورات تبر الزمان ، تونس ، 2004
- يحي ولد سيدي أحمد ، ببليوغرافيا – تلمسان ، 1400 عنوان ، دار المعرفة ، 2011
يوسف علي بدري ،عصر الدويلات الإسلامية في المغرب والمشرق من الميلاد إلى السقوط ،ط1،دار الأصالة ،الجزائر ،1431هـ/2010م

المراجع المعرّبة :

-إدوار دو نوفو ، الإخوان ، دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر ، ترجمة و تحقيق ،د ، كمال فيلالي ، دار الهدى ، عين مليلة ،د.ذ.ت.ط ، الجزائر
-ألفريد بيل ، الفرق والمذاهب الإسلامية في الشمال الإفريقي،من الفتح العربي الى اليوم،ترجمة عبد الرحمان بدوي ،ط3 دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1987
-جب هاملتون وهارولد باوون ، المجتمع الإسلامي والغرب ج 1/ 2 ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى . دار المعارف ، القاهرة 1970
-جون .ب. وولف .الجزائر وأوربا 1500 / 1530. ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله ، 2009 عالم المعرفة للنشر والتوزيع
-عزيز سامح آلتر،الأتراك العثمانيون في شمال افريقيا،ترجمة محمود علي عامر ط1 ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت ، 1409هـ / 1989م
-كورين شوفاليه ، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510 – 1541) ، ترجمة جمال حمادنة ،ديوان المطبوعات الجامعية2007

مصادر و مراجع بالفرنسية

- AUGUST COUR 1 établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger (1509-1830), lérroux éditions, paris,1904

- Boyer, la politique religieuse des turcs, in revue de l occident musulman et de la méditerranée, n 11, semestre 1er 1966 archives d outre mer, Aix en Provence

-Diego de haedo, Histoire des rois d' Alger ,tradiction de l' espagnol et notes de, henri delmas degrammont,éditions,Grand-alger livres(G,A,L),alger,2004

-Feraud. Braudel. La Méditerranée et le monde méditerranéen al' époque de Philipe II. T2 2eme édition librairie armand colin; paris. 1966

-Grammont (Henri-delmas)Histoire d'Alger sous la domination turque(1515-1830), présentation de lemnouar merouche,Editions bouchene , 2002

-Hammer joseph . histoire de l' empire ottoman depuis son origine jusqu'a nos jours 18 vol .paris .1836

- La Jonquière . histoire de l'empire ottoman depuis les origines jusqu'au traité Berlin 2vols .paris . 1914

المقالات و الدوريات العربية

مجلة الدراسات التاريخية (معهد التاريخ ، جامعة الجزائر)

أرزقي شويتام ، العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية) ،مجلة الدراسات التاريخية ، عدد 13، جامعة الجزائر ، 1433هـ/2011م

محمد مزين ، المصادر و الوثائق المغربية المتعلقة بالجزائر في العهد العثماني الأول ، و القرنان 16م / 17م ، مجلة الدراسات التاريخية ، عدد 09 ، 1415هـ / 1995م

عمار بن خروف ، ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين ، مجلة الدراسات التاريخية، عدد 03 ، 1987 ،

عمار هلال ، العلماء الجزائريون في فاس في ما بين القرنيين 10 ، 20 م مجلة الدارسات التاريخية ، عدد 09، سنة 1995

مجلة الأصالة : (مجلة ثقافية تصدرهاوزارة التعليم العالي والشؤون الدينية ، الجزائر)

-أحمد توفيق المدني ، تلمسان بين الزيانيين و العثمانيين ،مجلة الأصالة ، ،عدد،2، جويلية أوت،1975

- ليلى الصباغ ، ثورة مسلمي غرناطة عام 976 هـ أواخر عام 1568 م و الدولة العثمانية، مجلة الأصالة ، عدد ، 27، سبتمبر،أكتوبر ، سنة 1975

-إبراهيم حركات،الصلات الفكرية بين تلمسان والمغرب،مجلة الأصالة،عدد 25،جويلية– أوت،1975

المجلة التاريخية المغربية : (زغوان ، تونس)

عبد الجليل التميمي ، أول رسالة من الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 . المجلة التاريخية المغربية ، عدد ،6 ، جويلية 1976

خليل الساحلي،تقليد مصالح باشا ولاية جزائر الغرب سنة 1552،م.ت. م.،عدد2 ،جويلية، 197

مجلة المواقف للبحوث و الدراسات في المجتمع و التاريخ (جامعة معسكر)

كمال فيلالي ، هجرة علماء غريس و تلمسان الى فاس في العهد العثماني ،مجلة المواقف للبحوث و الدراسات في المجتمع و التاريخ ، ، عدد خاص ، آبريل 2008

بوشنافي محمد ، هجرة العلماء الجزائريين الى المغرب و بلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني (1520-1830) مجلة المواقف للبحوث و الدراسات في المجتمع الجزائري ، عدد 04 ، ديسمبر ، 2009

مجلة بحوث (جامعة الجزائر)

علي تابليت ، الجزائر في القرن 16 ، مجلة بحوث ، عدد ، 05 جامعة الجزائر ، 1998

مجلة دراسات في العلوم الإنسانية

عمار بن خروف ، العلاقات بين الجزائر والمغرب في عهد أبناء المنصور . مجلة دراسات في العلوم الإنسانية ، عدد 4 ،جامعة الجزائر ، 2003 / 2004

مجلة سرتا (جامعة قسنطينة)

العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني ، مجلة سرتا ، عدد، 03 ، 1400 هـ / 1980م

مجلة جامعة الملك سعود للآداب(المملكة العربية السعودية)

فهد بن محمد ، السويكت ، مواقف الإشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية ، مجلة جامعة الملك سعود للآداب ،م 19 ،الاداب(1) ، 1427هـ / 2006م

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (قسنطينة)

محمد بن عبد الكريم الجزائري ، رسالة الإمام مالك بن انس في آداب الدنيا و الدين إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد ، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، عدد ، 05 مارس ، 1994

-محمد الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغربيات، مجلة الثقافة،عدد 01، ش.ج.ن.ت.، الجزائر، 2005

الملتقيات و الندوات :

حبيب وداعة الحسناوي ، الصراع التركي السعدي 1549 – 1557 و سفارة الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي للمغرب عام 1552 بشأنه . أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي ، تنقلات العلماء و الكتب ،اشراف ، عبد الحميد عبد الله الهدامة ، كلية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية العظمى ،طرابلس، ليبيا 1995

لبصير سعاد ، دوافع الهجرة الدينية و العلمية من الجزائر في العهد العثماني ، 1516 – 1830 ، أعمال الملتقى العلمي الأول سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي و الحاضر،مايو ، 2008(بحث نشر في مجلة الهجرة و الرحلة بجامعة منتوري – قسنطينة)بإشراف د. كمال فيلالي

نفيسة الذهبي ، الدولة العثمانية في مجالها المتوسطي خلال القرن 16م بين إستراتيجية الجهاد وصراع الهيمنة ، سلسلة ندوات و مناظرات رقم، 109،بعنوان ،العثمانيون و العالم المتوسطي ، مقاربات جديدة، تنسيق ، عبد الرحمان المؤذن ، عبد الرحيم بنحادة ص 81، ط1،،2003 .

عبد السلام شقور ، التواصل العلمي بين بلدان المغرب العربي من خلال التراث الصوفي للشيخين أبي العباس زروق و أبي عبد الله الخروبي ، الطرابلسي ، أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي ، تنقلات العلماء و الكتب ، مراجعة و تقديم ، د . عبد الحميد عبد الله الهرامة ، كلية الدعوة الإسلامية ، ليبيا ط1 . 1998

La Revue Africaine

-A,berbugger,des frontiére de l' Algérie, R.A n°24 ,octobre,1860

-Berbugger.Andrien. la mort du fondateur de la Régence d'Alger (aroudj Barberousse in Revue Africaine,n°4.1859.1860

- Charles, feraud les ,les ben djelleb,sultans tougourt, R,A,n° 23, 1879

- De la primaudie, les espagnols en Afrique , Revue Africaine ,1875

- F.braudel, les espagnols et l'Afrique du nord, Revue Africaine,1928

الرسائل الجامعية

جلول المكي، مسألة الحدود بين الجزائر و المغرب ، 1234 – 1847 م ، و أثرها على العلاقات بين البلدين ، رسالة ماجستير بإشراف د. مولاي بالحميسي ،معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1993

جلول بن قمار ، معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات مع دول غرب أوروبا (البرتغال ، اسبانيا ، فرنسا) 986 – 1012هـ / 1578م – 1603م مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث بإشراف الدكتور عمار بن خروف و جامعة غرداية 2010 ، 2011

نجيب دكاني ، الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن 10هـ / 16 م . رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر . إشراف ، د. ناصر الدين سعيدوني جامعة الجزائر، 2001 /2002

قاصري محمد السعيد، المهاجرون الجزائريون و دورهم السياسي و الثقافي و الاجتماعي في المغرب الأقصى(1830 – 1930)، رسالة دكتوراه بإشراف د. عميراوي أحميدة ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2009 / 2008

مخطوط الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين ، لمحمد شقرون بن أبي جمعة الغراوي ، مذكرة ماجستير ، للطالب عبد القادر فكاير ، إشراف د. جمال قنان ، جامعة الجزائر ، معهد التاريخ ، م1995 / 1996 م

سعاد لبصير ، هجرة و نفي أهل العلم و الدين من الجزائر في العهد العثماني (1516- 1830) رسالة ماجستير إشراف كمال فيلالي ، جامعة منتوري ، قسنطينة 2007

قادة سبع ، المذهب المالكي بالمغرب الأوسط حتى منتصف القرن 5 هـ / 11م ، رسالة ماجستير ، كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية ، جامعة وهران ، 2003 / 2004

زدك إبراهيم ، الفتوى عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني 1518– 1830، ماجستير في التاريخ الحديث ، كلية الآداب و اللغات .. ، جامعة معسكر . 2011 / 2012

الطاهر بوناني ،الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرن (6 ، 7 هـ / 12 ، 13 م) ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي بإشراف د . عبد العزيز فيلالي – جامعة الجزائر . 2000 م

بوجلال قدور، العلم و العلماء في بايلك الغرب (1711 – 1830) معسكر و مازونة نموذجا ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث ، المركز الجامعي ، مصطفى اسطنبولي، معسكر ، 2008

ليلى غويني الموسومة ب : التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية الجزائرية ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث بإشراف ، د ،عائشة غطاس ، جامعة الجزائر ، معهد التاريخ . 2011 / 2010 م

المعاجم و المواقع الالكترونية:

فؤاد إفرام البستاني، منجد الطلاب، دار المشرق بيروت، ط27

جميل صاليبا ، المعجم الفلسفي ج1،دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982

موقع : مركز القاسمي للدراسات و الأبحاث الصوفية

المنجد في الأعلام ط2، دار المشرق(المطبعة الكاثوليكية) بيروت لبنان

ويكيبيديا الموسوعة الحرة

شوقي ضيف،المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية ،ط4، مكتبة الشرق الدولية ، القاهرة ،2004م

مختار جبار، عن التصوف والصوفية في الجزائر . انظر : الموقع الإلكتروني : http//www.almahdy.net

محمد مصطفى عبد القادر ، الطريقة الشاذلية ، الموقع الإلكتروني :

http://www.alsoufia.com

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المحتـــــوى

الإهداء
شكر و عرفان
قائمة المختصرات
مقدمة 01
تمهيد 15
الفصل الأول: **الأوضاع العامة في المغربين الأوسط و الأقصى خلال القرن ال10 هـ/ ال16 م**...27
المبحث الأول: أوضاع المغرب الأوسط في النصف الأول من القرن10هـ/ 16 م.....28
العوامل المؤثرة في أوضاع المغرب الأوسط خلال النصف الأول من القرن 10 هـ/ 16 م.....29
1- الأطماع الإسبانية والبرتغالية في السواحل المغربية 30
2- الإخوة بربروس وإلحاق الجزائر بالإمبراطورية العثمانية 31
3- نشاط عروج وخير الدين 34
4- صراع بني زيان على الحكم في النصف الأول من القرن السادس عشر و نتائجه.....36
5 – بداية نهاية حكم الزيانيين 38
6 - الأطماع السعدية في الغرب الجزائري 39
7- عودة حسن بن خير الدين و سياسته الجديدة 40
المبحث الثاني: المغرب الأقصى خلال القرن العاشر هجري/السادس عشر الميلادي 41
المغرب الأقصى في النصف الأول من القرن 10هـ/16م.....41
1-الدولة المرينية 42
2-الدولة الوطاسية.....43
3-التحرشات الاسبانية والبرتغالية بالمغرب الأقصى.....44
المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 10هـ/ 16 م 45
1-الدولة السعدية
.....45
2-الصراع السعدي الوطاسي
ونتائجه.....46

3-سياسة محمد الشيخ السعدي ونتائجها
47.....
4-خلفاء محمد الشيخ السعدي
48.....
خلاصة الفصل 49
الفصل الثاني: **الحياة الثقافية في الجزائر و المغرب خلال القرن10 هـ / 16 م** 51
المبحث الأول :**الحياة العلمية والأدبية في الجزائر أثناء العهد الزياني (نهاية القرن15م ومطلع القرن 16م)**...**52**
مفهوم الثقافة 52
التعليم في العهد الزياني (المؤسسات العلمية و التأليف) 53
1-المسجد 54
2-المدرسة 55
3-الزاوية و أهميتها 56
4-التأليف 57
5-التفسير 58
6-الأدب 58
7-العلوم الدينية 58
اهتمام السلاطين بالعلم و العلماء.....60
المبحث الثاني: ***الحياة العلمية في الجزائر خلال القرن 10هـ / 16 م (العهد العثماني)***.....63
العوامل المؤثرة في الواقع الثقافي 63
الهجرة الأندلسية 63
الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية 64
التواجد العثماني بالجزائر 64
العثمانيون و علماء الجزائر 65
التصوف في الجزائر 67
تعريف التصوف 67
المرابطون و الطرق الصوفية 68
المرابطون 70
سلبيات التصوف.....72

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إيجابيات التصوف.....72
المؤسسات الثقافية خلال العهد العثماني.....73
1-الكتاتيب.....73
2-المساجد.....73
3-المعمرات.....74
4-الزوايا.....74
5-المدارس.....75
***المبحث الثالث*: الحياة الثقافية بالمغرب الأقصى مع نهاية ق 9هـ-15م و طيلة القرن 10هـ – 16م**
الوضع الثقافي بالمغرب خلال فترة الدولة المرينية 77
الوضع الثقافي في المغرب خلال فترة الدولة الوطاسية 78
الحياة الثقافية في المغرب خلال فترة الدولة السعدية(النصف الثاني من قرن 10هـ/16م).. 79
خلاصة الفصل 81
الفصل الثالث: **هجرة علماء الجزائر إلى المغرب خلال 10هـ/ 16م و نتائجها**.....82
المبحث الأول : الهجرة الجزائرية نحو المغرب الأقصى و دوافعها 83
تعريف الهجرة 83
أسباب الهجرة الجزائرية نحو المغرب الأقصى 85
المبحث الثاني: هجرة علماء تلمسان إلى فاس في القرن 10هـ/ 16م 87
أهمية تلمسان 89
أهمية فاس 90
نماذج عن هجرة علماء المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى 92
أحمد بن يحي الونشريسي أبو العباس التلمساني 93
الوهراني أحمد بن أبي جمعة شقرون أبو العباس 94
أحمد بن محمد العبادي التلمساني 95
ابن جيدة الوهراني أحمد بن محمد بن يحي 95
علي بن موسى بن علي بن هارون أبو الحسن 96
الونشريسي عبد الواحد بن أحمد الونشريسي 96
العقباني أحمد بن محمد أبو العباس 97
أحمد بن يعقوب العبادي أبو العباس التلمساني 97

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ابن جلال الوعزاني المغراوي التلمساني محمد بن عبد الرحمان 98
محمد شقرون الوجديجي بن هبة الله التجيني التلمساني 98
محمد الحاج بن أحمد المري التلمساني 99
محمد بن أحمد التلمساني (ابن الوقاد التلمساني) 99
محمد بن أحمد التلمساني 100
المقري أحمد بن محمد بن يحي أبو العباس 100
المبحث الثالث:عوامل تقارب وامتداد ثقافة البلدين(المغربين الأوسط والأقصى)خلال القرن 10هـ/16م
العامل الأول : المذهب المالكي 102
1- ترجمة الإمام مالك 103
2- نشأة المذهب المالكي و انتشاره 103
3-خصائص المذهب المالكي 104
4-المذهب المالكي ببلاد المغرب الإسلامي 104
5-عوامل انتشار المذهب المالكي 106
العامل الثاني : الطرق الصوفية 107
الطريقة القادرية 108
الطريقة الشاذلية 109
العامل الثالث : التعليم 111
العامل الرابع : المختصرات 113
العامل الخامس : الإجازات العلمية 114
المبحث الرابع: نتائج هجرة علماء تلمسان إلى فاس 115
نتائج هجرة العلماء على الجزائر 115
نتائج هجرة العلماء على المغرب الأقصى 117
خلاصة الفصل 119
خاتمة 120
ملاحق 124
فهرس المصادر و المراجع 131
المحتوى 144

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزراة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة – كلية الآداب والحضارة الإسلامية

نيابة كلية الآداب لما بعد التدرج والبحث العلمي والعلاقات الخارجية قسم التاريخ

ملخص مذكرة ماجستير بعنوان :

هجرة علماء تلمسان إلى فاس و دورها الثقافي بين الجزائر والمغرب خلال القرن 10 هـ / 16م

في التاريخ الحديث والمعاصر

تخصص : العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير

للطالب : مسعود بقادي

نوقشت في رحاب جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بتاريخ 1435/04/19 هـ،الموافق ل:2014/02/19 م، هذه المذكرة من طرف اللجنة المتكونة من :

أ.د. أحمد صاري جامعة الأمير عبد القادر رئيسا .

د. عبد المجيد قدور جامعة الأمير عبد القادر مشرفا ومقررا .

أ.د. احميدة عميراوي جامعة الأمير عبد القادر عضوا.

د. خليفة حماش جامعة الأمير عبد القادر عضوا.

وبعد المناقشة منح الطالب شهادة الماجستير في تخصص : العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير علامة (أربعة عشر)20/14 بتقدير قريب من الحسن.

يندرج هذا البحث في إطار العلاقات الجزائرية المغربية خلال فترة زمنية هامة من تاريخ البلدين ،تميزت بالعديد من الهزّات السياسية سواء على مستوى المنطقتين (المغرب الأوسط،والمغرب الأقصى)،أوعلى مستوى حوض البحر الأبيض المتوسط ،وقد انطلق البحث من مجموعة تساؤلات على شكل إشكاليات متعددة منها :

– لماذا شملت هذه الهجرة فئة العلماء ؟

– من هم هؤلاء العلماء ؟ و هل كانت علومهم دينية أم دنيوية ؟

– ما هوموقف المغرب الأقصى – سلطة و شعبا– من هذه الهجرة ؟

ولعل من أبرز أهداف هذا البحث يتمثل في:

1 – التعريف بذلك العدد المتميز والمتنوع من العلماء الجزائريين خلال القرن 10هـ / 16 م

2 – الهجرة كظاهرة لها أسبابها ونتائجها – سلبا و إيجابا –

3 –التواصل الثقافي بين الشعبين الجزائري والمغربي ودور العلماء في ذلك

وللإجابة على هذه الإشكاليات انتهجت خطة شملت مدخلا وثلاثة فصول وخاتمة

فالفصل الأول،خصصته للأوضاع العامة في البلدين المغرب الأوسط و المغرب الأقصى،وقد قسمته الى أربعة مباحث،تناولت في المبحث الأول،أوضاع المغرب الأوسط في النصف الأول من القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،والمبحث الثاني،تناولت فيه أوضاع المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي (أي عهد الأتراك)،أما المبحث الثالث فقد خصّصته لأوضاع المغرب الأقصى في النصف الأول من القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي (أي فترة أواخر الدولة المرينيةوبداية الدولة الوطاسية)،والمبحث الرابع ركّزت فيه على أوضاع المغرب الأقصى العامة في النصف الثاني من القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي (أي فترة الدولة السعدية)

أما الفصل الثاني،فعنونته بالحياة الثقافية في الجزائر والمغرب خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،حيث استعرضت فيه ثلاث مباحث متمثلة في:المبحث الأول بعنوان الحياة العلمية والأدبية في الجزائر أثناء العهد الزياني(نهاية القرن التاسع هجري / الخامس عشر ميلادي ،ومطلع القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،والمبحث الثاني خصّصته للحياة العلمية في الجزائر أثناء القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،والمتعلق خاصة بالفترة العثمانية.أما المبحث الثالث فقد تناولت فيه الحياة الثقافية بالمغرب الأقصى مع نهاية القرن التاسع هجري / الخامس عشر ميلادي،وطيلة القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي،وهو متعلق بالدول الثلاث المتعاقبة على الحكم في المغرب الأقصى (المرينية ، الوطاسية ، السعدية) .

والفصل الثالث،تحدثت فيه عن هجرة علماء تلمسان الى المغرب الأقصى خلال القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي،ونتائجها وقد قسّمته الى أربعة مباحث **فالمبحث الأول**،كان بعنوان الهجرة الجزائرية نحو المغرب الأقصى ودوافعها،إذ عرّفت فيه مدلول الهجرة ودوافعها،أما **المبحث الثاني** فقد خصّصته لهجرة العلماء الجزائريين الى فاس في القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي،مركزا على تلمسان كقاعدة انطلاق لعدد هائل من العلماء والذين كانت وجهتهم نحوفاس،وكان من الضروري أن أعطي صورة عامة عن ماضي هاتين الحاضرتين (تلمسان وفاس) وبعدها ترجمة موجزة لأبرز العلماء الذين هاجروا خلال الفترة موضوع البحث،و**المبحث الثالث** تناولت فيه مسألة تقارب وامتداد ثقافة البلدين،المغرب الأوسط والمغرب الأقصى،من خلال مظاهر متمثلة في:أولا :المذهب المالكي ثانيا :الطرق الصوفية (خاصة القادرية والشاذلية)

ثالثا:التعليم،رابعا:الإجازات العلمية.أما المبحث الرابع فقد تناولت فيه نتائج هجرة علماء تلمسان الى فاس،وقسّمته الى قسمين:القسم الأول،خاص بنتائج هذه الهجرة على الجزائر،والقسم الثاني،كان خاصا بنتائج هذه الهجرة على المغرب الأقصى

وختمت هذه الدراسة بحوصلة جمعت فيها أبرز النتائج المتوصل اليها،وأتممتها بمجموعة من الملاحق،التي رأيت أنها تخدم الموضوع،وأخيرا وضعت ثبتا للمصادر والمراجع العربية والأجنبية المعتمدة في البحث،متبوعا بفهرس للموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Résumé de recherche

Cette recherche s'inscrit dans le cadre des relations algéro-marocaines pendant une période de temps significative de l'histoire des deux pays et qui a été caractérisée par un grand nombre de tremblements politiques que ce soit au niveau des deux régions (le Maghreb central et le Maghreb extrême) Ou au niveau du bassin méditerranéen.

La recherche a lancé une gamme de questions sous la forme de multi-problèmes y compris :

Pourquoi cette immigration inclut la catégorie des savants ?

Qui sont ces scientifiques ? Et leurs sciences étaient-elles religieuses ou mondaines ?

Quelle est l'attitude de l'autorité et des gens du Maroc ?

Et peut-être le plus important de cette recherche et:

Faire connaitre un nombre distinctif et diversifié des savants algériens pendant le 10ème siècle de l'hégire / 16 A J-C.

La migration comme un phénomène qui a ses causes et ses conséquences – négativement et positivement- .

La communication culturelle entre les deux peuples de l'Algérie et le Maroc et le rôle des savants dans cela.

Et pour répondre à ces problèmes j'ai poursuivi un plan comprenait une introduction, trois chapitres et une conclusion.

Dans le premier chapitre, je l'ai consacré à la situation générale dans les deux pays (le Maghreb central et le Maghreb extrême), et je l'ai divisé en quatre objets de recherche ; j'ai traité dans le premier objet, la situation du Maghreb central dans la première moitié du 10ème siècle de l'hégire / 16ème AJ-C, pour le deuxième objet, j'ai traité la situation dans le Maghreb central dans la deuxième moitié du même siècle (l'époque des turcs). Le troisième objet de recherche a été

allouée à la situation au Maghreb extrême dans la première moitié du siècle cité (la période de la fin de l'état Mérinide et le début de l'état Wattasside) .Le dernier objet de recherche (le 4ème) dont je me suis concentré sur la situation générale du Maghreb extrême dans la deuxième moitié du 10ème siècle de l'hégire/ 16ème A J-C (la période de l'état Saadiens).

Pour le deuxième chapitre, je l'ai titré par la vie culturelle en Algérie et au Maroc pendant toujours le même siècle où j'ai traité trois objets de recherche : le premier sous le titre (la vie scientifique et littéraire en Algérie) pendant le règne Zianide (fin du 9ème siècle de l'hégire/15ème siècle A J-C et début du 10ème siècle de l'hégire/ 16ème siècle A J-C). Le deuxième objet de recherche est consacré à la vie scientifique en Algérie pendant le 10ème siècle de l'hégire/16ème A J-C et en particulier sur la période de l'empire Ottoman. Dans le troisième objet, j'ai parlé de la vie culturelle au Maghreb extrême (le Maroc) avec la fin du 9ème siècle de l'hégire / 15ème A J-C et tout au long du 10ème siècle d l'hégire / 16ème A J-C qui est lié aux trois états et leur succession de la gouvernance du Maghreb extrême(le Maroc) (Mérinide, Wattasside et Saadien).

Dans le troisième chapitre, j'ai parlé de la migration des savants algériens au Maroc pendant le 10ème siècle de l'hégire / 16ème A J-C et ses conséquences, et je l'ai divisé en quatre objets de recherche.

Premier objet de recherche : la migration algérienne vers le Maghreb extrême et ses motifs où j'ai défini la signification de la migration et ses motifs.

Deuxième objet de recherche : je lui ai consacré à la migration des savants algériens à Fès pendant le 10ème siècle de l'hégire / 16ème A J-C en se concentrant à Tlemcen comme une base de départ à un nombre important des savants et dont leur destination était Fès. Il

était nécessaire de donner un aperçu général à propos de ces deux civilisations (Tlemcen et Fès) et après une brève traduction des savants les plus éminents qui ont émigrés pendant la période du sujet de la recherche.

Troisième objet de recherche : portait sur la question de la convergence et l'extension de la culture des deux pays(le Maghreb central et le Maghreb extrême) à travers des aspects représentés comme suit :

La doctrine Malikite

Les méthodes soufies (en particulier : Quadiriya et Chadliya)

L'enseignement

Les brevets scientifiques

Quatrième objet de recherche : j'ai traité dans cet objet les conséquences de la migration des savants de Tlemcen à Fès et je l'ai divisé en deux parties : la première partie concerne notamment les conséquences de cette migration sur l'Algérie. La deuxième partie a été consacrée spécialement des conséquences de cette migration sur le Maroc.

J'ai fini cette étude par un résumé dans lequel j'ai recueilli les résultats les plus importants obtenus, et je l'ai achevée par une série d'annexes que j'ai trouvées qu'elles servent le sujet.

Enfin, j'ai mis toute une bibliographie de toutes les sources et les références arabes et étrangères adoptées dans cette recherche, suivie d'une table de matière de tous les sujets.

Etudiant:messaoud Bagadi

Aflou: le14/04/2014

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية